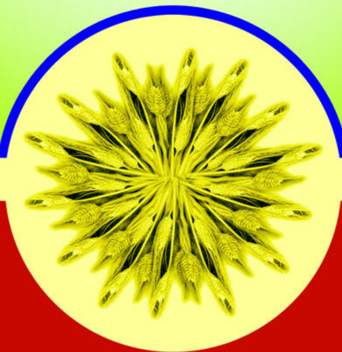
﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾

غُرَرُ البَيَان

مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ عليه السلام فِي القُرْآن

دراسة قصصيَّة ولمسات بيانيَّة

أحمد محمود الشوابكة



تقديم ومراجعة

أ.د. أحمد نوفل
كليـة الشرَّيعـة - الجامعـة الأردنيَّـة

أ.د. محمود السرطاوي
كليَّة الشريعة - جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة

د. صلاح الخالدي
كليَّة الشرَّيعة - جامعة العلوم الإسلاميَّة العالمية

دار الفاروق
عمَّان - الأردن

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ-٢٠١٠م

٢٢٨ المملكة الأردنية الهاشمية
* رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٠/٣/٩٠٧)
* الشوابكة، أحمد محمود خليل
* غرر البيان/ أحمد محمود خليل الشوابكة: المعد، ٢٠١٠
* عدد الصفحات (٢٣٨)
* ر.أ.: ٢٠١٠/٣/٩٠٧
*الواصفات: قصص القرآن//القرآن//الإسلام// الثقافة الإسلامية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا الصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.
* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار الفاروق

للنشر والتوزيع

عمان – العبدلي - عمارة جوهرة القدس

تلفكاس ٠٠٩٦٢٦٤٦٤٠٠٦٤

E-mail: daralfarouq@ yahoo.com

غُرَرُ البَيَان

من سورة يوسف عليه السلام في القرآن

دراسة قصصيَّة ولمسات بيانيَّة

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾

أحمد محمود الشوابكة

تقديم ومراجعة

أ.د. أحمد نوفل
كليَّة الشَّريعة ـ الجامعة الأردنيَّة

أ.د. محمود السَّرطاوي
كليَّة الشَّريعة ـ جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة

د. صلاح الخالدي
كليَّة الشَّريعة ـ جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة





الإهداء

إلى مَنْ أوْصَاني ربِّي بهما خيراً، فقال:

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾[الإسراء].

إلى مَنْ أسْألُ رَبِّي لهما خيراً، فأقول:

﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

ابنكما البَارُّ

الغَنِيُّ بالفَقْرِ إلى الله

أحمد محمود خليل الشوابكة

أبو عبيدة

تقديم

أ.د. أحمد نوفل

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان]
والصَّلاة والسَّلام على من كان خلقه القرآن ـ ﷺ ـ، وعلى آله وأصحابه الكرام، وبعد:

فإنَّ القرآنَ أعظمُ المعجزات، وقصصه من أعظم معجزاته، وقصَّة يُوسُفَ أروع هذه القصص، وأبدع ما عرفت الدُّنيا من قصص، فلا جَرَمَ، يقول ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ في مطلعها وفاتحتها: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ... ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف] ووصْف الأحسنيَّة ليس مقتصراً على هذه القصَّة بطبيعة الحال، ولكنَّ حظَّها من الأحسنيَّة حظٌّ أوفى.

وقد جَذَبَتْ هذه القصَّةُ أقلاماً كثيرة لتكتُبَ عنها، وأنظاراً كثيرة تستجلي حسنَها وبهاءَها، وقد كَتَبْتُ منذ أكثر من ربع قرنٍ كتاباً جَاوزَ ستمائة صفحة، وما وفَّيتها حقَّها.

وقد أطلعني الأستاذ أحمد على مخطوطة كتابه (غرر البيان من سورة يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ في القرآن)، وهو كِتَابٌ وجيز لطيف، فيه من رياض التَّفاسير مقتطفاتٌ، ومن بحارها غُرُفَاتٌ، ومن فِكْرِ صاحب الكتاب نَظَرَاتٌ.

وقد تصفَّحت الكتابَ، فوجدت حِرْصاً عند صاحبه وإخلاصاً على تخليصه من الإسرائيليّات، وهذا بحدّ ذاته مَطْلَبٌ عزيز عَزَّ من اعتنى به، فنحن في وقت كَثُرَ الاغترافُ من عين الإسرائيليَّات الحمئة، وقلَّ من يترفَّع عن لوثاتها.

على كلِّ حال، هذه واحدة من مزايا الكتاب، ولغة صاحبه جيِّدة، فالكتاب رَشِيقُ العِبارةِ واللُّغة، كأنَّ لُغَتَهُ الأمْثَالُ المُرْسَلة.

أمَّا تحليله للآيات ففيه من لطائف القرآن، ولمسات البيان الشَّيء الطَّيِّب... أسأل الله لصاحبه التَّوفيق والمزيد.

أ.د. أحمد نوفل
أستاذ التَّفسير والدِّراسات القرآنيَّة
كليَّة الشَّريعة ـ الجامعة الأردنيَّة

عمَّان ٧/ ذو الحجّة / ١٤٣٠هـ
الموافق ٢٤/ ١١/ ٢٠٠٩م

تقديم

أ.د. محمود السَّرطاوي

الحَمْدُ لله الهادي إلى سَواء السَّبيل، يُؤتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ، ولا يَنْسى من فَضْلِهِ أحَداً، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مُعَلِّم النَّاس الخير، وقُدْوَتِهم في الدَّعوة والإصلاح، رسُولِ الإنسانيَّة محمَّدٍ بن عبد الله ـ ﷺ ـ وعلى الآل والصَّحب الأخيار الأطهار الأبرار، وعلى مَنْ تَبِعَهُم وَسَارَ على منهجهم إلى يومِ الدِّين، وبعد:

فإنَّ العِلْمَ ـ كما يقولون ـ رَحِمٌ بين أَهْلِهِ، وقَلِيلٌ هم أولئكَ النَّفر الَّذين يتمسَّكون بهذا القول منهجاً وسُلُوكاً.

لم يكُن الأستاذ أحمد أحَدَ طلَّابي، وهم كُثُرٌ وفيهم الخير الكثير، لكنَّه دَلَفَ إليَّ ذات يوم بمخطوطة كتابه لأضع لها مُقدّمة، فقَرَأْتُ المخطوطة لأرى إنْ كانت المنهجيَّة سليمة والأهدافُ واضحةً، وإذا بي أَقِفُ على كلامٍ لرَجُلٍ طَلْقِ العِبَارة، له بَاعٌ في الأدب واللُّغة، قادر على صَيْدِ اللآلِئ، غوَّاص إلى المعاني، يُعبِّرُ عنها ببيان تَطْرَبُ له الآذان، وتستجِيبُ له الأفئدة، وتستهويه النُّفوس.

وتعتمد دراسته على منهجيَّة علميَّة بعيدة عن الهوى، يَرِدُ فيها الموارِدَ الصَّعْبَةِ الَّتي زلَّت فيها أقلامُ أقوام ساروا ورَاءَ الهوى؛ فلم تصفُ كتبهم من الأقذاء والأكدار، لكنَّ صاحِبَنا ـ بفضل من الله تعالى عليه ـ يَشْرَبُ منها ماءً عذباً، ويفيضُ بما منحه اللهُ تعالى على الآخرين.

والكتابُ الَّذي بين يدي القارِئ ضمَّنه الكاتب فوائد وفرائد عديدة، حيث تحدَّثَ عن منهج الدُّعاةِ، وما ينبغي أن يتَّصِفَ الدَّاعية به من العِلْم والحِلْمِ والصَّبر والأناةِ... وتحدَّثَ عمَّا يلاقيه الدَّاعية من المِحَن، وما يناله من الأذى، وهذا ليس غريباً، فالله تعالى يقول: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان].

ويُضيفُ الكاتبُ إلى هذا جُمْلَةً من المعاني والمبادئ المستنبطة من قصَّة يُوسُفَ

ـ ، منها مبدأ الشُّورى، ومبدأ العدل، وأُسُسُ التَّقاضي، فعزيز مِصْر يخطِّئ زوجته، ويحكم بها أَمْلَتْه العدالة وأصول التَّقاضي على زوجته، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ ...﴿٢٨﴾﴾ [يوسف].

وقد ضمَّن الكَاتِبُ بين دفَّتي كتابه من اللّطائف القرآنيَّة، واللَّمسات البيانيَّة ما لا يتَّسع المقام لذكرها، وحسبي أن أشَرتُ لبعضِها.

وقد انشَرحَ صدري على معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ...﴿٢٤﴾﴾ [يوسف] حيثُ وضَّح ببيان اللُّغة نفي ما توهَّمه بعضهم ممَّا لا يليق بالأنبياء من أنَّ يُوسُفَ ـ ـ همَّ بالوقوع في الجريمة لولا أن رأى برهان ربِّه.

لقد وَقَفَ الكاتبُ وقْفَةَ تأمّلٍ بعد ذكره المحن الَّتي مرَّ بها يُوسُفُ ـ ـ ومرَّ بمثلها وأكثر منها سيِّدُ الأنام محمَّد ـ ﷺ ـ فيما يؤولُ إليه أمرُ الصَّابرين الصَّادقين من الفوز والنَّجاح، وتحقيق الأهداف، جميلٌ هذا الرَّبط بين قصَّة يُوسُفَ ـ ـ ومناسبة نزولها، وبديع ذلك البيان لمكانة سُورة يُوسُفَ بين أخواتها في القرآن.

أسألُ اللهَ تعالى أن ينفعَ به، وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأبرَّه وأوفاه، وأن يتغمَّدني اللهُ تعالى بعفوه ومغفرته وكرمه والمسلمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

أ.د. محمود علي السَّرطاوي

أستاذ الفقه المقارن

نائب رئيس جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة

١/ محرَّم/ ١٤٣١هـ

١٨/ ١٢/ ٢٠٠٩م

المقدّمة

الحمدُ لله الكريم المنّان، أنزل أعظم كتاب هو القرآن، على أعظم نبيٍّ هو سيِّدنا محمَّدٍ خَيْرِ الأنام، الَّذي أزال بيانُه عن الأذهان والأفهام كُلَّ إِبْهام، أشرف الخلق عجماً وعرباً، وأزكاهم حَسَباً، وأطهرهم نَسَباً، وعلى آله الَّذين اهتدوا بهداه، وعلى أصحابه الَّذين استمسكوا من الدِّين القَيِّم بِعُراه.

وبعد، فلا ريب أن علوم القرآن كثيرة، وفنونها غزيرة، وضروبها جمَّة جليلة، يجِلُّ عنها القولُ مهما كان بالغاً، ويَقْصُر عنها الوَصْفُ مهما كان سَابِغاً.

ومن أعظم علوم القرآن قَدْراً، وأعلاها أمراً علمُ التَّفسير والتَّأويل، وقد رأيت مصنَّفات لا تحصى، فيها من الموضوعات والإسرائيليّات ما بين مختصر ومبسوط ما لا يُسْتقصى، وقد نال القصص القرآنيّ منها الحظّ الأوفى.

فقد تكلَّم في قصص القرآن خَلْقٌ كثير، فدرسوا معانيها ومبانيها، وتدبَّروا في تفسيرها وتأويلها، وتكلَّموا في نُكَتِها ولطائفها... وسيظلُّ القرآنُ مَشْغَلَة الدَّارسين، وحديثَ الباحثين، جيلاً فجيلاً إلى يوم الدِّين... ولكن كان خليقاً بالَّذين شانوا كتبهم بأخبار القُصَّاص وحكايات الوضَّاعين وخلافها، ألَّا يخوضوا كالَّذي خاضوا ، وألَّا يزيدوا على كدرٍ كدراً !

وقصَّة يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ أَسَرَتْ عَبْرَ الزَّمان قلوباً، وأبكت عيوناً؛ كيف وقد وُصِفَت بأَحْسَن القصص، كيف وقد قصَّها الله علينا بالحقِّ من أنباء ما قد سبق! كيف وقد جاءت بألفاظٍ مُدَبَّجة، ومعانٍ متوَّجة، موشَّاة بألوان الفوائد والفرائد، غنيَّة بوجوه المعارف وشوارد الطَّرائف، مفعمة بالإيماءات النَّفسيَّة النَّفيسة!

وهي قصَّة تصافِحُ القلوب، وتَسْكُن بها الخواطر، وتُقْتَبَسُ منها اللَّطائف، وتُلْتَمَسُ منها الهداية في المواطن والمواقف، وتقتنص منها غُرَرُ المعاني بعد سَبْرِ المباني، وتحثُّ على التَّفكُّر والاعتبار، والاتِّعاظ والازدجار، والائتمار والانزجار.

ومعاذ الله أنْ أدَّعي أنَّني قد عرفت ما لم أُسْبَق إليه، وما لم أُزَاحم عليه، وما لم يَطَّلِعْ أحَدٌ عليه، وما لم تصل أنظارٌ إليه، فما أنا إلَّا بَنَانُ كَفٍّ ليس فيها سَاعِد، لي همَّة لكن لا مقدرة لي على بلوغ ما في نفسي من هوىً في علوم القرآن.

وأنا أعلم أنَّ لعلمائنا الأوائل في هذه العلوم عطاءً غَدَقاً، وما أنا بأهل أن أنطق بلسانهم، فكيف لي أن أبلغ مراتبهم، فليس الصَّحيح إذا مشى كالمقعد، وليس البَحْرُ العَذْبُ الفرات السَّائغ الشَّراب كالماءِ الملح الأُجَاج، فما أنا إلَّا طالبُ علمٍ أراد أن يَشْغَلَ نفسه بالعلوم الَّتي تقرِّب إلى الله، وتُعِينُ على الوصول إلى رضاه.

فالمؤمن لا ينشغل بالدُّنيا عن الآخرة، ولا يُلْهِه الأَمَلُ عن الأَجَل، فالله تعالى يقول: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] وإنَّما المؤمن يبيع نفسه ابتغاءَ مرضاة الله، وينفق عمره في الدَّعوة إلى الله على بصيرة اتِّباعاً للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، وطاعة لله تعالى إذ يقول لنبيِّه ـ ﷺ ـ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ... ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف].

فهذه الآية من سورة يُوسُفَ رَسَمَتِ المنهج الحقَّ لكلِّ متَّبعٍ للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ أن يكون داعيةً إلى الله على بصيرة، والأمَّة اليوم قد بَعُدت عن عهد النُّبوَّة؛ فشاع في بعض جوانبها بُعْدٌ عن المنهج النَّبويِّ.

وقد رأيت كثيراً من النَّاس عن سبيل الدَّعوة ناكِبين، ولأصحابها كارهين، ولعملهم قَالِين، فالنَّجاةَ النَّجاةَ بالالتزام بالكتاب والسُّنَّة، والدَّعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة...

واتِّباع الرَّسول ـ ﷺ ـ أَمَرَ اللهُ به كُلَّ إنسان في العُسْر واليُسْر والمَنْشَط والمكْرَه، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النّور]

ومن ثمرات اتِّباع الرَّسول ـ ﷺ ـ محبَّةُ الله تعالى وغفرانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران] فالآية تقتضي أنَّ محبَّة الله تجب لنا بعد اتِّباع الرَّسول ـ ﷺ ـ، ومن أَجَلِّ ما نتَّبع به الرَّسول ـ ﷺ ـ أن نكون دعاة إلى الله على بصيرة، فالبِدَارَ البِدارَ.

وقد بيَّنت سورة يُوسُفَ لنا بعض ملامح الدَّاعي إلى الله، فهو يحتاج إلى أن يكون على حظٍّ وافر من العلم، والحلم، والحكمة، والأخلاق، والصَّبر، والأمانة... كما بيَّنت لنا بعض وسائل الدَّعوة إلى الله، ومنها ذكر القصَّة لما لها من أهميَّة وأثر وهدى على حياة الدَّاعي إلى الله والمدعوّ، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ... ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ... ﴿١١١﴾ ﴾ [يُوسُف]

فالحاجة ماسَّة لاستخدام هذا الأسلوب القرآنيّ النَّفيس من قِبَل الدُّعاة إلى الله تعالى لتأثيره البالغ في النُّفوس: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى

ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ...﴿٢٣﴾ ﴾ [الزّمر].

وقصَّة يُوسُفَ تُذَكِّرُ بقول النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ لَمَّا سأله سَعْد أيُّ النَّاس أشدُّ بلاءً؟ فقال ـ ﷺ ـ : " الأنبياءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ "(1) ولذلك ابتُلي نبيُّ الله يعقوب ـ عليه السلام ـ بفقد حبيبه وحبيبتيه، وابتُلي يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ بإخوته فصار طريحاً، ثمَّ ابتلي بالسَّيَّارة فصار مملوكاً، ثمَّ ابتلي بامرأة العزيز فصار سجيناً...

لكنَّ سنَّة الله تعالى أن يدافع عن أوليائه المحسنين، وأن ينجِّي المتَّقين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النَّحل] فقد ردَّ اللهُ على يَعْقُوبَ بَصَرَهُ، وجمع بينه وبين يُوسُفَ بعد غُرْبَةٍ دامت أربعين عاماً، ونجَّى اللهُ يُوسُفَ من الجُبِّ، والكيد، والسِّجن، وَرَفَعَهُ أعلى الدَّرجات، فما بعد المَعْسَرة إلَّا المَيْسَرة، ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشَّرح] وعند انسدادِ الفُرَجِ تبدو مطالعُ الفَرَجِ، ﴿ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٍ يُسۡرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطَّلاق].

ما أحوج القَلبَ إلى قَصَصِ القرآن! ففيه عبرة لكلِّ إنسان، وغِنىً عن قَصَصِ وأَنْبَاء أَبْنَاء هذا الزَّمان! وهذا كتاب في قصَّة من قَصَصِ القرآن العظيم قدره، الدَّائم خيره، الجزيل نفعه، التَّامّ نوره، الواضح بيانه، القاطع برهانه... سمَّيته (غرر البيان من سورة يُوسُفَ عليه السلام في القرآن) جمعته من رياض التَّفاسير حسب الأصول، وحرَّرته من مختلف تفاسير أهل النُّقول، والله أسأل أن ينفع به فهو خير مرجوٍّ ومأمول.

---

(1) أحمد " المسند " (ج٣/ ص٨٧/ رقم١٤٩٤) وإسناده حسن لأجل عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ.

وما بي من حاجة لبيان قيمته العلميَّة، وما فيه من مزايا قلَّ أن توجد في كتاب واحد، فقد جَهَدْتُ جَهْدي على أن يأتي هذا الكتاب جامعاً لأشتات العلوم، ومنثور الفنون، وسائغاً لأرباب الفُهُوم، على أنَّه لم يأتِ ليبلغ الغاية والنِّهاية فيها، وإنَّما لينبِّه لها ويذكِّر بها.

وحرصت على إعفائه من الإسهاب والإطناب والتَّطويل والتَّثقيل، مع الاقتصاد في اللَّفظ، والوفاء في المعنى.

وقد هذَّبت لفظه، وذهَّبْتُ نَظْمَه، وضَمَّنته من بديع الكلام وحلوه، ودُرِّيِّه ودُرِّه، وجمعت فيه نثير الجُمان، ودُرر البيان، لأعيد لهذه اللُّغة في القلوب هيبتها، ولكن أنَّى لمثلي أن يُحاكي وشْيَها البليغ، وحبكها البديع!

وكنت وضعت كتاباً للنَّشء قبل عقدين من الزَّمان، ثمَّ رأيت أن أضع كتاباً للعامَّة والخاصَّة من ذوي البصائر والأذهان والحذق والإتقان، لتتمَّ الفائدة، وتكمل المنفعة، على أنَّني لم أنتهِ به إلى غاية ليس وراءَها مُريدٌ من كلِّ وجه؛ فالقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته، وسيظلُّ لابساً حُلَلاً من الجزالة والفصاحة، لا تنالها أقلام الأدباء ولا البلغاء.

وقد تنقَّلت بين مناهج التَّفسير ومراحله، وربطت بين الماضي والحاضر ما استطعت سبيلاً، فإنَّ هذه السُّورة وغيرها فيها أخبار أقوام قامت عليهم الحُجَّة، فقد أرسل اللهُ لهم ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ...﴿١٦٥﴾ ﴾ [النّساء] وفيها من العجائب والغرائب، والدَّقائق والخفايا، ما يقعد بالألفاظ عن استيفاء الغاية، فجَمَعْتُ ما تيسَّر وتقدَّر عبرةً لمن يتذكَّر، وقد أثْبَتُّ الكتب الَّتي أفَدْتُ منها في خاتمةِ البَحثِ، دون إيرادها في داخله؛ لتصرُّفي في

العِبارةِ.

وتوخَّيت الحقَّ المبين من كلام علمائنا أهل التَّفسير والتَّأويل، وقمت مضْطرّاً غير باغٍ ولا عادٍ بشيءٍ من التَّصحيح والتَّعديل.

كما حاولت أن أنفي عن كتاب الله تعالى تخرّصات الخرَّاصين الَّتي ألصقت بهذه السُّورة العظيمة من ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ ... ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف] ومن الَّذين قال الله فيهم: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف].

وإلى الله أرغب أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله نافعاً لمن نَظَر فيه أو أعانني عليه النَّفع العميم، وأن يجعله في صحائف أعماله يوم الدِّين ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران]

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

المؤلِّف

أحمد الشّوابكة



سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف]

حُسْنُ المطلع

من سحر البيان وقطع الجُمان وبدائع القرآن ما يسمَّى حسن المطلع، وهو أن يُفْتَتَحَ الكلامُ بكلام يُشْعِرُ بجودة البيان؛ لأنَّه أوَّل ما يحدِّق به الطَّرف، وأوَّل ما يدور في الذِّهن، فيتعيَّن أن يجمعَ الكلامُ بين الجزالةِ والعذوبةِ، والرَّصانةِ والسَّلاسةِ، وهذا ما جرى عليه القرآن.

وهو في القرآن نوعان: خفيٌّ وجليٌّ، فالخفيُّ ما افتتحت به السُّور من الحروف المفردة والمركَّبة، ومن ذلك سورة يُوسُفَ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف] والجليُّ ما لم يبدأ بالحروف المقطَّعة، وهو غالب على مطالع سور القرآن.

سَبَبُ التَسمِيَة

هِيَ مَكِّيَّة بالإجماعِ. وسمِّيَتْ " سُورة يُوسُف " لأنَّها تَناولَتْ قِصَّةَ يُوسُفَ مَعَ إخْوتِه بالتَّفْصِيل، وتكَرَّرَ فيها اسمُ يُوسُفَ خمساً وعِشرِينَ مَرَّة. ومن عجيب الموافقات أنَّ سورة يُوسُفَ هي السّورة الثَّانية عشرة في ترتيب المصحف، ووقعت في الجزء الثَّاني عشر، ورقم السّورة والجزء يناظر عدد أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ.

سَبَبُ النُزُول

نَزَلَتْ سُورَة يوسف بَعْدَ اشْتِدَادِ الأزْمَةِ على النَّبيِّ ـ ﷺ ـ في مَكَّةَ مع قريش، وبَعْدَ عامِ الحُزْنِ الَّذي فَقَدَ فِيهِ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ زَوْجَتَهُ الطَّاهِرَة خديجة ـ رضي اللهُ عنها

ـ وعمَّهُ أبا طالِب، الَّذي كان ظَهِيراً ونصيراً له.

وفي سَبَبِ نزولها أخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقّاص، قال: " نَزَلَ القُرآنُ على رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ، فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رَسُولَ الله، لو قَصَصْتَ علينا، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ ﴾"[1] [يوسف][2].

وقد نزلت في أواخر العهد المكّيّ تسلية للنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ ففيها الإلماح إلى تشابه واقع النَّبيّين، فقصَّة يُوسُفَ مع أخوته أشبه بقصَّة النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ مع قريش، فإذا كان يُوسُفُ قد تآمر عليه أخوته، وفكَّروا في قتله أو إبعاده وإخراجه، وقالوا: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ... ﴿٩﴾ ﴾ فإنَّ في ذلك تثبيتاً لفؤاد النَّبيِّ ـ ﷺ ـ يوم تآمرت عليه قريش في دار النَّدوة، وقرَّروا: حبسه، أو قتله، أو إخراجه من مكَّة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال].

وغيابة الجبِّ في محنة يُوسُفَ قبيل الرَّحيل به لمصر، فيها تسلية للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ وهو في غار ثور قبيل الهجرة للمدينة.

وسجن يُوسُفَ بمصر ظلماً وعدواناً، فيه ذكرى للنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ وأصحابه وهم في شعب أبي طالب بعد أن حاصرتهم قريش وقاطعتهم ظلماً وعَدْواً ، وهذا كلُّه يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود].

وسجنهم ليُوسُفَ ـ عليه السلام ـ وتماديهم في ظلمهم له رغم ظهور الآيات الدَّالة على

---

(١) الحاكم " المستدرك " (م٢/ ص٣٤٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، ووافقه الذَّهبي.
(٢) الآيات الَّتي تُرِكَت بعد ذلك دون تخْرِيجٍ هي من سُورةِ يُوسُفَ.

براءته وصدقه، كما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ يذكِّر في تمادي المشركين في غيِّهم في حقِّ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ، مع رؤيتهم الآيات الدَّالة على صدقه ـ ﷺ ـ كما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصّافات].

ومن التَّشابه بين واقع يوُسُفَ ـ عليه السلام ـ وواقع النَّبيِّ ـ ﷺ ـ، أنَّ الله تعالى مكَّن للنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ بأرض المدينة كما مكَّن ليُوسُفَ بأرض مصر :

تَلْقَـى بكـل بـلادٍ إن حَلَلْـتَ بهـا ... أهـــلاً بأهـــلٍ وجيرانـاً بجيـــران

ومن التَّشابه أنَّ الله تعالى جمع بين النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ وأهل مكَّة بعد غربة وعناء، كما جمع بين يوُسُفَ ـ عليه السلام ـ وأهله بعد غربة وشتات، وعفو النَّبيِّ ـ ﷺ ـ عن أهل مكَّة، يشبه عفو يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ عن إخوته.

فإذا كان للنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ في الأنبياء ما يثبِّت به فؤاده، أفلا يكون لنا في النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ خاصة وفي الأنبياء عامة ما نثبِّت به الأفئدة، ونطمئن به النُّفوس، ونصلح ما في الصُّدور؟!

من أوجه التناسُب بين سُورة يُوسُفَ وما قبلها وما بعدها

من أوجه الشَّبه والتَّناسق بين سُورَة يُوسُفَ وسُورة هود التي سبقتها، أنَّ سُورةَ هود ذُكِرتْ فيها قصَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد بُشِّرَ فيها بإسحاق ومن ورائه يعقوب، فبعد أن ذكر الله تعالى قصَّة إبراهيم مع الملائكة، قال: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود] ونحن نعلم أنَّ سُورة يُوسُفَ تدور حول يعقوب وأبنائه الَّذين هم أحفاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

ومن أوجه وضع سورة يُوسُفَ بعد سُورة هود أنَّ سورة هود تضَمَّنت على مجموعة من قَصَصِ الأنبياء ابتداءً بقصَّة نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم إبراهيم، ثم

لوط، ثم شعيب، ثم موسى وهارون، وبعد هذه السُّورة التي اشتملت على هذه القصص الحسنة المجملة كلِّها، جاءت سُورةُ يُوسُفَ تقصُّ علينا أَحْسَنَ القَصَصِ المتَّصلة المفصَّلة؛ لتُثْبِت إعجاز القرآن في المُجْمَل والمُفَصَّل، والإيجاز والإطناب.

كما جَمَعَتْ بين السُّورتين سُنَّةُ الله تعالى في نجاة رسله والَّذين آمنوا برحمة الله وفضله، فممَّا ورد من ذلك في سورة هود، قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود] وفي سورة يوسف، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ فسبحان منزل الكتاب، وناصر الأحباب!

ومن أوجه التَّناسب أنَّ سورة هود حدَّثتنا عن عداوة وحسد الأباعد للأنبياء، وسورة يُوسُفَ حدَّثتنا عن عداوة وحسد الأقارب لنبيِّ الله يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ وكلاهما تسلية للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ الَّذي لقي من عداوة الأقارب والأباعد ما يعلمه الله.

أمَّا سورة الرَّعد فوجه وضعها بعد سُورَةِ يُوسُفَ أنَّ سُورة يُوسُفَ خُتمت بالحديث بإجمال عن آيات الله في السّموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف] ثمَّ جاءت سُورة الرَّعد، وافتتحت بالحديث عن هذه الآيات الكونيَّة بالتَّفصيل، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ

ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرَّعد].

وفي سورة يُوسُفَ الحديث بإجمال عن شرك النَّاس بالله، قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف].

وفي ختام سورة الرَّعد جاءَ تفصيلُ ذلك، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرّعد] وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرّعد] وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرّعد].

وقد عدّ العلماء العديد من وجوه التَّناسق، ولا يوجد نَسَقٌ أبدع من نَسَقِ القرآن، فكلّ سورة كالآية في سياقها، لها ارتباط في سباَقِها ولحاَقها.

براعة التخلص

من أساليب القرآن الرَّفيعة وفنونه البديعة براعة التَّخلُّص وحسن الاستطراد، وهو أن يكون في ابتداء الكلام إشارة إلى ما سيق الكلام لأجله، وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود.

ومن شرطه أن يكون الانتقال من معنى إلى معنى ببديع حسن، وعذوبة سبك، وحسن رصف، وبيان يزيد المعنى فصاحة وحسناً، بحيث يكون المعنى الَّذي انتقل إليه أقرب إلى النَّفس من المعنى الَّذي انتقل عنه، وبحيث لا يشعر السَّامع بالانتقال من المعنى الأوَّل إلَّا وقد تعلَّق به المعنى الثَّاني المقصود؛ لشدَّة الالتئام بين المعنيين، وفائدته الانتقال من فنٍّ إلى فنٍّ، وجعل أجزاء الكلام يأخذ بعضه برقاب بعض.

وحيث قصد التَّخلُّص فلا بدَّ له من توطئة وتمهيد، ومن بديعه قوله تعالى موطِّئاً للتَّخلُّص: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ فوطَّأ بهذه الآية إلى قصَّة يُوسُفَ عليه السلام، والمخاطب إذا سَمِعَ هذا الوصف لهذه القصَّة تطلَّعت نفسه إلى معرفتها، وتشوَّفت إلى تأمُّلها.

القِسم الأوَّل

رؤيا يُوسُف ـ عليه السلام ـ

الكَرِيم (يُوسُف ـ عليه السلام ـ)

كَانَ لأبيهِ سَمِيرَ الدَّارِ، وأَنِيسَ الوحْشَةِ، وفِلْذَةَ الكَبِدِ، ومُهجَةَ القلْبِ، ومُقْلَةَ العينِ، ومحطَّ الآمَالِ، وزهْرة الحياة الدُّنيا وزينتها، إنَّه: "الكَرِيمُ ابنُ الكَريم ابنِ الكَريمِ ابنِ الكَريمِ، يُوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ -عليهم السَّلامُ-"[1].

سُئِل رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ أكرمُ النَّاسِ؟ قالَ أَتْقاهُم لله. قالوا: ليس عن هذا نسْأَلُكَ قَالَ: فأكْرَمُ النَّاس يُوسُفُ نَبِيُّ الله ابْنُ نَبِيِّ الله ابنِ نبِيِّ الله ابن خَليلِ الله"[2].

رؤيا يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ من مُبَشِّراتِ النُّبوَّةِ

بدأَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ بِذِكْرِ رُؤياه الصَّادِقة الصَّالحة: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ إشَارة إلى أنَّ اللهَ تعالى قد هيَّأ نَفْسَ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ للنُّبوَّةِ والرِّسالةِ، فابتدأه بالرُّؤيا الصَّالحةِ الَّتي هي من مُبَشِّراتِ النُّبوَّةِ. ﷺ

فعن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: " سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ، يَقُولُ: " لم يَبْقَ من النُّبوَّةِ إلَّا المُبَشِّرات، قَالُوا: ومَا المُبَشِّرات؟ قَالَ: الرُّؤيا الصَّالِحة "[3].

وعن أبي سَعِيد الخُدْرِيِّ أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ، يَقُولُ: "الرُّؤْيا الصَّالِحةُ جُزْءٌ من سِتَّةٍ وأربَعِينَ جُزْءاً من النُّبوَّةِ"[4].

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٢١) كتاب بدء الخلق.
(٢) المرجع السَّابق.
(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٦٩) كِتَابُ التَّعبير.
(٤) المرجع السَّابق.

وتَصدِيرُ القِصَّةِ بِهَذِهِ الرُّؤيا كالموجزِ للقِصَّة يُلخِّصُها بإجمال، وكالمقدِّمَةِ والتَّمهيدِ للقِصَّة في أَحْسَنِ صُورةٍ وبَيَان.

وقد جَعَلَ اللهُ تلكَ الرُّؤيا بِشَارةً ليُوسُفَ ـ عليه السلام ـ بِعِظَم شَأنِهِ، وارْتِفَاعِ دَرَجَتِهِ؛ ليَتَذَكَّرَها كُلَّما ادلهمَّتِ الأمُورُ، فيطْمَئِنَّ بها قَلبُهُ، وتقرَّ بها عَيْنُهُ، أنَّ عاقِبَتَهُ حَسَنَةٌ، ونهَايتَهُ طيِّبَةٌ.

هَدْيُ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ فِيمَن رأى رُؤيا [1]

مَوضُوعُ الرُّؤيا مَوضُوعٌ عَمِيقُ الجُذُورِ، يَحْتَاجُ إلى شَرْحٍ وتَفْسيرٍ، وبَيانٍ وتفْصِيلٍ، والحديثُ فيه يَطُولُ ، وليس الكِتَابُ مَوضُوعاً لِبَحثِ ذَلكَ ، ويكفِي أنْ نُبيِّنَ هَدْيَ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ فِيمَنْ رأى رُؤيا يُحِبُّها، أو رأى غَيْرَ ذلك مِمَّا يَكرَهُ.

فقد روى البخاري عن أبي سَعِيد الخُدْرِيِّ أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ يَقُولُ: " إذا رأى أحَدُكُم رُؤْيا يُحِبُّها فإنَّما هِيَ مِنَ الله، فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا ولْيُحَدِّث بها، وإذا رأى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فإنَّما هِيَ من الشَّيطانِ، فَلْيَسْتَعِذْ مِن شَرِّهـا ولا يَذْكُرْها لأحَدٍ؛ فإنَّها لا تَضُرُّهُ "[2].

وروى مُسْلِم عن أبي قَتَادَةَ، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنَّهُ قال: " الرُّؤْيا الصَّالِحةُ مِنَ الله، والرُّؤيا السُّوءُ مِنَ الشَّيطَانِ، فَمَنْ رأى رُؤْيَا فَكَرِهَ مِنْهَا شَيْئاً، فلْيَنْفُثْ عن يَسَارِهِ، ولْيَتَعَوَّذْ بالله مِنَ الشَّيطانِ لا تضُرُّه، ولا يُخْبِر بها أَحَداً، فإنْ رأى رؤيا حَسَنَةً فلْيَبْشِرْ ولا يُخْبِرْ إلَّا مَن يُحِبُّ "[3].

وَرَوى مُسْلِم عن أبي هُرَيْرَة عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ ، قال: "... والرُّؤيَا ثلاثَةٌ: فَرُؤيَا الصَّالِحَة بُشْرى من الله، وَرُؤيْا تَحْزِين من الشَّيطان، وَرُؤيا مِمَّا يُحَدِّث المَرْءُ نَفْسَهُ، فإنْ

---

(١) الرُّؤيا: ما كانت مناماً، والرُّؤية: ما كانت يَقظَةً وعَياناً.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٦٨) كِتَابُ التَّعبير.

(٣) مُسْلِم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص١٩) كتاب الرُّؤيَا.

رَأى أَحَدُكُم ما يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، ولا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ "[1].

وَرَوى مُسْلِم عن جَابِرٍ عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنَّه قال: " إِذَا رَأى أَحَدُكُم الرُّؤيَا يَكْرَهُهَا فَلْيَبْصُقْ عن يَسَارِهِ ثلاثاً، ولْيَسْتَعِذْ بالله من الشَّيطَانِ ثَلاثَاً، ولْيَتَحَوَّلْ عن جَنْبِهِ الَّذي كَانَ عَلِيْهِ "[2].

ومِن مَجْمُوعِ الأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ نَفْهَمُ أَنَّه يَنْبَغِي لِلمُسْلِمِ أَنْ يَعْمَلَ بِأَسْبَابِ السَّلامَةِ الَّتي جعَلَها اللهُ له، فإذا رَأى ما يَكْرَهُ نَفَثَ عن يَسارِه ثلاثاً، قائلاً: أَعُوذُ بالله من الشَّيطَانِ ومن شَرِّهَا ثلاثاً، ولْيَتَحَوَّلْ عن جَنْبِهِ الَّذي كانَ عَليهِ إلى جَنْبِهِ الآخر، ولِيُصَلِّ ركْعَتَينِ، ولا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ، فَيَكُون قَد عَمِلَ بالرِّواياتِ الشَّريفةِ كُلِّها، وإن اقْتَصَرَ على بَعْضِهَا أَجْزَأَ في دَفْعِ ضَرَرِ الرُّؤيا كما صَرَّحت الأحادِيثُ الشَّرِيفَةُ، وهذه تكُونُ سَبَباً لِعَدَمِ ضَرَرِهِ؛ كما جُعِلَت الصَّدَقَةُ لِوقايَةِ المالِ وَغَيرِه مِنَ البَلاءِ.

يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ يَقُصُّ رُؤيَاهُ عَلَى أَبِيهِ

دَخَلَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ ذَات صَبَاحٍ على أَبيهِ يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ ووقَفَ قُبَالَتَهُ بِأَدَبٍ وَوَقَارٍ، وبِلِسَانِ الاستِفْهَامِ والإِخْبَارِ: ﴿ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ وذُكِر العددُ مطابقاً للتّأويل، فرؤيا الأنبياء حقّ ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ عطف على الكواكب على طريق الاختصاص إثباتاً لفضلهما، وقد جرى القرآن على تقديم الشَّمس على القمر، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ...﴿٢﴾ ﴾[الرّعد]، وقال: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرّحمن] وقال: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾ [القيامة].

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (م٨/ ج١٥/ ص١٩) كتاب الرُّؤيا.
(٢) المرجع السَّابق.

﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ تأكيد لفظيّ ﴿لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ نَزَلْنَ مِن عَلْيَائِهِنَّ وَسَجَدْنَ لِي (سُجود تحيَّة)، وفي الكلام استعارة مكنيَّة فقد شبَّه الكواكب بقوم عقلاء ساجدين.

فَأَدْرَكَ يَعقُوبُ ـ عليه السلام ـ عِنْدَ سَمَاعِهِ لهذِهِ الرُّؤيَا الصَّالِحَة دلالَتَها، وعَلِمَ أنَّ هذهِ الرُّؤيا لَهَا خَطَرُها، وأنَّها تتضَمَّنُ مَجْداً وعِزّاً لِيُوسُفَ، وتُؤْذِنُ بِرِفْعَةٍ يَنَالُها على إخوتِهِ، وأنَّ اللهَ يصْطَفِيهِ لِلنبُوَّةِ، وَيُنْعِم عَليهِ بِشَرفِ الدَّارينِ؛ فَخاف عَليهِ من نَزْغِ الشَّيطانِ في نُفُوس إخوَتِهِ، فنَصَحَهُ أَلَّا يَقُصَّها عليهم خَشْيَة أن تشْتَدَّ بِهِم الغَيرةُ إلى حَدِّ الحَسَدِ.

من أغراض التكرير

يلاحظ في قوله تعالى حكاية عن يُوسُفَ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ أنَّه كرَّر (رأيت)، وهذا التكرير غرضه في الآية أن يتَّصل أوَّل الكلام بآخره اتِّصالاً حسناً، فإنَّه إذا طال الكلام، وخشي نسيان أوَّله أعيد من جديد تطريةً له، واعتناء به، وتجديداً لعهده، وتأكيداً عليه، ولذلك تكرَّرت ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ إضافة للتَّأكيد بسبب إطالة الكلام بين الفعل والحال.

فتكرير اللّفظ الأوَّل بعينه إنَّما هو للعناية به والتَّأكيد عليه، ومن ذلك في القرآن، قوله تعالى:﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١٩﴾ [النَّحل] فقد كرَّر قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للغرض نفسه.

والتَّكرير أبلغ من التَّأكيد، وهو أنواع ثلاثة: الأوَّل: أن يتكرَّر لفظه ومعناه، وسبقت الإشارة إليه، والثَّاني: ما يتكرَّر معنى لا لفظاً، وهذا أحياناً يكون فيه بين

المعنيين مخالفة ما، كأن يكون أحدهما أعمّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ﴾، فإنَّ الكواكب الأحد عشر أعمُّ من القمر، وكذلك قوله: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرّحمن] فإنَّ الفاكهة أعمُّ من النَّخل والرّمَّان، ومثله في القرآن كثير.

وهناك نوع ثالث يتكرَّر فيه اللَّفظ ويختلف المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ... ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة] إلى قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ... ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة] فهذا من باب تكرير اللَّفظ لا المعنى لاختلاف البلوغين في قوله ﴿فَبَلَغْنَ﴾ فالأوَّل بمعنى قاربن انقضاء عدَّتهنَّ، والثَّاني بمعنى انقضت عدَّتهنَّ.

واعلم أنَّ لكلِّ نوع من هذه الأنواع الثَّلاثة وجهاً من وجوه البلاغة، ولكن ليس هذا محلّ بيانه.

تنزيل غير العاقل منزلة العاقل

من ضروب البلاغة وفنون البراعة تنزيل غير العاقل منزلة العاقل، ومن شواهده في القرآن، قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ فقد وصفت الكواكب والشَّمس بالسُّجود الَّذي هو من فِعْل العقلاء، وهذا يظهر لك علَّة جمع لفظ (السَّاجد) جمع المذكَّر السَّالم، وعلَّة أنّ ضمير الغائبين في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ جرى على حدٍّ من يعقل.

يَعقُوبُ ـ عليه السلام ـ يُعبِّرُ رُؤيا يُوسُفَ

﴿ قَالَ ﴾ يعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ لابنِهِ يُوسُفَ بِلِسَانِ التَّحَبُّبِ والشَّفَقَةِ والنُّصحِ والنَّهي والتَّحذيرِ: ﴿ يَـٰبُنَيَّ ﴾ تصغير (ابن) للتَّحبُّب، وأضافه لنفسه للغرض نفسه ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ ﴾ هذه ﴿ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ فَيَحْتَالوا لإهلاكِكَ حِيلَةً؛ حسَداً لعِلْمِهِم بـتأويلها من أنَّهُم الكواكب وأبواك الشَّمس والقمر.

ويبدو أنَّه ـ عليه السلام ـ كان يَعْرِف قُدْرَة أبنائِهِ على تأويل مثل هذه الرؤيا، ويظهر أيضاً أنَّه كان يَعْلَمُ كَراهتهم لِيُوسُفَ وبُغْضَهُم لِعِشْرَتِه. وأظُنُّهُ ـ عليه السلام ـ قَالَ هذا الكلام لِيُوسُفَ والفَمُ يَسِيلَ مَرَارَةً وأسىً؛ فالواجِبُ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَ الإخوةِ أدنى شَحْناء ولا أقلَّ بَغْضاء، ولكن هكذا كان؛ لأمْرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ تعالى.

وكان يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ يَعْلَمُ أنَّ نُصْحَهُ وتَحْذيرَهُ لِيُوسُفَ لا يُثِيرُ في نَفْسِهِ كَراهَةً لإخوتِهِ؛ لأنَّهُ وَاثِقٌ من صَفَاءِ سَرِيرتِهِ ونَقَاءِ قَلْبِهِ وَرُجْحَانِ عَقْلِهِ ونفاذِ بَصِيرتِهِ، ولذلِكَ عَقَّبَ كلامَهُ بِقَولِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾ ظَاهِر العَداوة كما فَعَلَ بآدَمَ عليه السلام وحوَّاء؛ ليَعْلَمَ يُوسُفُ أنَّهُ ما حَذَّره مِن إخْوَتِهِ، وإنَّما حَذَّرَهُ من نَزْغِ الشَّيطانِ في نُفُوسِهِم، فَقَولُه واقِعٌ موقع التَّعليلِ للنَّهي عن قَصِّ الرُّؤيا على إخوتِهِ.

ثُمَّ بيَّنَ لهُ بَعْدَ النُّصحِ تأْويلَهَا وتفْسِيرَهَا، قائلاً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ فَهَذِهِ الرُّؤيا تَدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى سَيَصْطَفِيكَ ويَخْتارُكَ ويَخُصُّكَ بالنُّبُوَّةِ ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ وتَدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى سَيُعَلِّمُكَ تَعْبيرَ بَعْضِ الرُّؤى المناميَّة ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ بالنُّبُوَّةِ، فتكون نبيّاً ورَسُولاً ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ وهُمَا جَدَّاكَ ﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ فجعَلهما نَبِيَّينِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بِمَن هُوَ أَهْلٌ للاجْتِبَاءِ ﴿ حَكِيمٌ ۝٦ ﴾ يَضَعُ الأشْيَاءَ مواضِعَها.

فكانَتْ تِلْكَ بِشارة من الله تعالى لِيُوسُفَ في المنام، وبِشَارة له من يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ في اليَقَظَةِ، وقَد وَقَعَ ما بشَّرَ بِهِ يَعْقُوبُ ولَدَهُ حَرْفاً بِحَرْفٍ.



القِسْمُ الثاني

أذى إخوته
مُقَدِّمَةُ المؤامَرَة

وَيَظْهَرُ أنَّ يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ كان مُصِيْباً في تَخَوُّفِهِ على يُوسُفَ من إخْوتِهِ؛ فالمَشْهَدُ الثَّاني من القِصَّة يُبَيِّنُ لنا إخْوةَ يُوسُفَ، والحَسَدُ قَد تَبَالغَ في نُفُوسِهِم، والبَغْضاءُ قَدْ هَاجَتْ في قلوبِهِم، وهم مؤْتَمِرونَ للنَّظرِ في أَمْرِ يُوسُفَ، ومناقَشَةِ ما يَصنَعُونَهُ في أَمْرِهِ.

وقَد ذَكَرَ اللهُ تعالى مَتْنَ مؤامَرَتِهِم، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ ﴾ اللَّام للابتداء، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أرادوا أنَّ زيادة محبَّة أبيهم ليُوسُفَ وأخيه أمر ثابت محقَّق لا رَيْبَ فيه ﴿وَأَخُوهُ﴾ شَقِيقه، وتَخْصِيصُه بالإضافةِ لاخْتصاصِه بالأُخُوَّةِ من الأبوين، أي والله إنَّ يُوسُفَ وأخاه، ﴿أَحَبُّ﴾ اسم تفضيل مجرد من (أل) والإضافة واجب الإفراد والتَّذكير، فقد جاءت بعده من جارَّة للمفضول، فَأُفْرِدَ مع الاثنين ﴿إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعَةٌ أقوياء نافِعُونَ أحَقُّ بِحُبِّهِ وأَجْدَرُ بِكَلَفِه.

فَذَكَروا أوَّلاً مِحْنَتَهُم ومَأسَاتَهُم في يُوسُفَ وأخيهِ، حَيثُ صَرَفَا وجْهَ أبيهم يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ عَنْهُم إلى أنْفُسِهِما، وأنَّ تفضيل أبيهم لهما في المحبَّة أمر ثابت متحقِّق لا شبهة فيه.

﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في تَرْجيحِهِما وإيثارِهِما وتَفْضِيلِهِما عَلَيْنا في المَحَبَّةِ مَعَ فَضْلِنا عليهما ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ أي غَلَط في الرَّأي وخُرُوجٍ عن الصَّوابِ ظاهِر.

وَفَاتَهُم ما قالَهُ بَعْضُ حُكَمَاءِ العَرَبِ لَمَّا سُئِلَ: أيُّ بَنِيكَ أحبُّ إليكَ؟ قال:

"الصَّغير حتَّى يَكْبَر، والمريض حتَّى يَبْرَأ، والغائِب حتَّى يَؤوب" ويُوسُفُ كَانَ صَغِيراً، وفَوقَ ذلكَ يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ كانَ يَتَوسَّمُ فيهِ الصَّلاحَ والتَّقوى والنُّبوَّةَ، وقوَّى ذلكَ تلك الرؤيا الصَّالِحَة الَّتي رآهَا يُوسُفُ، فهو مُحِبٌّ له لآمَالِهِ فِيهِ، ولِرَجَائِهِ في مُسْتَقْبَلِهِ.

ومع أنَّ الحبَّ أمْر باطن في الجَنان، ولكنَّ مظاهره لا تخفى على أحد، فهي تبدو على الجوارح والأركان.

ثمَّ ناقَشُوا في اجْتِمَاعِهِم المُغْلَق ما يَصْنَعُونَه في يُوسُفَ، فَفكَّروا في بادِئ الأمرِ بِقَتْلِهِ، قائِلِينَ: ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾.

يا لله! إلى أيِّ حَدٍّ يَصِلُ الحَسَدُ بِقَلْبِ صَاحِبِهِ؟ إلى حَدِّ البَغْي والعُدْوانِ! نَعَم؛ فَبَواعِثُ الحَسَدِ تُهَوِّنُ الأمرَ العَسِيرِ، وتُسَهِّلُ على العَبْدِ ارتِكَاب المظلمة واقْتِرَافَ الذَّنْب العَظِيم، بل إنَّ الحَسدَ إذَا تَمَكَّنَ مِنَ القُلُوبِ لا يَعْرِفُ أخوَّةً ولا صداقَةً، ولا يُفَرِّقُ بين رَفِيقٍ أو حَمِيم.

﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ اقْتُلُوه تَخَلَّصوا مِنْهُ ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ وإلَّا تَقْتُلوهُ، فألْقُوهُ في أَرْضٍ مَنْكُورة مَجْهُولة بَعِيدة خَلاء فَضَاء.

﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ لِيُقْبِلَ أَبُوكُم عَلَيْكُم أَنْتُم، ولا يُنَازِعُكم في مَحَبَّتِهِ أحَدٌ، ولا يشْغَلُه عَنْكُم شَاغِلٌ في مَحَبَّتِهِ.

﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بَعْدِ قَتْلِهِ أو طَرْحِهِ ـ والمَآلُ واحِد ـ ﴿ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ ﴾ بالتَّوبةِ والإنَابةِ إلى الله تَعَالى والرُّجوعِ إليهِ.

وهذا مِنَ الجَهْلِ؛ فإنَّ التَّوبَةَ الَّتي هَذا شأنُها غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، فإنَّ مَنْ يُضْمِر مِنْ قَبْل عَلى الذَّنْبِ ثمَّ التَّوبة مِنْه، إنَّما يَقْصِد بِتَوبتِهِ المَكرَ بالله تَعَالى، ولا يَقْصِدُ الرُّجُوعَ إليهِ حَقِيقَة.

ثمَّ قَـرَّ رأْيُهُم على أَخْذِهِ من أبيهِم، وإلقائِهِ في ظُلُماتِ البِئر: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فَمَا أعْظَمَ القَتْلَ! وَمَا أَشَدَّ عاقِبَتَهُ! ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النِّساء] ويلاحظ بين ﴿ ٱقْتُلُواْ﴾ و ﴿لَا تَقْتُلُواْ﴾ طباق السَّلب البديع.

﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ فيَكْفِيكُم أن تُلْقُوه في قَعْرِ البِئرِ ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ليَأْخذَهُ بَعْضُ المَارَّة من المُسَافِرينَ ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ما أضْمَرْتُم لَهُ من التَّفْريقِ بينه وبين أبيه.

وكَانَ الَّذي نَهَاهُم عن قَتْلِهِ لِبِقاً وفَطِناً وحَذِراً في حَدِيثِهِ، قال: ﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: لا تَقْتُلوا أخانا؛ مُتَجَاهلاً الأُخُوَّةَ والنَّسبَ من الأَبِ بَيْنَهُما، لِيُفْهِمَهُم أنَّهُ واحِدٌ مِنْهُم هذا من ناحية، ومن ناحية أُخْرى فَيَظْهَر أنَّ الجُبَّ (البِئر) الَّذي أَرَادَهُ كَانَ مَعْرُوفاً لَدَيْهِم ولدى النَّاس حيْث كان يأْمُلُ أنَّه إذا أُلْقِيَ أَخُوهُ فِيهِ، تكُون له السَّلامةُ والنَّجاةُ من الَّذين يَرِدُونَ هذا البِئرَ؛ فقد جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ ٱلْجُبِّ ﴾ على لِسَانِهِ مُعرَّفَةً، فلم يَقُل: وأَلْقُوهُ في غَيابَةِ جُبٍّ.

دقة النظم القرآني في استخدام حروف المعاني

من جمال اللُّغة العربيَّة أنَّها تفرِّق بين المعاني بطرائق مختلفة، فقد تفرِّقُ بين المعنيين بالحركة، أو برَصْفِ حروف المباني، أو بحرف من حروف المعاني... وقد صنَّف العلماء كتباً شرحوا فيها معاني الحروف، وبيَّنوا الوجوه الَّتي يتصرَّف الحرف منها.

وقد يعطي الحرف في الجملة ضدَّ ما يعطيه الحرف الآخر، فلو قلْتَ: رَغِبَ في. لكان المعنى أحبَّ، ولو قُلْتَ: رَغِبَ عن. لكان المعنى كره. ولو قُلْتَ: أحمد أحبّ

لوالده من عمرو. لكان المحبّ أحمد، والمحبوب الوالد. فإذا أردت العكس، قُلْتَ: أحمد أحبُّ إلى والده من عمرو، كما قال تعالى على لسان يُوسُفَ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾.

وانظر إلى دقَّة النَّظم القرآنيّ والتَّعبير البيانيّ، قال إخوة يُوسُفَ: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا... ﴿٨﴾﴾ ولم يقولوا: لأبينا. لأنَّ (إلى) في هذا الموضع حرف من حروف المعاني بمعنى (عند)، وتسمَّى (إلى) المبيِّنة لأنَّها تبيِّن أنَّ مصْحوبها فاعلٌ لما قبلها، وتقع في هذه الحالة بعد ما يفيد حبّاً أو بغْضاً من فعل تعجُّب أو اسم تفضيل، وقد وقعت ـ كما هو ملاحظ ـ بعد اسم التَّفضيل (أحبّ)، ومرادهم أنَّ يعقوب يحبُّ يُوسُفَ وأخاه أكثر ، فالمُحِبُّ هنا يعقوب، والمحبوب يوسف وأخوه.

ولو قالوا: ليوسف وأخوه أحبّ لأبينا منَّا . لاختلف المعنى تماماً؛ لأنَّ اللَّام في مثل هذا الموضع تسمَّى أيضاً " اللَّام المبيّنة"، لكنَّها تبيِّنُ أنَّ مصحوبها مفعولٌ لما قبلها من فعل تعجب أو تفضيل، فما بعد اللَّام هو المفعول به. والمعنى أنَّ يُوسُفَ وأخاه يحبَّان يعقوب أكثر، فالمحبُّ يوسف وأخوه، والمحبوب يعقوب، وليس هذا المعنى ما قصدوا إليه.

المعاني الّتي يحتملها لفظ الضّلال

الضَّلالُ والضَّلالةُ ضدُّ الهُدَى والرَّشاد، والضَّلال أُطْلِقَ في القرآن على معانٍ، منها: الذَّهاب عن معرفة حقيقة الأمر كما ينبغي، ومن ذلك قول أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾، أي في بعد عن معرفة الصَّواب الذي يقتضي تعديل المحبَّة بيننا، ونحوه قول من قال ليعقوب: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

ومن أشهر المعاني الَّتي يحتملها لفظ الضَّلال في القرآن الضَّلال في الدِّين، ومنه قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١ ﴾ [الصَّافات] وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ ﴾ [يس].

ويأتي الضَّلال بمعنى الغيبة، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ... ۝١٠ ﴾[السَّجدة] أي خفينا وغِبْنا فيها وصرنا تراباً في ترابٍ، وقال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ﴾ [طه] أي لا يفوته ولا يغيب عنه.

ويأتي بمعنى البطلان والضَّياع والهلاك، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ ﴾ [الكهف] أي بطل وضاع وهلك عملهم، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ ﴾ [القمر] أي في هلاك.

ويأتي بمعنى النِّسيان، قال تعالى: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ... ۝٢٨٢ ﴾ [البقرة] ويأتي بمعانٍ أُخر، وهذا يُعْرَفُ بالوجوه والنَّظائر، وسيأتي تحريره وبيانه.

الشُّرُوعُ في المؤامَرةِ

وَبَعْدَ اتِّفاقِهم على إبعاده وإلقائه، دَخَلُوا على أبيهِم يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ وهُم يُخْفُونَ الخَدِيعَةَ وسُوءَ النِّـيَّةِ، وَبِلِسَانِ العَجَبِ وبِلُغَةٍ فِيها سِحْرٌ وَدَهَاءٌ، قالوا لأبِيهِم ـ وقَد عَرَفُوا أنَّه قَد أوْجَسَ مِنْهُم خِيفَةً على يُوسُفَ لِمَا أحَسَّهُ مِنْهُم مِمَّا اسْتَدْعَى ألَّا يأْمَنَهُم عَلَيهِ ـ : ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾أيُّ شيء حَدَثَ حتَّى تخَافَنا

على يُوسُفَ؟! وماذا بَدَرَ مِنَّا حتَّى تَحْفَظَه مِنَّا؟! ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ مُخْلِصُونَ أُمَنَاء أوفِياء دائماً.

ثمَّ رغَّبُوهُ بِهَا فَصَلُوهُ بِقَوْلِهِم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ نَصْب على الظَّرفِيَّة الزَّمانيَّة ﴿ غَدًا ﴾ يُرِيدونَ أَنْ يُعَجِّلُوا فِي تَنْفِيذِ مُؤَامَرتِهم خَشْيَةَ أَنْ تَتَبَدَّلَ الأمُورُ، أو يَحْدُثَ فِي مُلْكِ الله تعالى ما لا يُرِيدُونَ ﴿ يَرْتَعْ ﴾ يَأْكُلْ ويَشْرَبُ في خِصْبٍ وسَعَة ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ مَعَنا في الصَّحراء، ثُمَّ أَكَّدوا الأمْرَ ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ إنَّ واللَّام تُفيدان تأكِيدَ الأمْرِ تأكِيداً جَازِمَاً، تأكِيدَات خارِجَة من اللِّسان، وما خَرَجَ من اللِّسان لا يَتَعَدَّى الآذانَ، لِذَلِكَ لَمَّا سَمِعَ يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ كَلامَهُم الَّذي أظْهَرُوا فِيهِ غَايَةَ المَحَبَّةِ والإخْلاصِ لِيُوسُفَ ـ عليه السلام ـ رَابَهُ أَمْرُهُم، فَدَلِيلُ المُؤمِنِ قَلْبُهُ، فَما بالكَ إذا كانَ هَذا القَلْب قلب نَبيِّ الله تعالى يَعقُوب ـ عليه السلام ـ، فاعْتَذَرَ لَهُم بِعُذْرَين: حزنِه على فِراقِه، وخوفِه أنْ يأكُلَه الذِّئبُ وهم غافِلُون عنه.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ المانع نَفْسِي الَّتي يَحْزُنُها ذَهَابُكُم بِهِ لأنَّني لا أقوى على فِراقِه، وليس ذهابكم بِه الموجِب لِحُزْني، أو بِعبارةٍ أُخْرى الذَّهَاب بِيُوسُفَ يَحْزُنُني لأنني لا أطيق له فِرَاقاً، وليس الذَّاهِبُونَ بِهِ المُوجِب لِحُزْنِي، تَلَطُّفاً في الجَوابِ مَعَهُم؛ إذ ليس من الحِكْمَةِ أنْ يُصَرِّحَ بما هُم عَلَيْهِ من سُوءِ طويَّةٍ، فيُهَيِّج ذلك حِقْدَهُم وعِنَادَهُم، إنَّما أَبَانَ لَهُم أنَّ ذهابَهم به يَحْزُنه؛ لأنَّ الولدَ العاقِلَ البارَّ يَتَجَنَّبُ ما يَحْزُنُ أَبَاهُ. ثمَّ كَشَفَ عن عذرِهِ الآخر ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ فالأمْرُ مِن فِراقِهِ خَوفِي أنْ يَأكُلَهُ الذِّئبُ على حينِ غَفْلَةٍ مِنكُم. وقَد ألقى ـ عليه السلام ـ على ألسِنَتِهم حُجَّةً يَحْتَجُّونَ بِهَا وعُذْراً يَعْتَذِرونَ بِهِ.

﴿ قَالُواْ ﴾ قَوْل مُنْكِرٍ مُستَغْرِبٍ: نُقْسِمُ لَكَ ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جَمَاعَة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ وَلَنْ نَكُونَ خاسِرينَ البَتَّةَ، وفِي كلامِهِم وَعْدٌ ضِمْنيٌّ لأبيهِم أنَّهم لن يَغْفَلُوا عنه خاصَّة أنَّهم عُصْبَةٌ جماعة قَوِيَّةٌ ، وكأنَّ قُوَّةَ العَبْدِ تَحْفَظُ، ومَتى كانت قُوَّةُ العَبْدِ تُغْنِي عن قُوَّةِ الرَّبِّ؟!

وقَدْ تَجاهَلُوا لأبِيهِم وتَهَرَّبُوا من الإجَابَةِ على حُزْنِهِ، كأنَّهُم ما فَهِمُوا إلَّا أنَّهُ يَأْمَنُهُم على يُوسُفَ لكنَّهُ يَخَافُ عَليهِ من الذِّئبِ في سَاعَةِ غَفْلَةٍ مِنْهُم.

وَدَنَتْ سَاعَةُ الفِراق، فَقَد أرسلَهُ ـ عليه السلام ـ مَعَهُم، وذَلِكَ لَمَّا سَمِعَ المَواثِيقَ والعُهُودَ: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ وقَد قِيلَ: "مَنْ خَدَعَنا في الله انْخَدَعنا له".

يُوسُفُ في غَيابَةِ الجُبِّ

ولَمْ يَلْبَثُوا إلَّا قَليلاً حتَّى كَذَّبُوا أنْفُسَهُم فِيما أقْسَمُوا، وأخْلَفُوا ما وَعَدُوا، ولم يُراعُوا لأبِيهِم عَهْداً، ولم يَفُوا له وَعْداً، مَعَ أنَّ الوَفَاءَ بالعَهْدِ من واجِبَاتِ الدِّينِ ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]

لكِنَّ وعْدَهم ذَهَبَ هَدَراً أدراج الرِّياح أسرع من برق الخُلَّب[1].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ ﴾ بَعِيداً عن أبيهِ ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ ﴾ رأيهُم ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾أن يلقُوهُ في غَوْرِ البِئْرِ، نفَّذوا ما عَزَمُوا عَلَيْهِ. وقَد حُذِفَ جَوابُ ﴿ فَلَمَّا ﴾ للدّلالَةِ على فَجاعَةِ الأمْرِ وفَظَاعَتِهِ وفداحَتِهِ؛ فما حَدَثَ لا تشْرَحُهُ العِبَارةُ، ولا تَكْفِي فِيهِ الإشَارَةُ.

---

(١) الخلّب: السَّحابُ يُومِضُ بَرْقُه حتى يُرْجَى مَطَره ثم يُخْلِفُ وينقشع، يُضرب مثلاً لمن يعد ثمّ يخلف، أو لمن يخدع بالقول اللّطيف.

وتَقْدِيرُ جواب ﴿فَلَمَّا﴾ المحذوف أنَّهُم جَعَلوه في غيابة البِئر بَعْد أن نَزَعُوا عَنْهُ قَمِيصَهُ، وكان منهم ما الله به عليم، فكم في هذا الحذف من تعبير وتهويل، أيضاً القرآن لم يفصِّل في هذا المشهد لأنَّ بيانه من شأنه أن يغري من سقمت سريرته على تعلُّمه وتقليده، وهذا خلاف ما أراد الله تعالى من التَّنفير من هذا الفعل وتشنيعه.

وهكذا تنكَّروا لَهُ، وألقُوهُ في ظُلُماتِ البِئْر بلا جُرْم فَعَلَ، ولا ذَنْبٍ جَنَى، وَلَم يَرْحَمُوا صِغَرَه، ولم يَرَأَفُوا بِضَعْفِهِ، ولكن مَنْ كان اللهُ له أَنِيساً فَكَفى بالله تعالى فهو حسبه، وما أحسن قول القائل:

ولا تَجْـزَعْ إذا ضَـاقَـتْ أمُــورٌ   فــكم لله مِـــــنْ لُـطْـفٍ خَـفِـيٍّ

فَقَد أرادَ الله تعالى أن يُطَمْئِنَ نَفْسَ يُوسُفَ ويُسَكِّنَ رَوْعَهُ ويَربِطَ على قلْبِهِ، فأوحى إليه بأنَّهُ سَتحْصُلُ لَهُ النَّجاةُ والخَلاصُ مِن هَذِهِ المِحْنَةِ، وستكون له سلامَـةُ الحَالِ وحُسْنُ المَـآلِ، قَال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي لَتُخْبِرَنَّ إخْوتَكَ بِفِعْلِهِم مَعَكَ حِينما تَكُونُ عَزِيزاً بِمِصْرَ، وهُم أَمَامَكَ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥﴾ وَقْتَهَا أَنَّكَ يُوسُفُ؛ لِعُلوِّ مَكانِكَ، ولطولِ العَهْدِ.

وَقَد تَحَقَّقَ ذَلِكَ حِينَما قال لهم يُوسُفُ: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾ كما تَحَقَّقَ عَدَمُ شُعُورِهم بأنَّه يُوسُفُ، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾.

ظُلْمُ ذوي القُربى

ألا قَاتَلَ اللهُ الحَسَدَ! كَيفَ يُضَيِّعُ أَخاً بأيدي إخْوتِهِ، وَيُزَيِّنُ بَغْياً في أعْيُنِ رِجَالٍ نَشَؤُوا في بَيْتِ النُّبوَّةِ، ويُفْجِعُ أَباً بأيدي أبنائِهِ.

لقَد جاءت رمْيَةُ يُوسُفَ من عند إخْوتِهِ، ولو جاءت من عند غَيرِهِم لكانتْ

أقلَّ أثراً، وأخَفَّ ألماً! قال طرفة بن العبد:

وَظُلْمُ ذَوِي القربى أشـدُّ مَضَاضةً على المرءِ من وَقْعِ الحُسَـام المهَنَّـدِ[1]

لكنَّ اللهَ تعالى يَمْتَحِنُ المُخْلِصين من عِبَادِهِ بألوان الرَّزايا وضروبِ البلايا؛ ليكونوا أَقْدَرَ على حَمْلِ الرِّسالةِ وأداء الأمانة، واحْتِمالِ الأذى في جَنْبِ الله تعالى.

وهكذا أمسَى يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ في غَيابَةِ البئر، فما عَسى كانت خواطره؟! لعَلَّه كان يَسْأَلُ نفْسَه كَيفَ سَوَّلَتْ لهم أَنْفُسُهُم هذا الأمر؟! وكيف تَطِيبُ لهم أنفسهم أن يتركوه في ظلمات البئر؟! لكن الَّذي لا شكَّ فيه أنَّه إن قَطَعَ الرَّجاء من عودَتِهم، لم يَقْطَع الرَّجاء من رحمة الله تعالى.

عودةُ الأبناء إلى أبيهم يعلوهم البكاء

... اللَّيلُ حَالِك، ويَعْقُوب ـ عليه السلام ـ في بيتِهِ يَنْتَظِرُ عَوْدَةَ يُوسُفَ لَحْظَةً بلحْظَة، ولكن هوِّن عَلَيْكَ يا نبيَّ الله؛ فَلَنْ تَـراهُ إلَّا بَعْدَ سنين عدداً!

قـال تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾... مـا أَرْخَصَ الدُّمُوعَ إذا كَانتْ دُمُوعَ التَّماسِيح! فَعِنْدَ العِشَاء، ولَمَّا عَسْعَسَ اللَّيلُ، وخَلَعَ عباءَتَهُ السَّوداءَ على الكون، عَادَ الأبناءُ إلى أبيهم يُظْهِرون الحُزْنَ، ويَرْفَعُونَ أصواتَهم بالبكاءِ. وإنَّما اختاروا العِشاء ليكونُوا أجْرأَ في العِتْمَةِ على الاعْتِذار بالكَذِبِ، وحتَّى لا يتبيَّنَ يعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ دُمُوعَهُم الكاذِبة.

وقد أخبر الله تعالى عن بكائِهم بالفعل ﴿ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ولم يخبر بالاسم

---

(١) الشَّنقيطي " شرح المعلَّقات العشر " (ص٧٦).

(باكين)؛ لإفادة تجديدهم للبُكاءِ شيئاً بعد شيء، وهو ما يُسمَّى حكاية الحال الماضية لاستحضارِها في النُّفوس، وهذا هو سِرُّ الإعراض عن اسم الفاعل، فهناك فرق في الخطاب بين الاسم والفعل، إذ أنَّ الفعل يفيد التَّجدُّد، والاسم يفيد الثُّبوت.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ نَعْدُو ونجري ونتسابق ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا ﴾ عند ثِيابِنَا وطعَامِنا وحوائجِنَا ليَحْفَظَها ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ فجاءَ الذِّئبُ فَأكَلَهُ، ولو قالوا: فافْتَرَسَهُ الذِّئبُ، لبَقِي مِنْهُ شيءٌ يَسْتَطِيعُ أبوهُم أنْ يُقِيمَ الدَّليلَ عليه، ولكن ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ يَعْني: لم يُبْقِ منه شيئاً ولم يَذَر.

ويَكَادُ المُرِيبُ يَقُولُ خُذُونِي ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي وما أنت بِمُصَدِّقٍ لنا فيما نَقُولُهُ لك، ولو كُنَّا في الواقِعِ صادِقِينَ.

وتُحْمَل (لو) في الآية بمعنى (إنْ) الواقعة للجزاء، فإنَّك تقول: أنت لا تُكْرِمُني ولو أَكْرمتك، تريد (وإنْ)، وعلى ذلك فالمعنى: وما أنْتَ بمؤمنٍ لنا وإنْ كُنَّا صادقين.

من بديع القرآن التنكيت

نلاحظ في قول الله تعالى حكاية عن أولاد يعقوب: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ ﴾ أنَّه لم يقل: (بمصدِّق)، أو كلمة سواها، فلا يوجد كلمة تحلُّ محلّها، وإنَّما خصَّ سبحانه ﴿ بِمُؤْمِنٍ ﴾ بالذِّكر دون بمصدِّق؛ لأجل نكتة في المذكور ترجَّح مجيئه على سواه، وذلك لما في الإيمان من الزِّيادة في المعنى على التَّصديق، وهذا يُعْرَفُ في علم البديع بالتَّنكيت، وهو أن تقصد لفظاً دون لفظٍ لمعنى من المعاني، ولولا ذلك لكان الكلامُ عُرْضَةً للنَّقد.

ففي لفظة ﴿ بِمُؤْمِنٍ ﴾ من المعنى ما ليس في (مصدِّق)، وذلك أنَّ (مصدِّق)

من التَّصديق، وأمَّا ﴿ بِمُؤْمِنٍ ﴾ فتحمل معنى التَّصديق وإعطاء الأمن، فهم يطلبون تصديقَهم وزيادة، وهو الأمن؛ فلهذا جَنَحَ إليه ولم يُعاقِبْهم.

أيضاً القرآن لم يقل: وما أنت بمصدِّق لنا ولو كنَّا صادقين، لأنَّه لا يقيم وزناً للتَّنسيق والتَّنميق والتَّجنيس في الألفاظ إذا كان على حساب المعنى.

ومن بديع التَّنكيت وحلوه، قوله تعال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...(٤٤)﴾ [الإسراء] فقد اختصَّ ﴿تَفْقَهُونَ ﴾ بالذِّكر دون (تعلمون) لما في الفقه من زيادة على العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ...(٣١)﴾ [الأنعام] فخصَّ ﴿ ظُهُورِهِمْ ﴾ دون (رؤوسهم) كون الظُّهور أقوى على الحمل، فكنَّى بها سبحانه عن ثقل الأوزار.

ومن شواهد التَّنكيت، قوله: ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة] فاختصَّ ﴿الْوَتِينَ ﴾ دون العروق، لأنَّه نياط القلب، وهو عرق متَّصل به إذا انقطع مات الإنسان.

قَميصُ الجَفَاء

﴿ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أرادوا أنْ يُعَزِّزوا قَوْلَهُم ويُوثِّقوا تَبْريرَهم، فَقَدَّمُوا لأبيهِم قَمِيصَ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ وعَلَيهِ دَمٌ كَذِبٌ مُفْتَرى، وَوُصِفَ الدَّمُ بالمَصْدَرِ مُبالَغةً، كأنَّ الدَّمَ هو الكَذِبُ عيْنُهُ.

ولكن مَهْمَا دَبَّرَ المُدبِّرونَ وفَعَل الفاعِلُونَ فلا بُدَّ أنْ يَتْركوا خَلْفَهُم علامَاتٍ وآثاراً تُثْبِتُ أنَّهُم الفاعِلُونَ، فما أَشَدَّ غَفْلَتَهُم! فَقَد جاؤوا بالقَمِيصِ لِيَشْهَدَ لَهُم بِصِدْقِهِم، فكَانَ دلِيلاً على كَذِبِهم، فَقَد نَسُوا أن يُمَزِّقوا القَمِيصَ، فلَم يُصَدِّقْهم يَعقُوبُ ـ عليه السلام ـ، فأيُّ ذِئْبٍ حَلِيمٍ عاقِلٍ هذا الَّذي يَأكُلُ يُوسُفَ كُلَّهُ دون أن يَشُقَّ

قَمِيصَه، أو يُحْدِثَ فيه أيَّ خَدْشٍ أو خرْق أو تمْزِيق؟! وأيّ ذِئْب رَشِيد هذا الَّذي يَنْزعُ القَمِيصَ عن يُوسُفَ أوَّلاً ثمَّ يأكُلُهُ؟! وبعدما حسبوه ورَقةً رابِحةً في أيدِيهم وحُجَّةً دامِغَةً لَهم، إذا بِهِ حُجَّة ساطِعَة على فَسَادِ دَعْواهم؛ فليْسَ أدلّ على كَذِبهم من قَمِيصِ يُوسُفَ غَيْر المُمزَّق ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النُّور] وصَدَقَ القَائِلُ:

إذا لَـمْ يَكُنْ عَونٌ مِنَ الله للفتى ... فَـأَوَّلُ مَا يَقْضِي عَلَيْـــــهِ اجتِـهَادُهُ

يعقوب يتلقى الخبر بالصبر

فَكَيْفَ تَلَقَّى ـ عليه السلام ـ هَذا النَّبأَ العَظِيمَ؟! والله ما مَلأَ الدُّنيا عَويلاً ولا صُرَاخاً، إنَّما كُلُّ الَّذي قَالَهُ: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي زَيَّنتْ لَكُم أنْفُسُكُم أمْراً عَظِيماً في يُوسُفَ فَأَقْدَمْتُم عَلَيهِ، وأضْرَبَ ـ عليه السلام ـ عن التَّصرِيحِ بِكَذِبهم، ولكن يفهم من قوله أنَّه حكم عليهم بالكذب، وأنَّ الذِّئب لم يأكله بظهور علامة كذبهم.

ثـمَّ قَـالَ: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فقَضَاءُ الله تعالى لا يُواجَهُ بِغَيرِ التَّسْلِيمِ، وليْسَ لَهُ عُدَّةٌ سوى الصَّبر الجَمِيل ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ ﴾احتِمالِ ﴿ مَا تَصِفُونَ ۝١٨ ﴾ وتذكُرونَ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ، وعلى فَضْحِ دَعْواكُم وَكَشْفِ حَقِيقَتِكُم، و ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧ ﴾ [الأنعام] وكلّ آتٍ قَريب، وكلُّ همٍّ إلى فَرَجٍ.

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ نَعَم يا يَعْقُوب، يا مَنْ شَرِبْتَ كَأسَ البَلاءِ صابِراً مُحْتَسِباً، وأنْتَ عِنْدَ الله تعالى من الصَّابِرينَ!

الصَّبْرُ الجَمِيلُ

لم يَجْزَعْ يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ ولم يَهْلَعْ، ولم يَشْكُ أَمْرَهُ لِمَخْلُوقٍ؛ لأنَّهُ نَبيٌّ حَلِيمٌ، ومن

كَانَ كَذَلِكَ فَهُو أَهْلٌ للصَّبْرِ الجَمِيلِ، ونَحْنُ بِحَاجَةٍ إلى زَادٍ من الصَّبْرِ نُقَابِلُ بِهِ ما يُمْكِنُ أَنْ نَتَعَرَّضَ لَهُ من كرائِهِ الأُمُورِ، وحَوازِبِ الخُطُوبِ، وشَدَائِد المِحن، والبلايا الَّتي تحمل المنايا، ولِذَلِكَ تَرى الوَصَايا المُتَتَابِعَة في القُرآنِ الكَريمِ للنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ ليكُونَ مثالاً لِلصَبْرِ الجَمِيلِ، قال تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف] وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس] وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود] وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النَّحل] وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ ... ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرّوم] وقال: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ ... ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا... ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطُّور] وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم] وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج] وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزَّمِّل] وقال: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ [المدَّثِّر] وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإنسان].

وَقَد كَانَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ كَما أَرَادَهُ الله تعالى قِمَّةً في الصَّبْرِ، مِمَّا جَعَلَ الصَّحَابةَ ـ رضي الله عنهم ـ عَلى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ وحَظٍّ وَافِرٍ من الصَّبْرِ الجَميلِ.

وَقَد بَيَّنَت الآياتُ لَنا أَنَّ الصَّبْرَ دأْبُ أُولي العَزْمِ من الرُّسِلِ، وأَنَّ عُقباهُ حَمِيدَةٌ، ومَنْ تَجَمَّلَ بِهِ مَأجُورٌ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزُّمَر] وأَنَّ من

تصبَّرَ يُصبِّرْهُ اللهُ تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ... ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النَّحل].

ولَمَّا كانَ لِلصَّبْرِ هذه القِيمةُ العَظِيمةُ وَجَدْنَا في القُرآنِ الكَرِيمِ الأمْرَ بـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ... ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران] ومَدْحَ أَهْلِهِ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة] ومحبَّةَ الله تعالى لمن تمسَّكَ بِـهِ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران] ومَعِيَّتَهُ لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة] وأنَّ الصَّبْرَ خيرٌ لهم: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النَّحل] وأنَّ الصَّبْرَ نِعم السَّبيلُ على مُقَاوَمَةِ النَّائِبةِ وكَسْرِ سَوْرَتِها: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] وأنَّ عاقِبَةَ التَّقْوى والصَّبْرِ الفَرَجُ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف].

اللَّهُمَّ اجعَلْنَا عِنْدَكَ في ديوان الصَّابرين الشَّاكِرِينَ.

شِرْعَةُ المُسابَقَة

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ... ﴿١٧﴾ ﴾ يدلُّ على أنَّ المسابقة شِرعَة ومنهاج وسُنَّة، فقد فعلها النَّبيُّ ـ ﷺ ـ بنفسه، أخرج أحمد بسند صحيح عن هِشَام عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: " خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ، فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ بِتِلْكَ "(١).

---

(١) أحمد " المسند " (ج١٨/ ص١٧٧/ رقم٢٦١٥٥).

كما سَابَقَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ بين الخيل لما في ذلك من المصلحة في إعدادها للقتال كرّاً وفرّاً، أخرج البخاري، عَنْ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ: " أَنَّ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ سَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي أُضْمِرَتْ[1] مِنْ الْحَفْيَاءِ[2] وَأَمَدُهَا ثَنِيَّةُ الْوَدَاعِ، وَسَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرْ مِنْ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ، وَأَنَّ عَبْدَ الله بن عُمَرَ كَانَ فِيمَنْ سَابَقَ بِهَا"[3]

لا تلقّنوا أولادكم الحجّة فيكذبوا

لقَّنَ يَعْقُوبُ عليه السلام أولادهُ الحُجَّةَ فكَذَبُوا، قال لَهُم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ... ﴿١٣﴾﴾ فَأَخَذوا من فَمِهِ هذه الكَلِمَة وجَعَلوها حُجَّتَهُم، فَقَالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ... ﴿١٧﴾﴾؛ فافْهَم.

الجَهْلُ بالغَيْب

عَرَفْنا أنَّ يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ قَدْ سَلَّمَ يُوسُفَ لإخْوَتِهِ أَمَانَةً غالية يرْتَعُ ويَلْعَبُ، لكنَّهُ لم يرتَعْ ولم يَذُقْ حَلاوةَ اللَّعبِ، وإنَّما جعَلُوه في غيابَةِ الجُبِّ وَحِيداً فَريداً، ولو اطَّلَعَ يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ على الغَيْبِ، وَعَلِمَ من الأمْرِ شيئاً ما فرَّطَ في يُوسُفَ لَحْظَة، ولكن لا يَعْلَمُ الغيْبَ المُطْلَقَ إلَّا الله ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرَّعْد].

إنَّ حِكْمَةَ الله تعالى اقْتَضَتْ أنْ تُخْفِيَ صَفْحَةَ الغَيْبِ عَنَّا؛ لِتَسِيرَ المُجْرَياتُ في طَرِيقِها السَّلِيم، وقَد أَقْفَلَ الله تعالى أبْوابَ مَعْرِفَةِ الغَيْبِ عَنَّا رَحْمَةً بِنَا؛ فلو عَلِمَ النَّاسُ الغَيْبَ لكَانَ أكْبَرَ ضَرَرٍ عليهم، ذلك أنَّ العَبْدَ لو اطَّلعَ على صَفْحَةِ الغَيْبِ

---

(١) هو أن يُقلَّلَ علفُها فترة لتكون أقوى على الجري.

(٢) موضع بالمدينة منه أجرى النَّبيُّ ـ ﷺ ـ الخيل في المسابقة، وبين موضع الحَفْيَاءِ وثنيَّة الوداع نحو ستة أميال.

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص١٠٨) كتاب الصَّلاة. ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٧/ ج١٧/ ص١٤) كتاب الإمارة.

وعَلِمَ أنَّه سَيَمُوتُ بَعْدَ عَامٍ مثلاً لم يُفكِّرْ يوماً في عَمَلٍ أو في شأنٍ من شؤون الحياة، ولظَلَّ حَزِيناً، ينتَظِرُ أجله ساعةً بَعْدَ ساعة...

أيضاً لو اطَّلَعَ النَّاسُ بَعْضُهم على ما في قُلُوب بَعْضٍ من الغِشِّ والحِقْدِ والكُرْهِ والضَّغِينَةِ والغِلِّ والرِّياء... فكَيْفَ يَعِيشُ النَّاسُ سُعَدَاء؟! فالجَهْلُ بالغَيْبِ والمُسْتَقْبَلِ، والجَهْلُ بما في الصُّدُور والقُلُوبِ رَحْمَة من الله تعالى تَضْمَنُ لنا السَّعادَة ونحنُ لا نَشْعُرُ.

ولَمْ يُظْهِر الله تعالى على غَيْبِهِ أحداً إلَّا بَعْض الرُّسُلِ؛ لِيَكُونَ مُعْجِزَةً لهم، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجنّ] فالرُّسُل مؤيَّدونَ بالمُعْجِزاتِ، ومنها الإخْبَارُ عن بَعْضِ المُغَيَّباتِ، كما قَالَ تعالى عن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران].

أمَّا عُشَّاق الضَّلالِ كالعَرَّافين والعباقِرة الفلكيِّين والرَّمَّالِينَ والنَّاظِرينَ في الكَفِّ أحْفَاد الشَّياطِين، الَّذين أوهموا النَّاسَ أنَّهُم قَد عُيِّنُوا على اللَّوح المحفوظ، لا يَعْلَمُونَ من الغيب شيئاً ولا يَجُوزُ تصديقُهم ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يونس]

فالله تعالى وحده يعلم الغيب، و ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأنعام]، و ﴿ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنبياء]، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النَّمل]، و ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [التّغابن]

ومن جميل الموافقات، قول زهير:

فلا تكْتُمُنَّ اللهَ مـــا في نفوسِـــكُمْ ليخْفَى ومهمـا يُكْتَـــم اللهُ يَعْلَـــمِ
يؤخَّرْ فَيُوضَعْ فـي كِتَابٍ فيُدَّخَــرْ لِيَـومِ الحِسَـابِ أو يُعَجَّـلْ فَيُنْقَـمِ

قاله زهير في جاهليَّته، فوافق قولـــــه تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ... (٢٩) ﴾ [آل عمران] وهو قريب أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ﴾ [البقرة]

الحَسَدُ مَثارُ أوَّل جِنايَةٍ

كَانَ حَسَدُ أولادِ يَعْقُوب ـ عليه السلام ـ لأخِيهِم قَدْ حَمَلَهُم على الخَلاصِ مِنْهُ بِإلقائِهِ في غَيَابَةِ الجُبِّ، فَقَطَعُوا بذلِكَ الرَّحمَ، وأخْلَفُوا الوَعْدَ، وعقُّوا أباهُم، وكَذَبُوا عَلَيهِ، فَبَواعثُ الحَسَدِ تُسَهِّلُ على العَبْدِ رِكُوبَ العَظائِمِ.

وأوَّلُ جِنَايَةٍ ارتُكِبَتْ مُنْذُ آدم ـ عليه السلام ـ كَانَ مَثَارُها الحَسَدَ، حيْثُ قتَلَ أحَدُ ابني آدَم ـ عليه السلام ـ أخَاهُ الآخر حَسَداً، قال تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة]، إلى قوله: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) ﴾ [المائدة].

في الحَسَدِ

الحَسَدُ: أن يتمنَّي العَبْدُ زَوالَ النِّعْمَةِ عن صَاحِبِها وتحوّلها إليه، أو بِعِبَارة أخرى، الحَسَد: أَنْ يَرَى الرَّجُلُ لأخيه نِعْمَةً، فيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ عنه وتكُونَ له دُونَه. والمُسْلِمُ لا يحسُدُ، إذ الحَسَدُ حرامٌ شرْعاً، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (٥٤) ﴾ [النِّساء]، وقال تعالى: ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ

أَنفُسِهِم ... ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ [الفلق] ، فذمُّ الله تعالى للحسدِ مقتضٍ تحريمه له ونهيه عنه ، ذلك أنَّ الحَسَدَ مُنافٍ لحُبِّ الخيرِ والإيثارِ فيه، واعتراضٌ على قِسْمَةِ الله تعالى منَّته بين خَلْقِه، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [النِّساء]، وقال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزُّخرف]

وقال ـ ﷺ ـ: " إِيَّاكُمْ والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ ، ولا تحَسَّسُوا، ولا تجَسَّسُوا ، ولا تنَاجَشُوا[1] ، ولا تحاسَدُوا، ولا تباغَضُوا ، ولا تدابَروا ، وكُونُوا عِبادَ الله إخْواناً ". [2]

وهناك حَسَدٌ بِمَعْنى تمنِّي زوال النِّعمة عن مستحِقٍّ لها ، وهناك حسد بمعنى البَغيِ والعدوانِ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ [الفلق] أي إذا بَغَى وأظْهَرَ حَسَدَه وعَمِلَ بِمُقْتَضاهُ.

فمتى يَصيرُ الحسدُ بَغياً وعُدْوَاناً؟ الجَواب: إذا سَعَى العَبْدُ في إفْسادِ نعمةِ الله تعالى على صاحبِها ، فإذا رأى نِعْمَةً وتَـمَنَّى زوالها أو هَلاكَها أو تمنَّى تحوّلها إليه فهَذا حَسَدٌ ، أما إذا سَعَى ليفسد فيها، وعَمِلَ على إزالتها فهذَا ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ [الفلق] ، وَهو شَرٌّ مَن الحَسد؛ لأنَّه حسد مضاف إليه البغي والعدوان.

---

(١) النَّجْش: أَن يَزيدَ الرَّجُلُ ثمنَ السِّلعة وهـو لا يريـد شراءَهـا، ولكـن ليَسْـمَعَهُ غَـيرُه فيَزيـد بزيادته فيخدعه ويغرّ به ويوقعه.

(٢) البخاري " صـحيح البخـاري " (م٤ /ج٧/ ص٨٩) كِتَـاب الأدب ، ومسـلم " صـحيح مسلم بشرح النووي "(م٨ / ج١٦/ ص١١٨) كتاب البِرِّ والصِّلة.

وَلَيس مِنَ الحسدِ الاغتباط، وَهو أن تتمنى مِنَ الله تعالى أَن يكونَ لكَ مِن الخَيرِ مِثْل غيرِك دُوْنَ زَوَالِ ما عندَه؛ لقول النَّبيِّ ـ ﷺ ـ : " لا تحاسد إِلَّا فِي اثنتين: رَجُلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يتلوه آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، يقول: لَو أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِي هَذا لَفَعلتُ كَما يَفعَلُ، وَرجُلٌ آتاه اللهُ مَالاً يُنفِقُه في حَقِّه، فَيقولُ: لَو أُوتيتُ مِثلَ ما أُوتي هَذَا لَفَعَلْتُ كما يَفْعَل "[1]

فمَنْ تَمَنَّى مِنَ الله تَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ الرَّجُلَيْن اللَّذَيْن ذَكرَهُمَا النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ في حديثِه الشَّريف أعطَاه اللهُ تعالى مِثْلَهما في الْأَجْر وَالثَّواب؛ لأنَّ هذا حَسَدٌ مجازيٌّ وهو ما يُعْرَف بالغبطة، وليس حسَداً حقيقياً.

ويفهم من الحديث أنَّ من الغبطة أنْ يتَمَنَّى الإنسان مِثْل النِّعْمَة الَّتِي عَلَى أخيه مِنْ غَيْر زَوَالِهَا عَنْه، فَإِنْ كَانَتْ تلك النِّعمة طَاعَة فَهِيَ مُسْتَحَبَّة، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ أُمُور الدُّنْيَا كَانَتْ مُبَاحَة، كما يُفهمُ أَنَّه لَا غِبْطَة محمودة إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ ونحوهما.

وقَد أوجِدت الغبطة في الإنسان لِيُنافِسَ غيره من أهل الفضل في جلائل الأعمال، فيكثر الخيرُ، ويزداد النَّفعُ، ولم تُوجَد ليسعى في إزالة الفضل والخير عن أخيه، فهذا من الحسد.

وَلا رَيْبَ أَن الحَسَد أكثر ما يكون بَينَ المشْتَرِكين فِي حال مِن الأَحوَال: كالمُشْتَرِكِينَ فِي صَنْعة، أو تِجَارة، أَو زِرَاعَة، أوحِرْفَة، أَو عِلْم، أَو دِرَاسَة، أَو مَنْصِب، أَو رياسَة، أو غِنَى... وكلَّما ذَاعَ صِيْتُ الإنسان حَسَده مَنْ يُشَارِكه فِي ذَلِكَ الصِّيت، وَكُلَّما ارْتَفَعَ الصِّيتُ، وَحَسُنَ الذِّكْرُ ازْدَادَ الحَسَدُ.

وَإِنَّك لَترى الحَاسِد لا يُرِيدُ أَنْ يُشارِكَهُ في المجْدِ والرِّفْعَةِ أحدٌ، ولذلكَ تَراه يَسْعَى جاهِداً لإزالةِ الفَضلِ عن المَحْسُودِ ولو بإلحَاقِ الأذيَّةِ بِهِ... أجارنا اللهُ من

(١) البخاري " صَحِيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٢٩) كتَاب التَّمَنّي.

غَوائِل الحَسَد، وأعَاذَنا من شَرِّه.

مُقارَنة بين سيِّدنا يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ وَسَيِّدنا مُحمَّد ـ ﷺ ـ في مَسألة وُجُودِ الأب وَعدَمِه

إِذَا عَقَدْت مُقَارنة بين سيِّدِنا يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ وَسَيِّدنا محمَّد ـ ﷺ ـ تجدُ أَنَّ يُوسُفَ لَمَّا وُلِدَ وَجدَ لَهُ أَباً يَحْنُو عَلَيهِ ويُحِيطه بَفَائق الْعِنَاية والرِّعَاية، ومحمَّد ـ ﷺ ـ لَمَّا وُلِدَ وَتَلفَّت حَواليه لَم يَجِدْ أَباه، وَمَعَ ذَلِكَ مَا أَغْنَتْ حَياةُ يَعْقُوب ـ عليه السلام ـ عَن يُوسف شَيْئاً، فَقَد انْتُزِعَ يُوسُفُ مِن بين يَدَيهِ، وَجَرَى لَهُ ما جَرَى، وَمَا اسْتَطَاع يَعْقُوب ـ عليه السلام ـ أَن يَرُدَّ المقادِيرَ شَيْئاً، ومُحمَّدٌ ـ ﷺ ـ اليَتِيم يسَّرَ اللهُ له مَنْ شَمِلَهُ بعنَايَتِهِ من مَوْلِده حَتَّى وَفَاتِهِ، فَالله تَعَالَى يُعْطِينا صُورةً أَنَّ حَيَاة الوَالِدَين لا تُغَيِّر مِن مُجْرياتِ الْقَدر شَيْئاً، وَأَنَّ قَضَاءَ الله تَعَالى نَافِذٌ لا يَردُّه أحدٌ.

خرُوج يُوسُفَ من الجُبِّ

وَبَيْنَما يُوسف فِي الجُبِّ مُحْتَسِباً أَمْرَه إِلى الله تَعَالى، إِذْ جَـاءَت رِفْقَـةٌ تَسِـيرُ لِمِصْرَ، وَعِنْد الجُبِّ انْتَدَبوا ساقِياً يَرِدُ لَهُم عَلَى الجُبِّ، وَيَـأْتِيهم بِالمـاءِ، قَـال تَعَـالى ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ رَمَى الْوَارِدُ دَلْوَه فِي الْجُبِّ فَتَعَلَّق يُوسُف بِهَا، فَلَمَّا رَآه ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ نَادَى بِفَرَحٍ وَسُرُورِ الْبُشْرى عَـلَى عَـادَة الْعَـرَبِ كَـمَا تُنَادِي الحَسْرة: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ... ﴿٣٠﴾ ﴾[يس].

ثُمَّ اتَّفَقَ الْوَارِدُ وَأَصْحابُهُ عَلَى إِخْفاء أَمْرِ يُوسُفَ وَبَيعِه بِمِصْرَ مَتَاعاً كَمَا تُبَاعُ الْبِضَاعةُ، قَال تَعَالَى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ لَم يَخْفَ عَلَيْهِ تَعَالى أَسْرَارَهم وَمَا عَزَمُوا عَلَيه فِي أَمْرِ يُوسُفَ، وَلَكنَّ حِكْمَةَ الله تَعَالى اقْتَضَت ذَلِك؛ ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال].

وَمن محنَةِ الجُبِّ إِلَى مِحْنَةِ الرِّقِّ، قَال تَعَالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أَي وَبَاعَته القَافِلَة بِثَمَنٍ قليل ناقص، يقال: شريت الشَّيء إذا بعته وإذا اشتريته، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ...﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة] أي يبيعها، والبَخْس: النَّقص والقلَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ...﴿١٨٣﴾ ﴾ [الشّعراء] أي لا تنقصوها.

﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ تُعَدُّ لقلَّتها، و ﴿دَرَٰهِمَ ﴾ بدل من (ثمن)، والبدل إنَّما ذُكِرَ ليستفادَ فَضْلُ توكيدٍ وبيان وتخصيص للمُبْدَل منه.

﴿ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الرَّاغِبين عَنْه؛ لجهلهم بمنزلته.



القِسْمُ الثالِث

قِصَّته فِي بَيْتِ العَزِيز

يُوسُفُ فِي بَيْتِ العَزِيز

عَادَ عَزِيزُ مِصْرَ بِيُوسُفَ بَعْدَمَا اشْتَرَاه، وَأَوْصَى زَوْجَته أَن تُكرِمَ إقَامَته وَمَثْوَاه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ ﴾ وهو عزيز مصر ﴿ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ مقامه عندنا، وَبَيَّنَ العِلَّة، فقَال ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ لَعلَّه يَنْفَعنَا أَو نَتَبنَّاه وَنَتَّخذه وَلَداً لَنَا، وهذا يدلُّك على أنَّ التَّبنِّي كان معروفاً ومعتاداً عند الأمم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي وَكَما نَجَّينا يُوسُفَ من الجبِّ جَعَلْنَاه مُتَمَكِّناً فِي أَرْض مِصْر يَعيشُ فِيها بِعزٍّ وَأَمَان ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أَي نُوفِّقه لِتَعْبيرِ وَكَشْفِ بَعْض المنَامَات ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ لَا يُعجِزُه شَيْءٌ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ خَفَايا حِكْمَته وَلُطْف تَدْبيره.

وعندما نقرأ هذه الجملة التَّعليليَّة: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ... ﴿٢١﴾ ﴾ نتذكَّر صدق تأويل يعقوب لرؤيا ابنه يُوسُفَ، فقد قال له: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ... ﴿٦﴾ ﴾.

وَقَد تَحقَّق مَا رَجَاهُ العزيز فِي يُوسُفَ مَن خَيْر؛ سَوَاء بِسُلُوكه ـ عليه السلام ـ الأَمِين الشَّرِيف، أَو حِينَ صَار عَزِيزاً عَلَى مِصر فَخَدَم البلادَ وَالعِباد، وَأَخِيراً نَفَعَ الله تَعَالى بِه المصريين حِين بَعَثه الله تَعَالى إِلَيْهِم نَبِيّاً وَهَادِياً وَرَسُولاً، كَمَا قَالَ مُؤْمِن آل فِرْعَون خِطَاباً للمصريين: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا

جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر]

وَتَمرُّ الأَيَّام، وَتكرُّ الأَعوام، وَيَبْلغُ يُوسُفُ مُنْتَهى شِدَّتِه وَقوَّته، وَيَمنُّ الله تَعَالى عَلَيه جَزَاء إحْسَانه بِنِعمَتيْن فِيهِمَا الْخَير الكثير: الحُكْم والعلم، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وَالْآيَة تَحـضُّ عَلَى طَلَبِ الفِقـه وَالعلم بالإحسان، فَمِنَّة الله تَعَالى لَيْسَت خَاصَّةً بِيُوسُفَ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾، كما يُطْلَبُ العِلمُ بِالتَّقْوَى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ... ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]، وَبِالإِيمَان الحقِّ: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ... ﴿١١﴾ ﴾ [التَّغابن]، والاسْتزَادَة بِالدُّعَاء ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه]

الحُكْم يأتي في القرآن بمعنيين

الحُكْم: مصْدر للفعل الثُّلاثيّ حَكَمَ، ويرد في القرآن بمعنيين: الأوَّل بمعنى القضاء بالعدل، نحو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة]، وقوله: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [المائدة] وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ... ﴿٧٨﴾ ﴾ [النَّمل].

والثَّاني بمعنى الفقه والعلم، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾، وقوله: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ... ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] وقوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص]

وقد يؤتى بهذا المصدر محتملاً المعنيين معاً، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ٢٤﴾ [الإنسان] أي اصبر لقضاء العليم، ومثله قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾ [القلم] وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾ [الطُّور] فهذا مما يتَّسع فيه المعنى فيحتمل المعنيين كليهما: القضاء، والعلم.

مُراوَدة امْرأة الْعَزِيز لِيُوسُفَ

حَلَّ يُوسُفُ فِي قَلْب امْرَأَة العَزِيز محلاً كَبِيراً من حَيْث لا يَشْعُر، وَظَنَّت أَنَّه حِينَ يَعْلَم بِمَيلِها يُسَرُّ السُّرُور الْعَظِيم ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ هَكَذَا عَبَّر القرآنُ الكريمُ عَن امْرَأَة العَزِيز بالاسم الموصول المفرد المؤَنَّث ﴿ٱلَّتِي﴾ وهو المسند إليه، زيادة في التَّقرير، فهو مسوق لتنزيه يوُسُفَ، والسَّتر عليها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ كناية عن صفة، والكناية لفظ استتر معناه، لغرض، والغرض هنا التَّعبير عن المعنى القبيح المستهجن بالكناية عنه باللَّفظ المهذَّب الَّذي لا ينبو عنه الطَّبع، فقوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ كناية عن المخادعة، وما احتالت به.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ وَأَحْكَمَت إغْلَاقَهَا وإطباقها، وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِها، ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ واللَّام في ﴿لَكَ﴾ للتَّبيين، والمعنى: هَلُمَّ، أقبل، تَعَال أقول لك! وَهَذَا نِدَاء نَفْسها الأمارة الَّتي زَيَّنَت لها السُّوءَ، وكلمة ﴿هَيۡتَ﴾ وحيدة في القرآن مادَّة وصيغة.

فَلَمَّا سَمِع ـ عليه السلام ـ نِدَاءَهَا، وَعَلم مُرَادَها؛ خَيَّبَ فَأْلَهَا، وَرَدَّ كَيْدَهَا إِلَى نَحْرِها، وَتَعَفَّف، وَامْتَنَع، وأَبَى إِبَاءً شَدِيداً، وَدُون أَدْنى تَفْكِيرٍ وَبِلِسَان التَّقْوَى ﴿قَالَ مَعَاذَ

ٱللَّهِ ﴾ أَلْتَجِىء إِلَى الله، أَرتَكِنُ عَلَى جَناب الله، أَتَحَصَّنُ بِحِمى الله.

موقِف مَبْدئيٌّ وَثَابت لَا يَقْبَل الْمُساومة ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾ يَعْنِي بِهِ إِلهه سُبْحانه ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ غَمَرَنِي بِإِحْسَانه، وَكَلَأَنِي بِرِعَايته، فَلَا أَعْصِيه؛ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وَهَذا نِدَاء نَفس يُوسف الْمُطْمَئِنَّة، وَهَيهَات هَيْهَات بينَ نَفس امْرَأَة الْعَزِيز الأَمَّارة، وَنَفس يُوسُف المطمئِنَّة.

وهكذا بعد أن غَلَّقَتْ عليه أبوابَ بيتها فَتَحَ الله تعالى عليه بَابَ العِصْمَةِ، فلم يُضِرْهُ ما أُغْلِقَ بعد أن أكرمه الله تعالى بها فَتَحَ عليه من الحكمة والعلم!

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴿٢٤﴾ ﴾ وَفي هَذِه الآية تَعثَّرَت أَقْلَام، وَزلَّت أَقْدَام، وَضَلَّت أَفْهَام؛ ففي هَذِه الآية قَالُوا كلاماً ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم]

وَتَفْسِير الْآيَة جدّ يَسِير ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ ﴾: كَلَامٌ تَامٌ نَقِفُ عَلَيه، ثُمَّ نبتدِئُ بقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ ﴾ أَي وَلَوْلا أَن رَأى بُرْهَان رَبِّه هَمَّ بِهَا، فالهمُّ ممتنعٌ وقوعه من أجل وجود البرهان ، فَيُوسُفُ ـ عليه السلام ـ لم يَقَعْ منه فِعْلٌ وَلَا هَمٌّ بالفعل، وَالْآيَة نَاطِقَة مُصرِّحة بذلك، فَهَذَا الْكَلَام من قَبِيل التَّقْدِيم والتَّأْخِير، وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] أي لَوْلَا أَن رَبطْنا عَلى قَلْبِهَا لَكَادت تُبْدِي بِهِ، فَهَذا عَلَى تَقْدِيم الجواب وَتَأْخِير الشَّرط، أَو عَلى حَذف الجواب لدلالة مَا قبله عليه، وهذا التَّقْدِيم وَالتَّأْخِير إِنَّما جَاء لِوُجوه بَلَاغِية وَحِكَم ربَّانِيَّة وَأُمُور إِيمَانِيَّة وَانْتَهت الْقَضِيَّة.

نعم، هذا على التَّقديم والتَّأخير، ولذلك لا ينبغي أن نقف في المعنى عند قوله

تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ونسكت؛ فقد يتبادر إلى الأفهام والأذهان أنَّ الهمَّ قد وَقَعَ، وليس كذلك، فلا يدلُّ قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ على ثبوت الهمِّ؛ لأنَّ لولا: حرف امتناع لوجود، فالهمُّ ممتنع وقوعه لوجود رؤية يُوسُفَ لبرهان ربِّه، فالآية تقديرها: لولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها، لكنَّه رأى البرهان فلم يهمَّ بها.

فأنت تقول: لقد قتلته لولا أن تداركتني رحمة الله. فلو وقف السَّامع عند قولك: لقد قتلته، لتوهَّم أنَّ القتل قد وقع، والحقيقة أنَّ القتل ممتنع وقوعه لوجود رحمة الله تعالى، ويكون المعنى: لولا أن تداركتني رحمة الله لقتلته، فالقتل لم يقع أصلاً. ونظير ذلك حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ[1]، قولك: لقد خرجنا لولا نزول المطر، فالخروج لم يقع لنزول المطر، فالتَّقدير: لولا نزول المطر لخرجنا، ونظيره: لقد هلكنا لولا أن هدانا الله، فالهلاك ممتنع وقوعه من أجل وجود هداية الله تعالى، وكم من نظير!

أمَّا البرهان الَّذي رآه يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ فقد أطال المفسِّرون في تعيينه بلا دليل يدل عليه من الكتاب أو السُّنَّة، وفي تعيين ذلك البرهان تكلُّفٌ غيرُ محمودٍ إذ لا سبيلَ إلى معرفته إلَّا بالخَبَرِ المقطوع به، وهذا ما لم أقف عليه.

أمَّا معنى الهمّ فأيّاً كَانَ مَعْناه، فيُوسُفُ لم يَقَعْ منه هَمٌّ بِهَا البتَّة، بَل هُوَ مَنْفِيٌّ لوُجُود البُرْهَان الْإِلهيّ عنده، ولنفي السُّوء وَالفَحْشَاء برمَّتهما عنه ـ عليه السلام ـ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ فَهَذَا نَفْيٌ لوقوع الهمِّ منه بالمعصية؛ فالآية تَعْنِي أنَّ يُوسُفَ ثَابِتٌ ثَبَاتَ الجبال، والسُّوء وَالْفَحْشَاء يَسْعَيَان إِلَيه، وَلَو كَان الحَال كما زَعَمُوا أنَّ يُوسُفَ هَمَّ بالمعصية، لكان الثَّابت السُّوء

---

(1) يُضْرَب في المتماثلين، وفي التَّسوية بين الشيئين، والقُذَّة: الرِّيشة من ريش السِّهام المقطوعة على قدْر صاحبتها مثلاً بمثل.

وَالفَحْشَاء، وَالَّذِي يَمْشِي إِلَيْهِما يُوسُفُ، ولقال تعالى: لِنَصْرِفه عَن السُّوء وَالْفَحْشَاء. فلمّا لَمْ يَقُل تعالى ذلك، وَقَال: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى ثَبَات يُوسُفَ وَنَزَاهَته وَعَلَى عَدَم هَمِّه بالمعصية، ثمّ إنَّ الهمَّ ليس ممَّا يَكْسِبُه العَبْدُ.

وَلِكَـي يَقطَـع الله كُـلَّ لِسَـان، قَـالَ بعـد ذلـك: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾؛ لِيُبَيِّنَ لَنَا أَنَّ إِبْلِيسَ نَفْسَه لَيْسَ لَه سُلْطَانٌ وَلَا غِوَايَةٌ عَلَى يُوسُفَ، فَإِبليس قَالَ لله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾[ص]، وَيُوسُفُ مِن الـمُخْلَصِين، فَهو مستثنى بـ (إلّا)، والكلام تَامٌ مُوجَب.

وزد عَلَى ذَلِك أَنَّ الله تَعَالى آتى يوسف الحُكْم والعلم قَبْل هَذِهِ الحادثة، وهما من أسباب العصمة، قَال تَعَالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾.

أَبَعْد هَذَا يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ يُوسف حَاول؟! أَبَعْد هَذَا البَيَان يَقُول مُكَابِرٌ: إِنَّه كَانَ فِي نَفْسِه شَيءٌ؟!

تنوّع القراءات في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بين البناء للفاعل والبناء للمفعول

اللُّغة العربيَّة من خصائصها أنَّها لُغَةُ اشتقاق، ولذلك قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب (المخْلِصين) بكسر اللَّام على أنَّها اسم فاعل في قوله تعالى في حقِّ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ وقرأ الآخرون ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللَّام على أنَّها اسم مفعول.

والمعنى على القراءة الأولى: أنَّ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ كان ممَّن أخلص دينه وقلبه وعمله وطاعته لله، فاسم الفاعل يدلُّ على من قام بالفعل أو تعلَّق به، وعلى الثَّانية: أنَّه كان ممَّن أخلصهم الله لنفسه واستخلصهم لرسالته واصطفاهم واختارهم، لأنَّ

اسم المفعول يدلُّ على من وقع عليه الفعل.

ولا تعارض بين القراءتين في المعنى، فالقراءة باسم الفاعل تدلُّ على أنَّ يُوسُفَ أخلص طاعته لله، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ...﴿٥﴾ ﴾ [البيّنة] وما ذلك إلَّا بتوفيق من الله تعالى، والقراءة باسم المفعول تدلُّ على أنَّ الله تعالى أخْلَص يُوسُفَ وهيَّأه ليكون من المخْلَصين، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص].

فلا تعارض في المعنى بين القراءتين، فالقراءتان تتممُّ إحداهما الأخرى، فإنَّ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ كان مُخْلِصاً ومُخْلَصاً.

قَمِيصُ البَرَاءَة

قَال تَعَالَى: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾ هَكَذَا بِالتَّثْنية، فَهُنَاك قَاعِدَة تَنْطَبِق عَلَى يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ تَقُول: " الإِخْرَاج يَقُودُ إِلَى الإِخْرَاج " وَأُخْـرَى تَنْطَبَقُ على امْرَأَة العَزِيـز، تَقُول: " إِذَا لَم تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ "[1]، فَقَد بَلَغَ مِـن عِفَّتِه ـ عليه السلام ـ أَنَّه أَسْرَعَ إِلَى الْبَاب لِلْهَرَب، فَعَدَتْ خَلْفَه لِلطَّلب، وَجَذَبَتْ قَمِيصَه، وتَعَلَّقَتْ به لتَحْبِسَه على نفسها ﴿ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ ﴾ أي شَقَّت قَمِيصه مِن خَلْف ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ ﴾ وَإِذَا بِزَوْجِهَا الْعَزِيز فَجْأَة لَدَى الْبَاب مُقْبِلاً.

فَاطْمَأَنَّ يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ لِإِيمانه ببراءته، فالبريء لا ﴿ يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ ﴾ [الجنّ] ، أَمَّا هِي فَسُرْعَانَ ما اسْتَجْمَعَت أَنْفَاسَها، وتَسلَّحت بالكيد والمكر؛ لِتَخْرجَ مِن الشَّرَك الَّذِي نَصَبته، وتثأَرَ لِنَفسِها مِن يُوسُفَ، فَقَالَت لزوجها: ﴿ مَا

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٠٠) كتاب الأدب.

﴿جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ[1] سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ وكأنّي بها قالت هذا الكلام اللَّيِّن والظُّلم البيِّن، وهي تَبْكِي، كما قِيل: "وَسِيلةُ المرأة في هُجُومِهَا صُرَاخُها، وَوَسِيلتها في دِفَاعِهَا دمُوعُهَا ".

وَتَوجَّهَت الْأَنْظَارُ نَحو يُوسُفَ؛ لِيَسْمَعوا مَاذَا يَقُول، وَبِخلاف امْرَأَة الْعَزِيز الَّتي أَطَالت الْكَلَام اقْتَصر ـ عليه السلام ـ على أَقَلِّ عِبَارَة يُدَافِع بِهَا عَن نَفْسِه وَتُؤَدِّي غَرَضه، فَقَال ـ وَعَلَامَاتُ الطُّهْرِ بَادِيَة عَلَى مُحَيَّاه ـ: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي... ﴿٢٦﴾﴾ هِيَ الَّتِي طَلَبَت، وَلَكِنِّي لَمَ أَسْتَجِب، مُحْتَسِباً أَمْرَه عند الله تعالى، مُؤَمِّلاً أَخْذَ الْعَدَالَة مَجْرَاهَا.

ليس البَيانُ بِكَثْرةِ الكَلام

ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ المرأةَ تتكلم أكثر من الرَّجُل، واستدلُّوا على ذلك بأنَّ امرأةَ العزيز أطالت وأكثرت الكلام في دفاعِها عن نفسِها: ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ بخلاف يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ الَّذي اقتصر على أوجز لفظ، وقال من غير إسهاب ولا إطناب: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ... ﴿٢٦﴾﴾ وهذا الاستدلال فيه نظر؛ فقد تكلَّم الشَّاهد الَّذي هو من أهلها ـ كما سيأتي ـ بأكثر منها!

ثمَّ خطر لي أنَّ الإسهاب والإطناب، والإيجاز والقصر الوارد في الآيتين يؤخذ منه ما هو أجود من ذلك، يؤخذ منه أنَّ البيان ليس بكثرة الكلام، وإنَّما بإصابة المعنى كما هو معروف في البلاغة.

---

(١) ﴿بِأَهۡلِكَ﴾: بزوجتك، قَالَ تعالَى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ... ﴿٢٦﴾﴾ [الذَّاريات] وَفي شَأن مُوسَى ـ عليه السلام ـ: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ... ﴿٢٩﴾﴾ [القصص].

فسكوتُ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ عن ضروب البيان، ووجوه الكلام، وكثرة الجدال والخصام لم يكن عيّاً، وإنّما كان عِلماً وفَصَاحةً وورعاً وثقةً بالله.

وسيأتي ليُوسُفَ إسْهَاب في الكلام، ولكن في مقام الدَّعوة إلى التَّوحيد وهو في السِّجن، أمَّا إذا تعلَّق الأمرُ بالافتراء عليه فكان يقتصر على أوْجَز لفْظ، فسيأتي لأخوته اتِّهامه بالسَّرقة، ولم يزد أن قال: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾.

وكم من عَالمٍ جَليل، حظُّه من العلم وافِرٌ جزيل، ويموت بموته خير عظيم، جَهِل عليه من جَهِل، وافترى عليه من افترى، فأسكته علمه عن القِيل والقَال، ووكل أمره إلى ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴾ [الرعد] ولا غرابة؛ فالعلماءُ ورثةُ الأنبياء.

ألا ترى كيف ردَّ نبيُّ الله يَعقوبُ ـ عليه السلام ـ على أولاده لمّا افتروا الكذب، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ ألا ترى إلى أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ لمّا افترى عليها من افترى حديث الإفك، قالت: " مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِ: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ "[1] فإذا جار عليك النَّاس، فاستجر بالله، فلنعم المجير!

وثيقةُ البراءة

"وربَّ أَخٍ لكَ لَم تَلِده أمُّكَ " فَقَبْل أَن يَغْرَقَ الْعَزِيز بالحَيْرَة، قَطَعَ عليه حَيْرَته حَاضِرٌ مِن أَهْلِهَا، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ وقَال ـ عَلَى سَبِيل الشَّهَادة ـ:

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص٢١٧) كتاب التّفسير، وأخرجه البخاري في كتاب الشّهادات، وفي كتاب المغازي. وأخرجه مسلم في " صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٧/ ص١١١) كتاب التّوبة.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي شُقَّ مِن أَمَـام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي شُقَّ مِن خَلْف ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فقَدُّ الْقَمِيص مِن أَمَامٍ دَلِيلُ الإقبال، وَقَدُّه من خلف دَلِيلُ الإدبار.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ العزيز ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ اتَّضح الأمرُ، وأَيْقَن بِبَرَاءة يُوسُف وَبِكذْبِها، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فَصَار يُوسُفُ فِي مَأْمَن، وَصَارَت هِي مِن الْخَيبَة بِمَكَان، ولم يضرَّ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ أَنْ قَدَّتْ قميصه وهو لِبَاسُ الدُّنيا بعد ما صحَّ عليه لباس التَّقوى.

وَهَكَذا أَقَام الشَّاهِد الْحُجَّة عليها، وَدَحضَ افْتِرَاءَهَا، مِصْدَاقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ... ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر]

وَقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ يفيد اختصاصاً من جهة القرابة، وكَونه مِن أَقَارِبِهَا كَان أَوْجب لِلْحجَّة عليها، وَلَا يَسعُنا إِلَّا أَن نُحيي ذَلِك الشَّاهِد العَدْل والْمُحَامِي المنصف الَّذِي لَم يُرَاعِ الْقَرَابَة، والَّذِي عَمِل بِمُقْتَضَى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ... ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النِّساء].

من عجائب النظم القرآنيّ

القرآن الكريم عجيب النَّظم، ولا يَعْرِفُ نمطه الغريب، ونظمه العجيب، وتأليفه الأنيق إلَّا من كان آخذاً بطرفيّ النَّظم والنَّثر، فإذا عَرَفَ ذلك عَرَفَ مُفَارقةَ نظْمِ القرآن لِسَائر الكلام، وعرف أنَّ ما دونه أدنى منزلة، وأسهل مطلباً.

ومن عجيب نظمه الواضح كالفجر، الزَّاخر كالبحر، قوله تعالى حكاية عن

الشَّاهد: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فإنَّه لَمَّا كان الخبر يحتمل الصِّدق والكذب، قدَّم الشَّاهِدُ الصِّدقَ مواجهةً، ثمَّ لم يواجه يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ بالكذب، بل أدخله في جملة الكاذبين، تلطُّفاً في الخطاب.

أيضاً لم يقل: (فقد كذب) كما قال: ﴿ فَكَذَبَتْ ﴾ مراعاة لأدب الخطاب، والدخول في المعنى بألطف عبارة.

ففي قوله: ﴿ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ بصيغة الجمع، وإعراضه عن صيغة المفرد (كاذب)، فيه إكرام ليُوسُفَ لئلّا يواجهه بالكذب، وفي إعراضه عن الفعل (كَذَبَ) تكريم آخر ليُوسُفَ لئلّا يناله الفعل.

والكلام عن نظم القرآن يحتاج إلى إرخاء العنان في ميادين البيان، وأضرب عن ذلك بغية الاختصار والإجمال، وهو مبسوط في مصنَّفات علوم القرآن، وهناك شواهد له متفرقة في غير موضع من هذا الكتاب.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ في قوله: ﴿ قُبُلٍ ﴾ و ﴿ دُبُرٍ ﴾ و﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ و﴿ فَكَذَبَتْ ﴾ و ﴿ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ و ﴿ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ من المحسنات البديعيَّة ما يعرف بطباق الإيجاب، والطِّباق يُسْهِمُ في تجلية المعنى وإبرازه وتثبيته في ذهن المتلقِّي.

الدَّرسُ الَّذي نأخذه مِنَ الحادِثة

مِنَ النَّادِر والْغرِيب بدء المرأة بِمُرَاوَدَة الرَّجُل، فَلَا نَرَى الْمُرَاوَدة والتَّعَرُّض والتَّحَرُّش يَأْتِي أَوَّلاً إِلَّا من الرَّجل، الْأَمر الَّذِي يُؤكِّد لنا رُجْحَانَ كفَّة حَيَاء المرأة عَلَى الرَّجُل.

وَأَمَّا هَذِه الْحَادثة، فَزَوْجة الْعَزِيز قد تَكُون علَى شَيْءٍ مِن الْعُذْر؛ لِفَرط حُسْن

يُوسُفَ ـ ﷺ ـ، وَلِكَثْرَة اختلاطها بـه، وَلَا نُبَرِّئهَا، فلا شـكَّ أَنَّهـا خَاطِئَة، وَلكنَّ المسؤول عَن تصرُّفـها القَبِيـح هَذَا هو زوجها الَّذِي جَعَل يُوسُفَ تَحْت إِمْرَتِهَا وَسُلْطَانِهَا، وَهَذَا لَا يَجُوز؛ فلا يَجُوز للْخَدَم أَن يَخْتَلطُوا بِنسَاء البيوت الَّتِي يَعْمَلُون بِهَا، وَلَا أَن يَطَّلِعُوا عَلَى نِسَائهَا، وَهَذَا خَطَأ مَا زالَت المدنيَّة تُعَانِيه.

وَلَعلَّ الدَّرْسَ الَّذِي نَأْخُذُه مِن هَذِه الحادثة خَطَرُ الاختلاط والخلوة، وَحسْنُ الاستغناء عَن الخَدَم بِجِنسَيْه؛ لِنُحَافظَ عَلَى أَعْرَاضِنا وَحُرُمَاتِنَا، فَمَا كُلّ مَمْلُوك يُوسُف، فَإِنْ كان لَا بُدَّ منهم، فالحَذَرَ الحَذَرَ، قـال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ...﴿٧١﴾ ﴾ [النِّساء]

وَدَرس آخَر فِي مُقَاوَمة هَوَى النَّفْس، فَيُوسُفُ أَبْدى لنا ما اشْتَمَلَتْ عليه نَفْسُه الطَّاهِرَةُ من صِفَات عَالِيَة؛ لِيَكُون لَنَا مَثَلاً، وَصَدَق الشَّافِعِي ـ رَحِمَه الله ـ الْقَائِل:

عُفُّـوا تَعُـفَّ نِسَاؤُكم فِـي المحْـرَمِ	وَتَجَنَّبُـــوا مَـــا لَا يَلِيـقُ بِمُسْلِـمِ
مَـــنْ يَـزْنِ فِـي بيْـتٍ بِأَلفِي درْهَـمِ	فِـــي بَيْتِـهِ يُزْنَى بِغَـيْر الـدِّرْهَـمِ
مَنْ يَـزْنِ يُزْنَ بِـــه وَلَـو بِجِـــدارِهِ	إِن كُنْـت يَـا هَـذَا لَبِيباً فَـافْـهَــمِ
إِنَّ الـــزِّنَا دَيْـــنٌ فَـإِن أَقْـرَضْتَــــهُ	كَـانَ الوَفَاءُ مِـــن أَهْلِ بَيْتِـكَ فَاعْلَمِ
يا هاتِـكاً حُـرُمَ الـرِّجـالِ وقاطـعــاً	سُبُـــلَ المـــودَّةِ عِشْـتَ غيرَ مُكَـــرَّمِ
لو كُنْـتَ حُــرّاً مـــن سُـلالةِ طَاهِـرٍ	ما كُنْــتَ هتَّاكاً لحُـــرْمَـةِ مسْلِـمِ

فَضْلُ من هَجَرَ الفواحش

ذكر النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ سبعة يظلُّهم الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وأحد السَّبعة رَجُلٌ دعته امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله.

أخرج البخاري عن أَبِي هريرة عن النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ قال: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ يوم

القيامة فِي ظِلِّهِ(١) يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ "(٢)

ولذلك فإنَّ كلّ من دعته امرأةٌ ذاتُ حُسْنٍ وحَسَبٍ ونَسَبٍ إلى نفسها، فقال لها بلسان اليقين ومنطق الحقِّ المبين: إنِّي أخاف الله ربّ العالمين؛ ليعظها ويزجرها، أو قال ذلك بقلبه زجراً لنفسه، فإن هذا يترتَّب عليه أن يظلَّه الله تعالى في ظلِّ عرشه يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلّا ظلّه، منَّة من الله وفضلاً.

وقد بيّن النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ أنَّ أعظَمَ بلاء النَّاس من اللِّسان والفَرْج، فقال ـ ﷺ ـ: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ "(٣)

والحديث ليس فيه تقييد بالرَّجل، فالمرأة إذا دعاها رجل إلى نفسه، فقالت: معاذ الله. فهي من السَّبعة الّذين يظلّهم الله في ظلّه يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ؛ لأنَّ أحكام الشَّرع عامَّة للمكلَّفين أجمعين إلّا إذا ورد خلاف ذلك بنص صحيح صريح.

ولا عجب أن يستحقَّ من ترفَّع عن الفواحش أن يكون في كنف الله وستره، بعد أنّ صدَّق فِعْلُه قولَه، وعصى هوى النَّفس خوفاً من الله تعالى، لا خوفاً من مقولة قائل، أو لومة لائم ، أو عقوبة سلطان عادل، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ

---

(١) المراد ظلّ عرشه، لدلالة أحاديث حسنة صريحة على ذلك، وبه جزم القرطبي، ورجَّحه ابن حجر في كتابه " فتح الباري" (ج٨/ ص١١٤).

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص١٦١) كتاب الأذان، وأخرجه في كتاب الزَّكاة، وكتاب المحاربين. وأخرجه مسلم في "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٤/ ج٧/ ص١٢٠) كتاب الزّكاة، وأخرجه في كتاب الزّهد.

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٨٤) كتاب الرّقاق.

ٱلْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ [النَّازعات] وقال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرّحمن]

فمن وقاه الله من شرِّ لسانه وفرجه، فقد وقي شرّ الشُّرور، وكان النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ ضامناً له على الله أن يدخله الجنَّة، ومن خاف مقام ربِّه ، وزجر نفسه عن الهوى، كان حقّاً على الله أن يدخله الجنَّة.

العَزِيزُ يخَطِّئُ زَوْجَته

وَبَعْدَما تَبَيَّن لِلْعَزِيز الخيط الأبيض من الخيط الأَسْوَد، وَلَمْ يَعُد هُنَاك مجَال لِلشكِّ فِي بَرَاءَة يُوسُف وَكذْب امْرَأَتِه، قَال لها ـ وَالْأَسَى يَمْلَأُ القلب ـ: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ ثُمَّ تَوجَّه بالخطاب إِلَى يُوسُفَ، وَقَالَ له ـ بِلِسَان الرَّجَاء والالْتِمَاس ـ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الْأَمر وَاكْتُمه وَلَا تَذْكُرْه سَتْراً عَلَيْنَا! ويؤخذ من ذلك استحباب السَّتر على المسيء وكراهة إشاعة الذُّنوب بين النّاس.

ثُمَّ تَوجَّه بالخطاب مَرَّة ثَانِيَة إِلَى امرأته، وَقَال لها ـ عَلَى وَجْه النُّصح والتَّوبِيخ ـ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ فَالله تَعَالى يَقُول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١)﴾ [النِّساء]، ثُمَّ قَالَ لها: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ (٢٩)﴾ من المتعمِّدين للخطأ، وَالله تَعَالَى يقول: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢)﴾ [النِّساء] لذلك وَجَبَ عليك الاستغفار والتَّوْبَة النَّصُوح.

لكنَّ هَذا النُّصحَ والتَّخْطِيء والتَّوبِيخ لَم يَرْدَعْها، وَظلتْ رَاغِبَةً إِلَى يُوسُفَ، وكان الوَاجِبُ على العَزِيز أَنْ يَأْخذَ حِذْرَه، فيعزلها عَن يُوسُفَ أَو يَعْتقَه، ولكن هَذَا الَّذِي حَدَث ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ... (٤٤)﴾ [الأنفال].

الفرق اللُّغوي بين خاطئ ومخطئ

قوله تعالى على لسان عزيز مِصْر: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ من باب تغليب الذُّكور على الإناث، ومن جهة أخرى هناك فرق لُغَوي بين الخاطئين والمخطئين، فالخاطئ: من تعمَّد الخطأ وما لا ينبغي، أمَّا المخطِئ فهو: من أراد الصَّواب فصار إلى غيره، أي من لم يتعمَّد الخطأ، ولذلك قال العزيز لامرأته: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ ولم يقل لها: مِنَ المخطئين. وسيأتي لإخوة يُوسُفَ أن يقولوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِـِٔينَ ٩١﴾ أي كنَّا متعمِّدين بالذَّنب، وفيه إشارة بالتَّوبة.

من بديع القرآن الالتفات

الالتفات في المخاطبة هو نقل الكلام عن شيء إلى شيء آخر، وهو ضرب من ضروب البلاغة، وأسلوب من أساليب الفصاحة، ومنه في القرآن قوله تعالى حكاية عن عزيز مصر: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ فحوَّل الخطاب عن يُوسُفَ عليه السلام إلى امرأة العزيز.

ولذلك فإنَّه يحسن الوقف على قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ﴾ والابتداء بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ ليظهر الالتفات، ويتبيَّن الفصل بين الأمرين، وهو وقف جائز.

الكَيْدُ فِي القُرْآن الكَرِيم

وَهَذِه الحادثة لم تحطَّ مِن مَنْزِلَة يُوسُف ـ عليه السلام ـ، بَل زَادَتْه رِفْعَةً وَعلوَّ شَأْن، لَا سيَّما وَأَنَّ الْعَزِيز نَفْسه قَد أَعْلَن بَرَاءَته وَأَسْنَد مَا حَدَث لامْرَأَتِه، فَقَال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾، و﴿مِن﴾: حَرفُ جَرٍّ يفِيد التَّبعِيض وَالتَّجْزِيء، أَي إِنَّ مَا حَدَث

جُزء مِن كَيْدِكُنَّ، أَمَّا كَيْدكنَّ فَعَظِيم، وَلَمْ يَقُل: إِنَّه كَيْدُكُنَّ؛ لِأَنَّ الكَيْدَ لَا يُدْرَك مَدَاه، ولا يُعرف منتهاه.

وَقَد عَبَّر بِصِيغَة الجَمع لِأَنَّ الكَيْد مِن طَبْع النِّسَاء، وَلِذَلِك فَإِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَال لِبَعْضِ أَزْوَاجه لَمَّا أَلحَحْنَ عليه أَن يَأمر عُمَرَ لِيُصلِّيَ بِالنَّاس بَدَلاً من أَبِي بَكرٍ، قَال: " إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ "(1) فَالْكَيْدُ مِن طَبْعِكُنَّ.

والكَيد موجود فِي النِّسَاء والرِّجَال عَلَى حَدٍّ سَوَاء، إِلَّا أَنَّ كَيْد النِّسَاء أعظم بشهادة الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ فهذه الآية تقرِّر أنَّ كيد النِّساء عظيم، وبذلك يتفوَّقْنَ على الرِّجال، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ (2) فِي ٱلۡعُقَدِ ٤﴾ [الفلق]

أمّا كيد الشَّيطان فأعظم من كيد النِّساء؛ فبعض كيد النِّساء مُسْتَمدٌّ من وَسْوَسَة الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيله، فَهوَ الْمعَلِّم وَهُنَّ التِّلْمِيذَات، أَمَّا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النِّساء] فهذا إِذا مَا قِيسَ بالنِّسْبَة لِكَيْد الله تعالى، فَكَيد الله تعالى أَقْوَى مِن كَيْد الشَّيْطان وَأَشَدُّ، قَال تَعَالَى: ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف]

كلُ سرٍّ جاوزَ اللّسان شاعَ

وَإِذَا صَار الْكَلَام بيْن اثْنَيْن شَاع وَلَم يَعُد سِرّاً، وَإِذَا خَرَجَ الكَلَامُ من اللِّسَان فليس عليه أَمَان... فَقَد تَنَاهَى الخبرُ لجماعة من سَيِّدَات نِسَاء المدينة، ولَمَّا تحقَّقْنَ منه بَسَطْنَ فيها لِسَانَ الملامة، ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾- بِلِسَان الْعَجَب وَالْغِيبَة

(1) البخاري " صحيح البخاري " (م1/ ج1/ ص162) كتاب الأذان.
(2)﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: السَّاحرات اللاتي يَعْقِدْنَ عقداً في خيوط، وينْفُثْنَ فيها بريقِهِنَّ لِيُعَقِّدْنَ أمور النَّاس.

والتَّشريب ـ: ﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا ﴾ عَبْدَهَا يُوسُفَ ﴿عَن نَّفۡسِهِۦۖ ﴾ وَهِيَ المُتَزَوِجَة من عَزِيز مِصر! وَيَأْبى عَلَيْهَا! وَتُرِيده قَسْراً! ﴿ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ ﴾ اقْتَحَم حبُّهُ أَسْوَار قَلْبِها ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٣٠ ﴾ في خطأ وبعد عن سبيل الرَّشاد.

وهذا الكلام من النِّسوة يكشف عن طبيعة الإنسان في حُبِّ الاطِّلاع وتتبُّعِ الأخبار، فإيّاكُم والنَّمائم؛ فإنَّها تزرع الأحقاد وتنبت السَّخائم.

دلالة تجريد الفعل المسند إلى جمع التكسير من التاء أو قرنه بها

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ ﴾ النِّسوة فيها أقوال أشهرها وأظهرها أنَّ كلمة نسوة جمع تكسير للقلَّة، والمشهور كسر نونها، ويجوز ضمُّها في لغة، قال القرطبي: "وهي قراءة الأعمش، والمفضل، والسلمي"[1] وإذا ضُمَّت نونها كانت اسم جمع بلا خلاف.

ومعلوم أنَّ من مواضع تأنيث الفعل مع الفاعل جوازاً إذا كان الفاعل جمع تكسير، نحو قوله تعالى: ﴿ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ ... ۝١٤ ﴾ [فصِّلت] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ ... ۝٣٤ ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ ... ۝٤٣ ﴾ [الأعراف] وقوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ ... ۝١٤ ﴾ [الحجرات]

فإن قيل: فلم جُرِّد الفعل من علامة التَّأنيث في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ ﴾ وأثبت في مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ﴾ [الحجرات] مع أنَّ تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التَّأنيث؟!

فالجواب: أنَّ ثبوت التَّاء في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ﴾ [الحجرات]

---

(١) القرطبي " الجامع لأحكام القرآن " (ج٩ / ص١٧٥).

كان مراعاةً لمعنى الجماعة، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ... ﴿١٩﴾ ﴾، وأمَّا حذف التَّاء من ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ فلأنَّ الفعل المسند إلى جمع التَّكسير يجوز تجريده من التَّاء باعتبار الجمع.

فإن قيل: فما دلالة تذكير الفعل أو تأنيثه مع الفاعل إذا كان الفاعل جمع تكسير؟!

فالجواب أنَّ الفعل المجرَّد من التَّاء يدلُّ على القِلَّة، فقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ يدلُّ على قلَّة عدد النِّسوة اللاّتي اغتَبْنَ امرأة العزيز، أمَّا الفعل المقترن بالتَّاء، مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ [الحجرات] فإنَّه يدلُّ على الكثرة، فالأعراب كُثُر، والله تعالى أعلم.

امرأة العزيز تقِيمُ الحُجَّةَ على النِّسْوة

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ ﴾ امرأةُ العزيز ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾[1] أي بعيبهنَّ إيَّاها واحتيالهنَّ في ذمِّها، وقد استُعِيرَ المكر للغِيبة لشبهها له في الخَفاء ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهنَّ ضيوفاً عندها، ذريعة وحجَّة لتجمعَهنَّ بيُوسُفَ لينْظُرْنَ حُسْنَه وبهاءَه، فتقيم الحجَّة عليهنَّ، ويعذرنها، ولا يعُدْنَ ينتقدنها.

وقبلْنَ الدَّعوة، وهيَّأت امرأةُ العزيز ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾[2] وفي الكلام محذوف تقديره: فلمَّا أتين قدَّمَتْ لهنَّ الثِّمار وأنواع الأطعمة ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ تعالج به الثِّمار أو الطَّعام، وبينما هنَّ منشغلات جاءَت يُوسُفَ ﴿ وَقَالَتِ

---

(١) المكرُ من العبد غشٌّ وخديعة واحتيال، ومن الله تعالى بطش وانتقام، قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النَّمل]

(٢) المتكأ: ما اتكأت عليه لشراب، أو حديث، أو طعام.

ﭐﻟﺨۡﺮُﺝۡ ﻋَﻠَﻴۡﻬِﻦَّۖ ﴾ فسَمِعَ كلامها بموجب منزلته من منزلتها، وربَّما كان ـ عليه السلام ـ لا يعلم عن تدبيراتها وترتيباتها هذه، فطَلَعَ عليهنَّ كأنَّه البدرُ في ليلة التَّمام، فقد كان ـ عليه السلام ـ على حظٍّ وافرٍ من الحُسْنِ وجمال الرُّجولةِ.

﴿ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ ﴾ وأجللنه، وبُهِتْنَ لطلعته، وهالهنَّ أمره، وذُهِلْن لجماله، ولشغلهنَّ به فقدْنَ المشاعر والأحاسيس والمدارك، واختلطت عليهن الأمور، ولم يفرِّقْن بين أيديهن وما بها ﴿ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ ﴾ استعارة تصريحيَّة، فقد استعار لفظ القطع عن الجرح، أي جرَّحنها بما في أيديهن من السَّكاكين، وصِرْنَ مخضوباتِ البَنَان وهنَّ لا يشعرن ولا يدرين.

﴿ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ كلمةُ تنزيه عبَّرْنَ فيها عن الدَّهشة البالغة من عظمة صنع الله تعالى ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ وهو من باب المغالاة والمبالغة، فقد كان بشراً ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١ ﴾ ولم يكن ملكاً، وإنَّما هو وَصْفُ مدح؛ لأنَّ الملائكة موصوفة بالجمال والطَّهارة بخلاف الشَّياطين الموصوفة بالقبح والنَّجاسة، وقد ركز ذلك في الأذهان، وإن كان لم يرهما أحد.

وفي هذه التَّعبيرات إشارة إلى وجود بقايا من دين الله تعالى، دين التَّوحيد الَّذي جَاءَ به الرُّسُلُ جميعاً.

فلمَّا طوَّقت امرأةُ العزيز مكرَهنَّ وانتصرت عليهنَّ ﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ ﴾ فانظرن ماذا أصابكن من رؤيته ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾ وامتنع وتحفَّظ تحفُّظاً شديداً كأنَّ فيه عصمة، وهذا اعتراف صريح منها على براءة يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ وعلى ما في نفسِها من الهوى له.

ثمّ قالت أمام الملأ مُهَدِّدة متوعِّدة ﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ ﴾ به فيما سيأتي

﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الأذلّاء، ولم تعد تخشى لوْمَةَ لائم ولا مَقِيلَةَ قائِل، ونَسِيَتْ أنَّ زلَّة اللِّسان عَثْرةٌ لا تُقَال!

يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ في السَّماء الثالثة ليلة المعراج وقد أوتي شطر الحسن

روى مسلم عن أنس بن مالك في حديث الإسراء أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: "... ثمَّ عرج بي إلى السَّماء الثَّالثة، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فقيل: مَنْ أنتَ؟ قال: جبريل. قِيل: ومَنْ معك؟ قال: محمَّدٌ ـ ﷺ ـ. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه؛ فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بيُوسُفَ ـ ﷺ ـ، إذا هو قد أُعْطِي شَطْرَ الحُسْنِ، فرحَّب ودعا لي بخير..."(١).

في الفَصْل والوَصْل

من أسرار البلاغة وفنونها معْرِفَةُ مواضِعِ الوَصْل والفَصْل في الجمل، والعِلْمُ بِذِكْر العاطِف وتركِه. والوَصَلُ عند علماء المعاني المراد به عطْف جملةٍ على أخرى بحرف العطف الواو فقط، والفَصْل تركه.

وتمييز مواطن الفصل من الوصل في الجمل على ما تقتضيه البلاغة أمر متعذّر غَامِض، لا يعرفه إلَّا الخلَّص من العرب، الَّذين طُبِعوا على البلاغة، وجُبِلوا على الفصاحة، وقد بلغ ببعضهم أنْ جعل معرفةَ الوصل من الفصل حدّاً للبلاغة، وأساساً للفصاحة.

وأهل البلاغة والفصاحة في عهد النَّبِيِّ كانوا أعرف النَّاس بعجزهم أمام القرآن وإعجازه، فإذا وقف هؤلاء عاجزين، فمن بعدهم لا رَيْبَ أَعْجَز؛ لأنَّ معرفة المتقدِّمين بصنعة العربيَّة لا يجاريهم فيها أحد من المتأخِّرين.

ومن المواضع الَّتي يحسن فيها الفصل أن يكون بين الجملتين اتِّحاد تامٌّ، كأن

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م١/ ج٢/ ص٢١٣) كتاب الإيمان.

تكون الجملة الثَّانية بياناً للأولى، أو توكيداً لها، ويسمَّى كمال الاتِّصال، نحو قوله تعالى حكاية عن النِّسوة: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ ففي الجملة الأولى ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ نوع من الخفاء، فَفُصِلَت الجملةُ الثَّانية ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ لأنَّها بيان لما قبلها، ولأنَّها مؤكِّدة أيضاً للجملة الأولى في نفي البشريَّة.

ومن المواضع الَّتي يحسن فيها الفصل أن تقع الجملة الثَّانية جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى، ويسمَّى شبه كمال الاتِّصال، نحو قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ...﴿٥٣﴾﴾ فقد فُصِلَت جملة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ عن جملة ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ﴾ لأنَّ الثَّانية جواب عن سؤال يفهم من الأولى، فقوله: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ﴾ أوجد سؤالاً: لم لا تبرِّئين نفْسَكِ؟ فجاءت الجملة الثَّانية جواباً ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

والجواب ـ كما هو معلوم ـ شديد الارتباط بالسُّؤال، ولذلك وقع الفصل في الجملة الثَّانية لقوَّة ارتباطها المعنوي بالجملة الأولى.

تجاهل العارِف

تجاهل العارف ومزج الشَّكِّ باليقين فنٌّ من فنون البديع: وهو سُؤَال المتكلِّم عمَّا يعلمه حقيقةً تجاهلاً منه لنكتة، وهو على قسمين: منفيّ وموجب، وقد جاء منه في سورة يُوسُفَ ما لا يُلْحَقُ سَبْقاً، فمن القسم المنفي جاء قوله تعالى حكاية عن نسوة المدينة: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ مبالغة في تأكيد المدح، فخرج الكلام بمعنى بليغ ولفظ فصيح لم يقع في فصاحة العرب، فقد كانوا يشبِّهون كلَّ من راعهم حُسْنُهُ وجماله بالجنِّ.

وممَّا ورد في القرآن الكريم من القسم الثَّاني الموجب (المثبت)، قوله تعالى:

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء] وهذا خارج مخرج التَّقرير، وشبيه به قوله حكاية عن إخوة يُوسُفَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴿٩٠﴾﴾ فهذا الكلام خرج مخرج التَّقرير والتَّعجُّب.

دعوى الزِّيادة في القرآن

القول بالزِّيادة في القرآن الكريم دعوى باطلة، فمن ذلك قولهم: الباء زائدة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ...﴿٣١﴾﴾ قالوا: فالتَّقدير: فلمَّا سمعت مكرَهنَّ.

ولعلَّهم نظروا إلى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ... ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران] وفهموا أنَّ هذا الفعل (سَمِعَ) يتعدَّى بنفسه إلى المفعول به دون حرف جر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا...﴿١﴾﴾ [المجادلة]وقوله: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ ... ﴿١٤٠﴾﴾ [النِّساء] وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ... ﴿١٦﴾﴾ [النّور]

ولا يخفى أنَّ السَّماع في هذه الآيات كلِّها كان فيها مباشراً دون وساطة، أمَّا قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ...﴿٣١﴾﴾ فإنَّ امرأة العزيز لم تسمع مكرهنَّ مباشرة، وإنَّما علمت به، فلو كانت الآية: فلمَّا سمعت مكرهنَّ، بإسقاط حرف الجرّ، فهذا يعني أنَّ امرأة العزيز كانت معهنَّ، وهذا ما لم تقرِّره الآية، ثمَّ إنَّ المكر لا يسمع، فناسب دخول حرف الجرّ لإصابة المعنى بدقَّة.

ومن الجدير علمه أنَّ الكلمة الَّتي يقول عنها النُّحاة زائدة، لا يراد بها أنَّها زائدة في النَّظم، ومن ذهب إلى أنَّها زائدة في النَّظم، وأنَّ وجودها وحذفها سواء، وأنَّها لا تخدم المعنى ولا الإعراب، فقد أعظم على الله الفرية! فما من كلمة في القرآن إلَّا ولها وجه يخطر في البلاغة، ويتَّجه في الفصاحة، وما من حرف إلَّا فيه ما يشوق وما

يروق، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ... ﴿٩٦﴾ ﴾ فجيء بلفظة ﴿أَن﴾ مؤكِّدة للمَّا أو صلة لها، وهي عند النُّحاة زائدة لوقوعها بعد (لَمَّا) الوقتيَّة.

ولعلَّ الَّذين أطلقوا القول في زيادتها نظروا إلى أنَّ القرآن لم يأت بها على الأصل من الحذف، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحجر]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ...﴿٨٠﴾ ﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ...﴿٦٦﴾ ﴾ [هود].

والصَّواب أنَّ ما وضع للتَّأكيد لا يسمَّى زائداً، ولعلَّها لم تحذف لأنّ مجيء البشير إلى يعقوب جاء بعد أن طال على يعقوب عليه السلام البعد والحزن، فناسب مجيء ﴿أَن﴾ لما في مقتضى وصفها من الإبطاء والتَّراخي، ولما لها من أثر في الدَّلالة على تراخي الزَّمن، أو أنَّها جاءت لتشعر بطيٍّ بعض الكلام، واختصار بعض الحقائق، وهذه دقائق لا تتأتَّى لكثير من النُّحاة.



القسم الرَّابع

يُوسُفُ في السِّجن

مُناجاةُ يُوسُفَ لربِّه

فلمَّا سَمِعَ يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ تهديدَ امرأة العزيز ووعيدَها، وعَلِمَ عزْمَها وإصرارَها، تكلَّم بعد أن ظلَّ صامتاً طَوَال الوقتِ؛ فلا ينبغي له أن يتبسَّط في الحديث معهنَّ، والصَّمتُ يَرْفَعُ شأنَ صاحبه، وخَيْرُ الخِلال حِفْظُ اللِّسان، والعاقل مَنْ يتكلَّمُ عند الضَّرورة، فَلاذَ إلى ربِّهِ وناجاهُ في خُشُوعٍ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ[1] أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ[2] إِلَيْهِ ﴾ وقد اختار السِّجنَ مع أنَّه شرٌّ، ولكنَّه شرٌّ أهونُ من شرِّ الزِّنا الَّذي قال فيه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء].

ثمَّ فزع إلى لطائِفِ رحمة الله تعالى: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ ﴾ أي إن لم تدركني برحمتك ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أَمِل إليهِنَّ، وهو من باب الشَّرط والمجازاة ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ وهذا على وجه عدم الاغترار بعصمته ـ عليه السلام ـ، ومن باب هَضْمِ النَّفس، وعلى سبيل الإقرار بأنَّه ﴿ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشُّورى] ومن باب الثَّناء على الله تعالى والتَّضرُّعِ والاستغاثة بجنابه ـ تبارك وتعالى ـ، وهو من أدبِ دُعاء الأنبياء والصَّالحين.

---

(١) لم يَرِدْ ذِكرُ لفظ السِّجن في القرآن الكريم باستثناء سورة يوسف إلَّا على لسان فرعون، وهو يتوعَّدُ موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشُّعراء].

(٢) عبَّر ـ عليه السلام ـ بصيغة الجمع سَتْراً على سيِّدته، أو أنَّهنَّ مشتركات في الجُرم، والله تعالى أعلم.

بناء أفْعَل في التَفْضِيل لِلْمُشْتَرِكَيْنِ في الشَيْءِ، وقوله: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾

من المعلوم أنَّ اسم التَّفضيل: صفة تؤخذُ من الفعل للدَّلالة على أنَّ شيئين اشتركا في صفة معيَّنة، وزاد أحدهما على الآخر فيها. وله أركان ثلاثة: اسم التَّفضيل، والمفضَّل، والمفضَّل عليه.

واسم التَّفضيل في قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ... ﴿٣٣﴾﴾ هو أحبّ، والمفضَّل: السّجن، والمفضَّل عليه: ما يدعونه إليه.

ولكن لا يفهم من قوله أنَّ المفضَّل والمفضَّل عليه اشتركا في صفة الحبِّ، فلم يكن المدعُوُّ إليه حبيباً إلى نفس يُوسُفَ البتَّة، ولكنَّه مثل قول القائل: الجنَّة أحبّ إليَّ من النَّار، والإسلام أحبّ إليّ من سائر الأديان.

وهذا يطْمِسُ وجوه الَّذين قالوا ما قالوا في يُوسُفَ، ونسبوا إليه ما لا يليق به ـ عليه السلام ـ، فيُوسُفُ ما أحبَّ ما يدعونه إليه، وما همَّ من قبل بشيء؛ فالهمُّ ما تمَّ لأنَّ برهان ربِّه من ثَمَّ كما تقرَّرَ، فما لهؤلاء القوم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف]

سرُّ قراءة لفظ ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ بوجوه في موضع، وقراءته بوجه واحد في المواضع الأخرى

قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ... ﴿٣٣﴾﴾ قرأ يعقوب: (السَّجن) بفتح السِّين، على أنَّه مصْدر، أريد به الحبس. وقرأ الباقون: ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ بكسر السِّين على أنَّ المراد به المكان.

وقد اتَّفق القرَّاءُ على كَسْرِ السِّين من ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ في المواضع الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ... ﴿٣٦﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾، وقوله تعالى:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ ... ﴿٤١﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ... ﴿١٠٠﴾ ﴾.

فما سرُّ قراءة لفظ ﴿ ٱلسِّجْنُ ﴾ بفتح السِّين وكسرها في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ والاتِّفاق على كسرها في بقيَّة المواضع؟!

والأمر جليٌّ، فمن قرأ (السَّجن) بالفتح أراد (المصدر) سَجَنَهُ يَسْجُنُه سَجْناً، ومن قرأ (السِّجن) بالكسر أراد (المحْبِس) أي المكان الَّذي يُسْجَنُ فيه، ويلاحظ أنَّ الآيات الَّتي اتَّفق القُرَّاء على كسر السِّين من ﴿ ٱلسِّجْنُ ﴾ فيها يراد بها (المحْبِس) أي المكان ولا يصحُّ إرادة المصدر، بخلاف الموضع الأوَّل، فإرادة المصدر بيِّنة، فمن فتح السِّين فهو مصدر سَجَنَهُ سَجْناً، ومن كَسَرَ السِّين فهو المَحْبِس وهو اسم، وهذا يكشف عن دقَّة القراءات المتواترة وأحكامها وإحكامها، ويكشف عن أسرار اللّغة العربيَّة في اتِّفاق المباني وافتراق المعاني، فهناك فرق بين استخدام الاسم واستخدام المصدر.

تقْرِيرُ سجْن يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ

ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر]، وقوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ... ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة] استجاب الله تعالى دُعَاءَ يُوسَفَ ونجَّاه من كيدهنَّ ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وبعد أنْ مضت فترة من الزَّمن، ورأوا الآياتِ الدَّالة على براءة يُوسُفَ، ظَهَرَ للعزيز وأهلِه ومَنْ استشارَهم أنَّ المصلحةَ تقضي بسجن يُوسُفَ .

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي إلى مدَّةٍ من الزَّمن غير معلومة، وذلك حتَّى يتستَّر العزيزُ على امرأته، وينفي التُّهمة عنها، ويحفظ سمعتها، ويفرِّق بينها وبين يوسف.

وهكذا تقرَّر سجنُ يُوسُفَ بقرار جائر؛ بالقوَّة لا بالحق، وبلا إقامة دعوى ولا سَابِق جُرْم.

إعْرَابُ ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ (لَ يَ سْ جُ نُ وْ نَ نْ نَ هُ)

أصلُ هذا الفعل (يَسْجُنُونَ، نَّ) فاجتمعت ثلاثُ نونات: نون الفعل الَّتي هي علامة الإعراب في الأفعال الخمسة، ونون التَّوكيد الثَّقِيلة التي هي نونان، فحذفت نون الفعل للتَّخفيف، فالتقى ساكنان: واو الجماعة، والنون الأولى من نون التَّوكيد، فحذفت الواو لدلالة الضمَّة السَّابقة عليها، فصار (يَسْجُنَّ).

ونقول في إعرابه ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾:

(اللام): الموطِّئة للقسم.

و (يَسْجُنُنَّه): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لالتقاء الأمثال (اجتماع ثلاث نونات).

و (واو الجماعة المحذوفة للالتقاء الساكنين): فاعل مبني على السكون في محل رفع.

و(النون): حرف توكيد مبنيٌّ على الفتح لا محلَّ له من الإعراب.

و(الهاء): ضمير الغائب، ضمير متَّصل مبنيٌّ على الضمِّ في محلِّ نصب مفعول به.

و جملة ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾: فاعل[1] للفعل (بدا)، أي بدا لهم أن يسجنوه.

تجاور نوني التوكيد الثقيلة والخفيفة في آية من سُورة يُوسُفَ

نون التَّوكيد قسمان: ثقيلة، وخفيفة. وقد وقع التَّوكيد بالثَّقيلة في القرآن غير مرَّة، أمَّا التَّوكيد بالخفيفة فلم يرد في القرآن إلَّا في موضعين: الأوَّل في قوله تعالى: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ [العلق] والثَّاني في قوله تعالى: ﴿وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف].

ومن لطائف البيان القرآني اجتماع نوني التَّوكيد الثَّقيلة والخفيفة في آية من سُورة يُوسُفَ، فقد جمعها قوله تعالى: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف] والآية تتحدث عن تهديد امرأة العزيز ليُوسُفَ بالسّجن والإذلال. ويلاحظ أنَّ النُّون الثَّقيلة أُدخلت على تهديده بالسَّجن، بينما أُدخلت النُّون الخفيفة على تهديده بالإذلال.

والظَّاهر أنَّ الفعل ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ باشرته نون التَّوكيد الثَّقيلة؛ لأنَّ امرأة العزيز عازمة عزماً أكيداً على سجنه، ولعلَّ ما يؤيّد ذلك أنَّ هذا الفعل جاء مؤكَّداً بالثَّقيلة مرَّة ثانية لَّما بدا لهم أنَّ المصلحة تقتضي سجنه؛ إيهاماً لتبرئتها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾.

---

(1) هذا مذهب سيبويه، وخالفه آخرون؛ لأنَّ الفاعل لا يكون جملة، ولا يجوز إسناد الفعل إلى فعل آخر، وقيل: الجملة المؤكَّدة باللّام لا تأتي في موضع فاعل، وإنَّما في موضع مفعول لفعل تقديره (علموا)، لأنَّ في الآية ما هو معناه، فقوله: ﴿بَدَا﴾ أي ظهر للقلب، وما ظهر للقلب فقد عُلِمَ ، وبذلك تكون الجملة المؤكَّدة باللَّام ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ مفعولاً به للفعل علموا ، وفاعل الفعل ﴿بَدَا﴾ هو المجرور من قوله: ﴿لَهُم﴾ وهو فاعل في المعنى، وقيل: الفاعل ما دلَّ عليه بدا، وهو المصدر، أي بدا لهم بَدَاءٌ، فحذف الفاعل لأنَّ الفعل يدلُّ عليه، وقيل: الفاعل مضمر، وتقديره: رأي، أي بدا لهم رأيٌ، وحذف الفاعل لدلالة ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ عليه، وقيل غير ذلك

أمَّا تهديدها ووعيدها له بالإذلال فيبدو أنَّه كلام خارج من اللِّسان ولم يقصده القلب ببرهان، ولذلك نراها لم تؤكِّد تقرير الإذلال بالنُّون الثَّقيلة، واكتفت بالخفيفة.

الأسبابُ الَّتي أدَّت إلى سجْنِ يُوسُفَ

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ قد يسأل سائل: ما الآيات الَّتي بدت لهم، حتَّى يسجنوا يُوسُفَ عليه السلام؟!

والجواب: أنَّهم قرَّروا سجنه بعدما رأوا الآيات القاطعة ببراءته عليه السلام ممَّا قذفته به ، والقاضية بعفَّته، ومن تلك الآيات قدُّ القميص من دبرٍ وعدم تفنيدها لهذا الدَّليل، وسكوتها حينما سمعت قول العزيز: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾، وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾، وحين أباحت سرَّها للنِّسوة: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ فمن لم يكسه الحياءُ ثوبَه يرى النَّاس عيبَه، وما كانَ يظْهرُ على وجهها ممَّا تضمِرُه ليُوسُفَ من حبٍّ، فما أضْمَرَ أحدٌ شيئاً إلَّا ظهر في فلتات لسانه، ولحن قوله، وصفحاتِ وجهِه، قال زهير:

ومهما تكُنْ عِنْدَ امرئ من خَلِيْقَـةٍ ... وإنْ خَالها تخْفى علـى النَّاسِ تُعْلَـمِ[1]

ولذلك قرَّروا سجنَ يُوسُفَ؛ إيهاماً أنَّه هو المذنب؛ دفعاً لمعرَّة التُّهمة عنها، وسعياً في إرخاء السَّتر عليها، وقَطْع قَالة النَّاس عنها، ولهذا لَّما طلبه ملك مصر، امتنع من الخروج حتى تظهر براءَتُه مما نُسِبَ إليه، فلمَّا تقرَّر ذلك خرج طَاهرَ الثَّوب، حَسَنَ النَّقيبة، كريم الخَلِيقة.

---

(١) الشّنقيطي: " شرح المعلَّقات العشر " (ص١٠٣).

رؤيا الفتيين

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ ﴾ أُدْخِلَ يُوسُفُ السِّجْن، واتَّفق أنْ دَخَلَ معه عبدان من خَدِمِ المَلِكِ الخواصِّ هما: ساقيه، وخبَّازه.

ويختصرُ السِّياقُ على ما كان من أمر الفتيين مع يُوسُفَ اللَّذين أَنِسَا إليه لما ظَهَرَ من علمه وإحسانه، فذات ليلة اتَّفق أن رأى فيها كلٌّ منهما رؤيا، فقصَّ كلٌّ منهما رُؤياه على يُوسُفَ، لما علما عنه من عِلمٍ وحكمة، ولما يتوسمانه فيه من خير، ولما قرأا في صَفَحَاتِ وجهه من إِحسان.

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾ وعبَّر بالمضارع لاستحضار الصُّور الماضية، أي إنِّي رأيتُ نفسي أعصر عنباً يَؤُول إلى خمر، وهو مجاز مرسل باعتبار ما يكون.

﴿ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ ﴾ أي رأيت أنِّي أحملُ على رأسي طبقاً فيه خبز، والطَّير تأكلُ منه ﴿ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ ﴾.

واغتنم يُوسُفُ هذه الفرصة، فوعظ الفتيين؛ ليُصَحِّحَ العقائِدَ الفاسِدةَ، ويبثَّ عقيدةَ التَّوحيدِ، وكان من الممكن بعد أن مدحاه بقولهما: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ ﴾ أن يأخُذَه الزَّهو بتلك الشَّهادة منهما كما يأخذ الزَّهو البعض، وأنْ يقولَ لهما ما يريدان، لكنَّه لم يسمح للغرور أن يتسلَّل إليه، فانتهز حاجتهما إليه، ودعاهما إلى ما هو أولى ممَّا استفتياه فيه، وهو التَّوحيد.

وشرع عليه السلام معهما في الموضوع الَّذي يشْغَلُهما، فطمأنهما ابتداءً إلى أنَّه سيعبِّرُ لهما الرُّؤى لأنَّه على علمٍ من ربِّه لا من علوم الكهانة والتَّنجيم، بل هو فضلٌ إلهيٌّ آتاه الله تعالى إيَّاه جزاءَ تجرُّدِهِ وآبائه من قبله لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿قال﴾ ـ عليه السلام ـ بلسان يبعثُ الثِّقةَ والطُّمأنينةَ في النُّفوس: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا﴾ ولا يحمل إليكما ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ وأخبرتكما بحقيقته وماهيته ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ تأويله، وقبل أن يصل إليكما ويقع مصداقه. ونراه لم يُسْرِع في الإجابة؛ وكأنَّه يريد أن يُثْبِتَ لهما كفاءته ـ عليه السلام ـ، فقدَّم ما هو معجز من الإخبار عن الغيب ليهديهما إلى صدقه في دعوته لهما إلى التَّوحيد.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ تبارك وتعالى، وفي هذا تعريضٌ وتلميحٌ إلى طلب الإيمان منهما، ونفيٌ للفضل عن نفسِه، وعدم ادِّعاء الفقه ولا الخصوصيَّة، وفيه ردٌّ للفضل لصاحب الفضل، وفيه تأنيس لهما، وتحبُّب إليهما، وهذا من أدب الأنبياء والصَّالحين.

يُوسُفُ يُمَهِّدُ للدَّعوة إلى التوحيد

وافْتَرَصَ ـ عليه السلام ـ الفرصة، فوعظهما تمهيداً لدعوتهما للتَّوحيد، قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فهذا العلم الَّذي وهبني تعالى إيَّاه كان ثواباً على تركي ملَّة من لا يؤمنون بالله تعالى ولا بيوم الحساب، واتِّباعي ملَّة آبائي الأنبياء الموحِّدين.

والترك هنا بمعنى الامتناع دون سابق مزاولة لا تركاً بعد الملابسة، ويؤكِّد هذا قوله الآتي: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وإنَّما عبَّر بهذه الكلمة ﴿تَرَكْتُ﴾ تحريضاً لهما لأن يتركا تلك الملَّة التي هم عليها، ولتقوى رغبتهما في سماعه واتِّباع ملَّته.

وقد نبَّه ـ عليه السلام ـ في كلامه إلى أصلين عظيمين: الإيمان بالله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، إذ هما أعظم أركان الإيمان السِّتَّة الَّتي يدلُّ عليها قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

ﭐلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ... ﴿١٧٧﴾ ﴾[البقرة] وقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر]

وذِكْرُ الآخرة على لِسَان يُوسُفَ فيه إشارة إلى أنَّ الإيمان بالآخرة كان أصلاً من أصول العقيدة على لِسَانِ الرُّسلِ جميعاً منذ آدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ، ولم يكن الأمر كما يدَّعي بعضُ الملاحدة أنَّ تصوُّر الآخرة جاء إلى العقيدة متأخِّراً.

ثمَّ مضى ـ عليه السلام ـ يؤكِّدُ لهما أنَّه ما فاز بما فاز إلَّا لأنَّه ترك ملَّة أولئك الجاحدين واتَّبع ملَّة آبائه الموحِّدين: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ ﴾.

وغنيٌّ عن البيان أنَّه ما قَصَدَ بذكر سلسلة نَسَبِهِ الفَخَارَ والتَّرفُّعَ والمفاخرة، ففضل الإنسان بعلمه وعمله لا بنسبه وحسبه، لذلك يقول عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ:

النَّـاسُ مِـنْ جِهَـةِ الآباءِ أَكْفـاءُ ... أَبـوهُـمُ آدَمُ والأمُّ حَـوَّاءُ

فإنْ يَكُنْ لهم مِـنْ أصْلِهِم شَـرَفٌ ... يُفاخِـرونَ بِـهِ فالطِّـينُ والمَـاءُ

مَـا الفَضْـلُ إلَّا لأهل العِلْم إنَّـهُمُ ... عَـلى الهُـدى لِمَن استهدى أدلَّاءُ

وقَـدْرُ كُلِّ امـرئ مَـا كان يُحْسِنُهُ ... وللـرِّجَـال عَـلى الأفعـال أسماءُ

فَفُزْ بِعِلْـمٍ ولا تطْلُـبْ به بـدلاً ... فـالنَّـاسُ مَوتَى وأهلُ العِلْمِ أحْيَاءُ

فليحذر العاقل خصلة استهان النَّاس بها، مع أنَّها تزرع في النُّفوس كرهاً، وتقدح في الصُّدور بغضاً، وتعقب في القلوب غلَّاً، والشَّرائع السماويَّة كلُّها تدعو لِطَمْسِها، وهي التَّعاظم بالآباء والتَّفاخر بالأنساب، وإنَّما ذكر لهم أنَّه من بيت النُّبوَّة لتزداد ثقتهُما بكلامه، وعلى سبيل إظهار النِّعمة، ثم أنَّه لم يخصَّ نفسَه ولا بيتَه بفضل كما يفصح عنه قوله الآتي: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

وهكذا تتجلَّى الوحدة الموضوعيَّة في سُورة يُوسُفَ، ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ فهي تربط بين رسالات الأنبياء، فالأنبياء جميعاً جاؤوا برسالة واحدة، وهي التَّوحيد، ونبذ الشِّرك.

محسِّنات بديعيَّة في بعض آية

قوله تعالى حكاية عن يُوسُفَ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ ﴾ فيه أنواع من المحسِّنات البديعيَّة، حسبنا منها خمسة: الاحتراس، والإدماج، وحسن النَّسق، والتَّنكيت، والمساواة.

الأوَّل: الاحتراس: فقد قال: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ ﴾ وما اقتصر؛ لأنَّه لو اقتصر على هذا المعنى لأفاد العموم ومطلق الآباء من يعقوب إلى آدم، وفيهم من لا يجب اتِّباع ملَّته، لكنَّه جاء ببدل التَّقسيم: ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ ﴾ من باب الاحتراس؛ ليزيل ذلك الوهم، فحصل الاحتراس بالبدل، وأزال عن المبدل منه ما قد يتوجَّه إليه من احتمال لو اقتصر عليه.

الثَّاني: الإدماج: فقد أدمج الاحتراس في لفظ التَّقسيم، فالاحتراس لم يظهر، ولم يُلْفَظْ به، وإنَّما أُدْمِجَ في البَدَل.

الثَّالث: حسن النَّسق: إذ عطف الآباء على ترتيبهم في الميلاد بواو النَّسق، وذكرهم من الأعلى إلى الأدنى، دون تقديم أو تأخير.

الرَّابع: التَّنكيت: فقد رتَّب الآباء التَّرتيب الَّذي تقتضيه البلاغة، فلم يبدأ من الأدنى الَّذي جاء من صلبه وهو يعقوب، إلى الأعلى فالأعلى، وإنَّما عكس عامداً متعمِّداً؛ لنكتة بلاغيَّة، وهي أنَّه يريدُ إظهار الملَّة الحنيفيَّة الَّتي يتَّبعها، فابتدأ بإبراهيم لأنَّه هو الَّذي ابتدأ الملَّة المتَّبعة.

الخامس: المساواة: فقد جاءت الألفاظ مساوية للمعنى، بحيث لم تزد عليه ولم تنقص، ولم تَفْضُل ولم تَقْصُر، فالقرآن فيه بلاغة لا تبارى، وبيان لا يجارى.

لواءُ التوحيد حمله الأنبياءُ جميعاً

ويتَّضحُ من قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ نفي لجواز الشِّرك[1] في الرُّبوبيَّة أو الألوهيَّة، وإثبات لوجوب التَّوحيد، قال تعالى لنبيِّنا محمَّد ـ ﷺ ـ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّخرف].

فكلمة لا إله إلا الله هي اللِّواء الَّذي عمل الأنبياءُ جميعاً لرفعه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

ولا إله إلا الله هي الرَّاية التي عاش في ظلِّها الأنبياء والمرسلون، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النَّحل] فدين التَّوحيد هو الدِّين الخالص الَّذي جاء به الأنبياء جميعاً؛ لعموم قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران]، وقد جاءتْ الجملةُ معرَّفة الطَّرفين للدِّلالة على الحصر والقصر، أي: لا شرع ولا دين إلَّا الإسلام، وكلامه تعالى لا يقبل النَّقض ولا المداولة ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران] لأنَّه دينُ التوحيد الحقّ.

والإسلام ليس هو دين النَّبيِّ ـ ﷺ ـ خاصَّة، بل هو دين الأنبياء والرُّسل من

---

(١) الشِّرك في الألوهيَّة: أن يُعْبَدَ مع الله إله آخر، أمَّا الشِّرك في الربوبيّة: فأن يطاع غير الله في أمرٍ ونهي وتشريع وتحليل وتحريم.

قبله عامَّة، فحرَّفه أتباعُهم، ثمَّ أنزله الله تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين سيِّدنا محمَّد ـ ﷺ ـ لتوحيد العقائد، لا لتفريق القواعد؛ ولذلك جُعِلت قاعدتُه الثَّابتة الإيمان بسائر رسل الله تعالى وكتبه، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ...﴿٤٨﴾ ﴾[المائدة] أي: مصدِّقاً للكتب السَّماويَّة الَّتي سبقته، ومؤتمناً وشاهداً عليها أنَّها من عنده سبحانه.

فالإسلام ليس بدين جديد، الإسلام قديم، الإسلام دين الأنبياء والرُّسل الأقدمين أجمعين، قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...﴿١٣﴾ ﴾ [الشُّورى].

فنوح ـ عليه السلام ـ كانَ مُسْلماً موحِّداً، قال: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس] وإبراهيم ـ عليه السلام ـ كان مسلماً: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾[البقرة].

ولوطٌ ـ عليه السلام ـ جاء بالإسلام، فالله تعالى حين أراد إهلاك قومه الَّذين ارتكبوا الفواحش، قال: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الذَّاريات] هو بيت لوط ـ عليه السلام ـ.

ووصَّى إبراهيمُ ويعقوبُ ـ عليهما السَّلام ـ أبناءَهما بالإسلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[البقرة].

ولَمَّا حَضَرَ يعقوبَ الموتُ ﴿ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

وكانتْ طُلْبةُ يوسف الأخيرة من ربِّه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

وموسى ـ عليه السلام ـ كان مسلماً، فالسَّحرة الَّذين اتَّبعوه وآمنوا ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف] قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ... ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة] .

وسليمان ـ عليه السلام ـ كان مسلماً، فعلى لسان بلقيس: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النَّمل] وعلى لسانه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النَّمل].

وعيسى ـ عليه السلام ـ كان مسلماً ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة]، فالمسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ما جاء ليُنكِّسَ لواءَ التَّوحيد، بل ليرفعَه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة] ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: " أَنَا

أَوْلَى[1] النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ[2]، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ "[3] فأَصْل دِينهمْ وَاحِد، وَهُوَ التَّوْحِيد، الَّذي بعث الله به كلَّ نبيٍّ مرسل، وضمَّنه كلَّ كتابٍ منزل، وَإِنْ اختلفت فُرُوع الشَّرَائِع.

وسيِّدنا محمَّد ـ ﷺ ـ أُمِرَ بالإِسْلام: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[النَّمل]

فدين الأنبياء واحد، اتَّفقوا في الأصول والعقيدة، لكن اختلفوا في الشَّرائع والمنهاج حتَّى يناسب كلّ أمَّة، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة].

واعلم أنَّ رسالة النَّبيِّ ـ ﷺ ـ تختصُّ عن الرِّسالات السَّابقة بخصائص، منها: أنَّها خاتمة للرِّسالات السَّابقة، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ...﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب] وأنَّها رسالة عامَّة، فقد بُعِثَ ـ ﷺ ـ إلى كافَّة الورى، وعامَّة الجنِّ، ويدلّ على بعثته إلى النَّاس كافَّة، قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ...﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف] ويدلّ على بعثته إلى عموم الجنِّ، قوله تعالى حكاية عن الجنّ: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ

---

(١) النَّبيُّ ـ ﷺ ـ أولى النَّاس بابن مريم، لقرب العهد منه، ولأنَّه بشَّر به، كذلك هو أولى النَّاس بإبراهيم ـ عليه السلام ـ من جهة الاقتداء به، وكونه من ذريَّته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ... ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران].

(٢) يقول العرب: هم إخوة لعلاَّت إذا كان أبوهم واحد، وأمهاتهم مختلفاتٍ.

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٤٢) كتاب أحاديث الأنبياء.

بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف].

ومن الخصائص أنَّ رسالته ـ ﷺ ـ ناسخة للرِّسالات السَّابقة: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران] وقال ـ ﷺ ـ : " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ[1]، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ "[2] وهذا واضح في نسخ الملل والشَّرائع كلِّها برسالته ـ ﷺ ـ، فلا يجوز لأحد من الثَّقلين أن يتابع أحداً من الرُّسل السَّابقين بعد بعثته ـ ﷺ ـ.

دَعوةُ يُوسُفَ إلى التوحيد

وقول يُوسُفَ: ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ أسلوب نفي من أساليب النَّفي الرَّفيعة المستوى الَّتي تفيد النَّهي والنُّصح والإرشاد معاً، فقد أراد ـ عليه السلام ـ بقوله هذا أن ينهى الفتيين عن الشِّرك، وأن يغمزَ قناتهما بأنَّ الشِّرك الَّذي هما عليه خَطْبٌ جسيمٌ وأمرٌ جللٌ وَجَبَ عليهما تركُه، والمعنى لا ينبغي لنا نحنُ معْشَرَ الأنبياء أن نشركَ بالله تعالى شيئاً؛ فالشِّركُ ظلمٌ عظيمٌ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ... ﴿١١٦﴾ ﴾ [النِّساء]

ثـمَّ قَالَ: ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ بأن جعلنا رُسُلاً موحِّدين ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ بأن بعث لهم رُسُلاً يدعونهم إلى التَّوحيد ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ فَضْلَ الله تعالى عليهم بتوحيده، فيشركون به غيره.

وبكلِّ حكمة وبراعة يدخلُ يُوسُفُ إلى صميم القضيَّة الإيمانية، فيعرض عليهما

---

(١) اختصَّهم ـ ﷺ ـ بالذِّكر لأنَّ لهم كتاباً، فإذا كان هذا حال من معه كتاب، فمن لا كتاب معه أولى.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م١/ ج١/ ص١٨٦) كتاب الإيمان.

التَّوحيد بصورة الاستفهام؛ حتَّى لا تأخذهما المفاجأةُ بإبطال ما وجدا عليه آباءَهما مــن قبل فينفرا منه، فقال لهما متلطِّفاً مترفِّقاً متحبِّباً:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ﴾ في ﴿ ٱلسِّجۡنِ ﴾ أجيباني على سؤالي بفطرتكما وعقلكما ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ أي آلهةٌ متعدِّدة متكثِّرة مقهورةٌ لا إرادة لها ﴿ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ﴾ الَّذي لا ثاني له ﴿ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ ﴾ الغالب على أمره.

فتعدُّد الآلهة يوجب فساد السَّموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ ﴾ [الأنبياء] ويوجب الاختلاف والتَّنازع والتّشاحن، كما قال تعالى: ﴿ فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ... ٢٩ ﴾ [الزّمر].

ونراه أورد الدَّليل على عدم صحَّة عبادتهما بصورة الاستفهام ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾؛ لأنَّ ذلك أدعى للقبول، وهو استفهام إنكاري يراد به التَّقريع والتَّوبيخ.

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ تبارك وتعالى أنتما ومَنْ على دينكما من أهل مِصْر القُدماء ﴿ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ ﴾ فارغة ليست تحتها مسمَّيات تستحقُّ إطلاق هذه الأسماء عليها، وما ليس فيه حقيقةُ إطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلاً. ويلاحظ أنَّه جاء بخطاب الجمع ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ وكذلك ما بعده من الضَّمائر لأنَّ الخطاب لصاحبي السِّجن ومن على دينهما.

﴿ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾ آلهةً من عند أنفسكم، وليس في المسمَّى من الألوهيَّة شيء، وهي في الحقيقة مألوهة مؤلَّهة لا آلهة ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ من بُرهان يدلُّ على صحَّة عبادتها، ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ

صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة] فالمسمَّيات لا تتغيَّرُ بتغيُّر الأسماء، فالحجارة مثلاً لا تصيرُ آلهةً بتغيير اسمها، لذلك لا تستحقُّ الألوهيَّة ولا العبادة؛ لأنَّ الدِّينَ مبنيٌّ على الحجَّة والبرهان، لا على التَّقليد، فهذا ما نطق به القرآن، وهذا ما تدين به العقول، وهذا ما تُسَلِّم له الأفئدة، فأيُّ باطلٍ أخذتم؟! وأيُّ حقٍّ رفضتم؟!

ثمَ نصَّ على ما هو الدِّينُ القويم والحقُّ المبين، فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ولا نحسبهما إلَّا قد ألجما الحجَّة؛ فسكوتهما عن الجواب حُكْمٌ صَامِتٌ بصحَّةِ كلام يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ.

ومن اللَّافت أنَّ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ في شرح التَّوحيد والدَّعوة إلى ترك التَّقليد يكاد لا يسكت ولا يكفُّ، بخلاف موقفه أمام عزيز مصر وتقرير سجنه، فلم يُسْهِب في الكلام فهو ﴿ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [العلق] وأنَّه ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشُّورى] وأنَّ الله يحكم ما يشاء وليس حكمه بالمردود، ولذلك سَلَّمَ الأمْرَ لصاحِب الأمر.

أدبُ الأنبياءِ في الخِطَاب

مما يدلِّل على عِلْمِ يُوسُفَ وحكمته، ويشيرُ إلى إحسانه وأدبه، تحسينُه للجواب وتلطُّفه في الخطاب معهما حيث يلاحظ أنَّه، قال: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ولم يقل: ولكنَّ أكثركم لا تشكرون، وقال: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ﴾ ولم يقل: أيُّها المسجونان، وقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ولم يقل: ولكنَّ أكثركم لا تعلمون؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...﴿١٢٥﴾ ﴾ [النَّحل]، وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ

﴿مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]
فهذا شأن الأنبياء جميعاً، كلُّهم رحمة وأدب وحكمة.

التعريض في سُورة يُوسُفَ

التَّعريض ضدّ التَّصريح، وهو ما أُلْغِز من كلام، وصُرِفَ عن ظاهره، وسِيق لأجل موصوف غير مذكور للتَّلويح به.

ومن أمثلة التَّعريض في سورة يُوسُفَ، قول الله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ... ﴿٣﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ ... ﴿١١١﴾﴾ فذكر الله تعالى أنَّه أَحْسَنُ القَصَصِ، ونفى عنه الافتراءَ؛ تعريضاً بقصص أهل الكتاب الَّتي اشتملت على قصص لا تفرِّق فيها بين الغثِّ والسَّمين، ولا تعرف منها الشّمال من اليمين.

وقد أثبت القرآن الكريم وقوع التَّحريف عندهم، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ... ﴿١٥﴾﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ... ﴿٤٦﴾﴾ [النّساء].

ومن التَّعريض: ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ فقد كَبُرَ على امرأة العزيز أن ترمي يُوسُفَ بهذا الكذب صراحة وهي تعلم طهارته ونزاهته وعفَّته، فاكتفت بالتَّعريض، وفي خفيِّ التَّعريض ما يغني عن شنيع التَّصريح كما يقولون.

ومن التّعريض قوله: ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ فلم يصرِّح لهم يُوسُفُ أنَّهم ليسوا من الشّاكرين، وإنَّما عرَّض لهم بما يحصل منه الفهم، وهو تعريض مُعْرِبٌ عن الأدب.

ومن التَّعريض قوله: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ فلم يصرِّح لهم أنَّهم لا يعلمون وأنَّهم جاهلون، وإنَّما عرَّض بهم أدباً منه ـ عليه السلام ـ.

نتعلَّم من دعْوةِ يوسفَ ـ عليه السلام ـ

كان يُوسُفُ قد خاطب الفتيين بأنَّهما رفيقاه في السِّجن، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ﴾ في ﴿ ٱلسِّجۡنِ ﴾؛ ارتباطاً بهما، ومنه نتعلَّم أنَّه مِن واجب الواعظ نحو الموعوظين أن يتواضعَ لهم، وألَّا يترفَّع عليهم؛ فيصدِّر وعظه بكلمةٍ تنمُّ عن ارتباطه بالموعوظين ـ كما فعل يُوسُفُ ـ كما تقول الوعَّاظُ اليوم: أيُّها الأحبابُ، مَعْشَرَ الإخوة الأعزاء، إخواني أحبابَ رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

فَهُنَاكَ يُقْبلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بِالرَّأْيِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

عندئذٍ يَقْربُ على النَّاسِ قبولُ الوعظ، وقد قيل: "النُّصح علاجٌ مرٌّ، فلْيَصْحَبْهُ شيءٌ من حلو الكلام"، وهذا ما جرى عليه القرآنُ الكريم، والشَّواهدُ كثيرةٌ، منها قوله تعال: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (1) ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ (2) ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ

---

(1) إسرائيل: اسم أعجمي، ومعناه: عبد الله، وهو اسم يعقوب ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ.... ﴿٩٣﴾ ﴾ [آل عمران]

(2) حين قال تعالى: ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ﴾ عمَّ جميع النِّعم فلمَّا عطف ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ ﴾ كان من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة]

أراد الله تعالى أن يأمُرَهم بالتَّقوى، فاستفتح ذلك بتشريفهم بأنَّهم أولادُ يعقوب ـ عليه السلام ـ، ثمَّ بالتَّذكير بنعمه عليهم، وأنَّه تعالى فضَّلهم على عالمي زمانهم.

ونتعلَّم من دعوة يُوسُفَ أنَّ الدَّاعيةَ المصلحَ لا ترتبطُ دعوتُه في زمانٍ ولا مكانٍ ولا في أي حالٍ من الأحوال، من عُسْرٍ أو يُسْرٍ، من سرَّاء أو ضرَّاء؛ فيُوسُفُ دعا إلى الله تعالى وهو في السِّجن، ولم تمنعْه كُرْبةُ السِّجن ولا بهتانُ التُّهمة عن أن يدعو إلى الله تعالى.

فالمحنة لا تَثْنِي المؤمنَ عن واجبه في الدَّعوة إلى الله تعالى، فمع أنَّه في السِّجن، انتهز فرصة تأويل رؤيا السَّجينين، فبادر إلى الدَّعوة إلى التَّوحيد وإلى الله تعالى، فالدِّين أهمُّ من الدُّنيا، فما فائدة أن يكون العبد عالماً بأمر الدُّنيا، جاهلاً بأمر الآخرة؟! فلعلَّ يُوسُفَ عليه السلام نظر إلى ذلك، فهو يعلم أنَّ أحدهما مقبل على الموت ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ...﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال].

وكانت دعوتُهُ دعوةً في أعلى مَرَاتِبِ الأدب، فنراه لم يجرحْ مشاعرَ صاحبيه، ولم ينطقْ ببنْتِ شَفَةٍ، ولم ينبِسْ بكلمة تمسُّ كرامتهما، بل كان حريصاً على مراعاة عواطفهما، ولم يعبْ تلك الآلهة؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام]

ونخرجُ من دعوتِه أيضاً أنَّ الدَّعوة إلى الله تعالى لا تكونُ بالسَّيفِ والسِّنان، وإنَّما بالحجَّة والبرهان، كما نصَّ على ذلك كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا

ٱلْبَلَٰغُ ...﴿٤٨﴾ ﴾ [الشُّورى] وقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرَّعد].

الفرق بين ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ و ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾

(أَنْزَل) فعل ثلاثيٌّ مزيد بهمزة قطع في أوَّله على وزن (أَفْعَل)، و(نزَّل) فعل ثلاثيٌّ مضعَّف مزيد بحرف من جنس عينه على وزن (فعَّل). وهذه الزِّيادة لها غير معنى، فالزَّائد في اللُّغة ـ صرفاً كان أم نحواً ـ ليس وجوده كعدمه، وإنَّما هو اصطلاح صرفيّ أو نحويّ، له وظيفة يؤدِّيها، وغرض يأتي من أجله، ومعنى يدلُّ عليه، فزيادة المباني تدلُّ على زيادة المعاني.

وقد يَرِدُ (أَفْعَل) و (فَعَّل) في تعبير واحد، لكن المعنى يختلف، ومن ذلك قوله تعالى ـ في سُورَةِ يُوسُفَ ـ: ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف] وقوله تعالى ـ في سورة الأعراف ـ: ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف].

والنَّاظر في سياق الآيتين يدرك الفرق بينهما، والفرق بينهما يتلخَّص في أنَّ (فَعَّل) آكد من (أَفْعَل)؛ ففي سورة يُوسُفَ لم يَرُدَّ الفتيان على يُوسُفَ لَمَّا عَرَضَ عليهما التَّوحيد، ولم يجادلاه، قال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف] فجاء الفعل (أنزل) لذلك.

بخلاف ما في الأعراف، فقد ردُّوا على نبيِّهم هود، وجادلوه بالباطل: ﴿ قَالُوٓا۟

أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف] فردَّ عليهم نبيُّ الله هود: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف] فما في الأعراف أشدُّ تعنُّتاً، فجاء الفعل (نزَّل) المشدّد للمبالغة والاهتمام.

فما استخدم فيه (فعَّل) أهمُّ وآكد من (أَفْعَل) وهناك غير شاهد، وغير معنى، ومن هنا نفهم أنَّ الله تعالى جعل كلَّ لفظة في القرآن في مستقرِّها ومستودعها، وليس في القرآن لفظة مقحمة، أو غير مقصودة، فلو نزعت لفظة، ثمَّ بدأت بالمعاجم من ألفها إلى يائها بحثاً عن لفظة تقوم مقامها ما وجدت خيراً منها.

تأويلُ يُوسُفَ رؤيا الفتيين

هذه عِظَةُ يُوسُفَ، وسواء كانت نفخةً في نارٍ أو في رماد، فقد فتح لنا ـ عليه السلام ـ بَابَ الوعْظِ والإرشاد على مصراعيه، والقرآن الكريم يرشدُنا إلى هذه الفكرة الحميدة، فيقول تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وبعد أن أتمَّ نُصحَه ـ وهما يصغيان إلى درسه ـ عَادَ أدراجَه يجيبهما عمَّا سألاه عنه، فلا شَكَّ أنَّهما مشغوفان لسماع التَّأويل، فقال ليقوِّي ثقتهما به: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ يكونُ مصيرُه الخلاص، ويسقي سيِّده خمراً ﴿ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن ﴾ لحم ﴿ رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ فهو كائن كما قضاه الله تعالى؛ تأكيداً وجزماً لتعبيره، ولم يُعيِّن يُوسُفُ صَاحِبَ المصير الحسن ولا السيئ رعايةً لحُسْنِ الصُّحبة.

وقيل: إنّهما لم يريا شيئاً وإنّما أرادا امتحان يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ ، فقد أخرج الحاكم بسند صحيح، عن عبد الله، قال: " الفتيان اللّذان أتيا يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ في الرُّؤيا إنّما كانا تكاذبا، فلمّا أوّل رؤياهما، قال: إنّا كنّا نلعب، قال يُوسُفُ: قضي الأمر الّذي فيه تستفتيان "(١).

وأخرج الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ، قال: " لما حكيا ما رأياه، وعبّر يوسف ـ عليه السلام ـ، قال أَحَدُهما: ما رأينا شيئاً، فقال: قضي الأمر الّذي فيه تستفتيان "(٢).

حذف الفاعل وإقامة المفعول مقامه

في قوله تعالى: ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ يلاحظ حذف الفاعل، وإقامة المفعول به مقامه، وبناء الفعل للمجهول، وقد حُذِفَ الفاعل؛ للعلم به، فلا حاجة لذكره، فالفعل ﴿ قُضِيَ ﴾ لا يقدر عليه أَحَدٌ إلّا الله تعالى، وقد أقيم المفعول به مقامه، وهو المسند إليه، وجيء به بعد الفعل المبني للمجهول مباشرة؛ لتعظيم ما قضاه الله تعالى، فما قضاه الله تعالى أمر عظيم.

عِلْمُ التعبير داخل في الفتوى

وقد تحقّق وقوعُ تعبير يُوسُفَ لرؤيا الفتيين، فقد سُئِلَ فأفتى بعلم وبلا مواربة، وجديرٌ بنا أن نَعْلَمَ أنَّ عِلْمَ التَّعبير وتفسير الرُّؤى والأحلام من علوم الإسلام الشَّرعيَّة، وهو داخل في الفتوى، فإذا ما استفتاكَ أحدٌ من النَّاسِ في تعبير رؤيا فاعلم أنَّك أمام فتوى شرعيَّة، لا يكون لك أن تقول فيها بغير علمٍ و لا هدى ولا

---

(١) الحاكم " المستدرك" (ج٤/ ص٣٩٥) كتاب تعبير الرّؤيا، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرِّجاه.

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج٢ / ص٣٤٦) كتاب التّفسير، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

كتاب منير ، ألا ترى أنَّ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ قال للفتيين: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ وأنَّ الله قال على لسان الملك: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ ... ﴿٤٣﴾﴾ وعلى لسان الفتى، قال: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ... ﴿٤٦﴾﴾

يُوسُفُ يأخذ بالأسباب

ولَمَّا أراد السَّاقي الخُروجَ من السِّجن، لم يهمل يُوسُفُ الأخْذَ بالأسباب، ولم يتهافت على ذلك السَّاقي بالرَّجاء والاسترحام، إنَّما ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ طَلَبَ منه وأوصاهُ أنْ يذكُرَه عند الملك، ويخبرَه عن أمره، ويذكِّره به؛ لعلَّه يخلِّصه ممَّا ظلم به.

لكنَّ السَّاقي الَّذي خَرَجَ فعلاً من السِّجن لم يعملْ بالوصيَّة ولم يحفظ الأمانةَ، فما أن عَادَ إلى قَصْر سيِّده حتى أنساهُ الشَّيطانُ في غمرةِ الفرحِ والسُّرور أمْرَ يُوسُفَ وما تكلَّم به معه، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فعلى هذا النِّسيان لبث يُوسُفُ في السِّجن بضع[1] سنين، وعلى أيِّ حال فيُوسُفُ توكَّل على الله تعالى، وأخذ بالأسباب، والزِّيادة في البلاء هذه لا نراها إلَّا زيادة في الأجر والثَّواب، وكانت هذه الحادثةُ خاتمةَ فصول مأساة يُوسُفَ المحزنة.

فإن قيل: فكيف يقول: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وانتهى، ثمَّ يقول: ﴿ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ فكيف يظنُّ نجاته ظنّاً، وهو يعلم أنَّ أمر الله قد قضي؟! والجواب أنَّ ﴿ظَنَّ﴾ هنا بمعنى أيقن وعلم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة] ونظائره.

---

(١) البِضْع: العدد ما بين الثَّلاثة إلى ما دون العشرة.

وقد عبَّر عن النَّجاة باسم الفاعل ﴿نَاجٍ﴾ وعَدَلَ عن الفعل (ينجو) مبالغةً في الدَّلالة على تحقُّق النَّجاة، فالتَّعبير بالاسم يفيد الثُّبوت والاستمرار.

التورية المرشَّحة

من فنون البديع المعنوي التَّورية المرشَّحة، والتَّورية: أن يُطْلَقَ لفظٌ له معنيان، قريب ظاهر، وبعيد خفيٌّ، ويراد به البعيد منهما، ومنه قوله تعالى حكاية عن يُوسُفَ عليه السلام: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ...﴿٤٢﴾﴾ فإنَّ قوله ﴿رَبِّهِۦ﴾ يحتمل أنْ يُرادَ بها الإله، وهذا هو المعنى القريب المورَّى به، وقد ذكر من لوازمه على جهة التَّرشيح لفظة ﴿رَبِّكَ﴾، ويحتمل أن يراد به الملك، وهذا هو المعنى البعيد المورَّى عنه، وهو المراد.

فلو اقتصر على قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ دون قوله السَّابق لم تكنْ هناك تورية، لأنَّ لفظة ﴿رَبِّهِۦ﴾ تدلُّ على الإله فحسب، ولذلك فإنَّ لفظة ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ رشَّحت لفظة ﴿رَبِّهِۦ﴾ لأن يكون هناك تورية.

لِمَ لَمْ ينْـهَ يُوسفُ السَّائِلَ عن سقي ربِّه خمراً؟

معلومٌ أنَّه من الصَّعب جدّاً نَقْلُ النُّفُوسِ من عقيدة إلى أخرى على الدَّاعي وعلى المدعوِّ؛ لأنَّه يعزُّ على النَّفس ترك ما اعتادت عليه؛ لذلك سأل موسى ـ عليه السلام ـ ربَّه أن يشركَ شقيقَه هارون ـ عليه السلام ـ في الرِّسالة، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾[طه].

وبعث عيسى ـ عليه السلام ـ إلى أهل (أنطاكية) برجلين اثنين ليدعواهم إلى الإيمان، فبادروهما بالتَّكذيب، فقوَّاهما وشدَّ أزرهما برسولٍ ثالثٍ يؤيِّد بعثتهما، قال تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[يس].

وبالنَّظر إلى اعْتِياص ذلك وأهمِّيتِه وقيمته اقتصرَ يُوسُفُ على دعوةِ صاحبيه إلى التَّوحيد فقط؛ لأنَّ التَّوحيد هو الأصل، وما يترتَّبُ على التَّوحيد أعمالٌ فرعيَّة، والأعمال الفرعيَّة ينبغي الدَّعوة إليها بعد اعتناق الأُصُول، وبهذا يتَّضحُ لنا كون يُوسُفَ لم ينهَ السَّاقي عن سقي سيِّده خمراً.

تسمية الملك ربّاً

تسمية العبد فتىً، كقوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ شيءٌ حسن، أمَّا تسمية الملك ربّاً، نحو قوله تعالى: ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ... ﴿٤١﴾ ﴾ وقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ... ﴿٤٢﴾﴾، فنهى الشَّرعُ عنه، فقد قال النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ: "لا يَقُلْ أحدُكُم: أطْعِمْ ربَّك، وضِّئ ربَّك، اسْقِ ربَّك، وليقلْ: سيِّدي، مولاي ، ولا يقُلْ أحدُكم: عبدي أمَتي، وليَقُلْ: فتايَ وفتاتي وغُلامي"[1].

ونفهم من قوله تعالى: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ على لسان يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ أنَّ إِطلاق لفظ (الرَّبّ) مضافاً على غير الله تعالى كان جائزاً في ذلك الزَّمان وما قبله.

الشَّرُّ لا يُضَافُ إلى الله تعالى

ونتعلَّم من قوله تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أن نَنْسُبَ ما كان شرّاً لأنفسِنا وللشَّيطان، ولا ننسبه للرَّحمن ـ جلَّ جلالُه ـ، فينبغي التَّأدُّب في الخطاب، فالله تعالى

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢ / ج٣ / ص١٢٤) كتاب العتق.

لا يُضَافُ إليه إلَّا الخير إرادة محبَّة وتسليم، مع أنَّ الخير والشَّرَّ من الله وبقضائه.

وانظر قوله: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ... ﴿٣٤﴾﴾ فقد أضاف ما مِنْه الرَّحمة إليه سبحانه، ولَمَّا ذكر السّجن، قال: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ فأضاف ما منه الشَّر إليهم.

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾[الفاتحة]، فذكر سبحانه أنَّه فاعل النِّعمة، وحذف فاعل الغضب، وأضاف الضَّلال إليهم.

وتأمَّل قول موسى لما قتل القبطي: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ...﴿١٥﴾﴾ [القصص] نسبه إلى الشَّيطان، فالشَّرُّ لا يضُاف إلى الله على انفراد؛ لما فيه من توهُّم النَّقص والعيب.

وقال تعالى مخبراً عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنَّه، قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشّعراء] فأضَافَ المرَض إلى نفسِهِ والشِّفاء إلى الله تعالى، وإنْ كان المرض والشِّفاء منه سبحانه، وهذا مطَّرد في فصاحة القرآن، وإنَّما ذكرناه لأَنَّ اطِّراد مثل هذا مما يجهله البعض.

ومن ذلك أنَّ الخضر ـ عليه السلام ـ أضاف إرادة العَيْب إلى نفْسِه، فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا...﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] ولما ذكر الخَير والبِرَّ والرَّحمة أضاف إرادتها إلى الله تعالى، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...﴿٨٢﴾﴾ [الكهف].

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ] فحُذِف الفاعل في إرادة الشَّر، وبُني الفعل

﴿أُرِيدَ﴾ للمجهول، أمَّا في إرادة الرُّشد فقد أسند الفعل إليه سبحانه وبني للمعلوم.

ومن سورة يُوسُفَ سيأتي قوله تعالى حكاية عن يُوسُفَ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ ...﴿١٠٠﴾﴾ فأضاف الإحسان إلى الله تعالى، وأضاف النَّزغ إلى الشَّيطان.

رؤيا الملك

ولَمَّا أراد اللهُ تعالى الفَرَجَ عن يُوسُفَ وإخراجه من السِّجن، رأى ملك مِصْرَ رؤيا عجيبة أهمَّته؛ فَجَمَعَ أَشْرافَ القوم وسَراتَهم وعِلْيَتَهم ورِجَالَ حاشيته ومَن يظنُّ به العلم، وأخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها، فأعجزهم الله تعالى جميعاً؛ ليكونَ ذلك سبباً في خَلاصِ يُوسُف ـ عليه السلام ـ من السِّجن.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ ممتلئات لحماً وشحماً ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أخر ﴿عِجَافٌ﴾ مَهْزُولة في غاية الهُزَال ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبُّها ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وسبع سنبلات أُخَر يابسات، فالتَوت اليابِسَاتُ على الخُضْرِ حتَّى غلبتها. وفي قوله: ﴿سِمَانٍ﴾ و ﴿عِجَافٌ﴾ و﴿خُضْرٍ﴾ و ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ طباق إيجاب بديع حسن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطابٌ للأشراف ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾ أخبروني عن تأويل هذه الرؤيا وبيِّنوا لي ما تؤولُ إليه من العاقبة ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وتُجيدونَ تعبيرها وتعرفونَ تأويلها، وهذه الجملة تفيد أنَّ الملكَ لم يكنْ على ثقةٍ من أنَّهم يعبِّرون الرُّؤيا .

أكْرِمْ بِمَنْ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِه!

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي الملأ، بلسان العَجْز والتَّسليم والاعتذار والتَّنصُّل من التَّأويل: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ مجرَّد أحلام كاذبة، وقد كَذَبُوا في جوابهم؛ فإنَّ رؤيا الملك ليست من قبيل أضغاث الأحلام، بل هي من الرُّؤى الصَّادقة، لكنَّهم عَادُوا فصدقوا واعترفوا بجهلهم، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وأكرِم بمَن عرف قدر نفسه!

ويفهم من رؤيا الملك أنَّ الرُّؤْيَا الصَّادقة وَإِن اخْتَصَّتْ غَالِبًا بِأَهْلِ التُّقى والصَّلَاح والورع لَكِنْ قَدْ تَقَع لِغَيْرِهم، وفي قوله: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ استعارة تمثيليَّة لطيفة، فقد شبَّه اختلاط الأحلام وما فيها من ضروب مختلفة، بالحزمة المختلطة من الحشيش والنَّبت لا تناسب بينها.

الحَاجَةُ إلى العُلماء

وقول الملك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ يتضمَّن إشارةً إلى أنَّ الملوك كبقيَّة النَّاس تحتاجُ إلى العُلماء، ولا تستغني عنهم، أو بعبارة أخرى: العلماء أغنياء عن الملوك بالعِلم، وليس الملوك بأغنياء عن العلماء بالـمُلْكِ، لذلك قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النَّحل] وكفى بهذا شرفاً للعلم والعُلماء.

يَغْلبُ على الحلم أنْ يُرَى ولا يُسْمَع

مرَّت بنا أربع رُؤى: رؤيا يوسف للكواكب، ورؤيا الفتى نفسه يعصر خمراً، ورؤيا الفتى الآخر يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطَّير منه، ورؤيا الملك للبقرات والسَّنابل. ولم تحتوِ مادةُ هذه الرؤى على لغةٍ أو كلامٍ، ومنه نعلم أن الحلم سمِّي

رؤيا لأنَّه غالباً ما يُرى ولا يُسْمَع، لذلك قال يُوسُفُ لأبيه: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾، وقال الفتيان: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾، وقال الملك: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ وقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لابنه إسماعيل ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ... ﴿١٠٢﴾﴾ [الصّافات].

ومن اللَّطيف والطَّريف أنَّ سورة يُوسُفَ الَّتي كثرت بها الرّؤى، افتتحت بحروف مقطَّعة معجزة ﴿الٓر﴾ وهي نصف حروف كلمة (الرؤيا).

ابتداءُ البلاء ونهايته برؤيا

كان ابتداء بلاء يُوسُف ـ عليه السلام ـ بِسَبَبِ رؤيا رآها، وكان سَبَبُ نجاتِهِ رؤيا رآها الملك، فالله تعالى إذا أراد أمراً أجرى أسباباً يحصل بها مرادُه، سبحانه!

ثمرَةُ الإحسَان

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ من السِّجن، وهو السَّاقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي بعدما تذكَّر ما سبق له مع يُوسُفَ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي طائفة من الزَّمن: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ ممَّن عنده علمه ﴿فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ إلى يُوسُفَ. ولم يصرِّح باسمه حتَّى يحظى وحده بشرف السَّبب في دلِّ الملك على يُوسُفَ معبِّر الرؤى، وضمير الجمع (الواو) في ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ يريد به الملك على سَبِيل التَّعظيم.

وحقّاً ما دلَّ مليكَ مِصْرَ على يُوسُفَ وإحسانه إلَّا هذا الفتى الذي سَخَّره اللهُ تعالى له، والَّذي عَرَفَ إحْسَانَ يُوسُفَ وفضلَه، فأثمر عنده الإحسان بعد طول النِّسيان، ووفَّى بالوَعْد بعد طول العَهْد، فالصُّحبة تعطي خيراتها وإن كانت تُبْطِي، وصدق القائل:

ازْرَعْ جَميلاً ولــو فــي غَيْرِ مَوْضِعِـهِ فلَن يَضيـعَ جميـلٌ أَيْنَما زُرِعَــا
إِنَّ الجَميــلَ وإِنْ طال الــزَّمانُ بــهِ فليـسَ يَحْصُدُهُ إلَّا الَّـذي زَرَعــا

حذفُ الجُملة

الحذف ضَرْب من ضروب الإيجاز والاختصار، وهو باب طريف حسن، لطيف المأخذ، فإنَّك ترى في الحذف من اللُّطف والظُّرف ما هو أبلغ من الذِّكر، وفي الصَّمت ما هو أدلّ على المعنى المراد من النُّطق.

ويكون المحذوف حرفاً، أو مفردة، أو جملةً، أو جملاً، ومن شرطه أن يكون في اللَّفظ قرينةٌ دالَّة عليه، فليس شيء من ذلك إلَّا عن دليل عليه، ومن فوائده حملُ السَّامع على إعمال الذِّهن في المحذوف، فتتلذَّذ نفسه بتشوّفها إلى المراد، ومن فوائده التَّعبيرُ عن المعاني الغزيرة بالمباني القليلة، ممَّا يجعل الكلام يعظم شأنُه في القلب، ويعلو قدره في النَّفس.

ومن شواهد حذف الجمل في التَّنزيل من سُورة يُوسُفَ، قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ...﴿٤٦﴾﴾ فالكلام فيه حذف، والتَّقدير: فأرسَلوه، فأتى يُوسُفَ، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ والمحذوف ظاهر؛ لأنَّه إذا ثبت طرفا الكلام وحُذِفَ وسطه ظهر المحذوف لدلالة طرفيه عليه.

وقد حُذِف حرف النّداء أيضاً، فالتَّقدير ، فقال: "يا يوسف يا أيُّها الصِّدِّيق" ولعلَّه حُذِفَ للتَّخفيف لكثرة دورانه في الكلام، وللبُعدِ عن الإطالة والسَّآمة.

ومن شواهد الحذف أنَّ يُوسُفَ بعد أنْ عبَّر للرَّسول الرُّؤيا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ فهناك حذِف جمل بيّن، والتَّقدير: فلمَّا رجع الرَّسول إلى الملك وأخبره بفتيا يُوسُفَ وتعبيره، أُعْجِب بتأويله، فطلب أن يأتوه به ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ حذف آخر، تقديره: وقال له: أجب الملك ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ...﴿٥١﴾﴾ حذف آخر، فالتَّقدير: فرجع الرَّسُولُ إلى الملك، فأخبره

بمقالة يُوسُفَ، فجمع النِّسوة، فذلك قوله: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ ...(٥١) ﴾ وسيأتي بيان ذلك في موضعه.

إخفَاءُ اسم الملك عن يُوسُفَ حال استفتائه في تأويل الرُؤيا

أُرْسِلَ السَّاقي إلى يُوسُفَ، فلمَّا أتاه استهلَّ كلامه وصدَّره بوصف يُوسُفَ بأنَّه بليغٌ في الصِّدق؛ لأنَّه كان قد جرَّب عليه ذلك في فترة إقامته معه في السِّجن، وصرَّح باسمه ليذكِّره بصحبته، ومنه نفهم أنَّ المستفتي يجب أن يبجِّل المفتي كونه يريد آثارَه وعِلْمَه وأنْوارَه.

قال: يا ﴿ يُوسُفُ ﴾ يا ﴿ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ يا من غَلَبَ عليه الصِّدقُ وعُرِفَ به، وهو من باب براعة الاستهلال؛ فقد قدَّم المديح والثَّناء قبل مسألته طمعاً في إجابة مطلبه ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾.

قلتُ: ويلاحظ أنَّ السَّاقي هذه المرَّة لم يقل له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ... (٣٦)﴾ وإنَّما قال: ﴿ أَفْتِنَا ... (٤٦) ﴾ وقوله هذا فيه زيادة إجلال واحترام ليُوسُفَ، بعد أن وقف على علمه، وأيقن أنَّ يُوسُفَ على علم من ربِّه، كما قال لهما يُوسُفُ من قبل: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ ... (٣٧) ﴾ فلعلَّه أدرك هذه المرَّة أنَّ الإنباء بتأويل الرّؤيا يحتاج إلى الإفتاء بعلم.

وقد نقل إليه الرُّؤيا بنصِّها حرصاً على سلامة التَّأويل، وأخفى عنه أنَّ الملك هو الذي رأى الرُّؤيا؛ ولعَلَّه فَعَلَ ذلك خَشْيَةَ أنْ يشترطَ يُوسُفُ تفسير الرُّؤيا أمام الملك، فيبدو أنَّه كان حريصاً على أن يسمعَ الملك تفسير الرُّؤيا من فَمِهِ، لينال عنده حِظْوة ومنزلة ومكانة.

وممَّا يدلُّ على تستُّره على اسم الملك قوله بعد ذلك: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لا إلى الملك، أو لعلَّه أخفى اسم الملك لظنِّه أنَّ هذه الرُّؤيا لا تتعلَّق بالملك وحده، وإنَّما تعمُّ النَّاس، ولذلك عمَّم، فقال: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ ﴾ مكانَك وشأنك، فيكون ذلك سبباً لخروجك من السِّجن.

وكرَّر (لعلَّ) الَّتي تفيد الرَّجاء، فهو يرجو أن يرجع بتعبير الرّؤيا إلى الملك؛ لينال عنده منزلة، فهذا معنى قوله: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ فالنَّاس الملك أوَّلهم، وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ ﴾ جاء تتميماً للمعنى وتقريراً له، وهو توقُّع النَّاس ورجاؤهم في معرفة تعبير هذه الرّؤيا وتأويلها، فالكلام إذا تكرَّر تقرَّر.

تأويل يوسف ـ عليه السلام ـ رؤيا الملك

فلمَّا سَمِعَ يُوسُفُ منه الرُّؤيا أجابه إلى طلبه على الفَوْر دون قيد ولا شرط، فالعِلْم لا يُكْتَمُ، والعَالِم لا يصيرُ جاهلاً، والكريم لا يصيرُ بخيلاً، فأوَّل له البقرات السِّمان والسُّنبلات الخضر سنين مخصبة، والبقرات العجاف والسُّنبلات اليابسات سنين مُجْدِبة.

وأنَّ عليهم أنْ يواظبوا على الزِّراعة في السِّنين السَّبع المخْصِبة، ويدَّخروا فيها ليواجهوا خَطَرَ السِّنين المُجْدِبة، ثمَّ تنقضي السُّنون المجدبة التي تأتي على ما ادَّخروا، ويعقبُها عامُ رَخَاءٍ وخير وبركة، وهو العام الخامس عشر.

فقال ـ عليه السلام ـ على وجه النُّصح والإرشاد: ﴿ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا ﴾ متوالية بجدٍّ واجتهاد، وهي السُّنون السَّبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السِّمان والسُّنبلات الخضر. وقوله: ﴿ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا ﴾ هو من إطلاق الخبر بمعنى الأمر، فالمعنى: ازرعوا سبع سنين دأباً، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿ فَذَرُوهُ ﴾.

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ ﴾ من الزَّرع ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ لئلَّا يُسَوِّس، واحتفظوا به في سنابله لتأكلوه في تلك السّنين ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ إلَّا ما أردتم أكله، فادرُسُوهُ واتركوا الباقي في سُنْبله، ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ وهي السُّنون السَّبع المُجْدِبة المرموز لها بالبقرات العِجَاف والسُّنبلات اليابسات.

﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾: مجاز عقلي؛ لأنَّ السّنين لا تَأْكُل، وإنَّما يأكل النَّاس ما ادَّخروه فيها، أي تأكلون فيها ممَّا ادَّخرتُم من الحبوب المتروكة في سنابلها أيام الرَّخاء ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي إلَّا القليل الَّذي تدَّخرونه وتخبِّئونه للزِّراعة والاقتصاد.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ﴾ خصيبٌ ﴿ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ بالمَطَرِ ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ما يُعْصَرُ، مثل: الزَّيتون، والسِّمْسِم، ونحو ذلك. وهذا العام لم تتضمَّنه الرُّؤيا!

وبهذا يكون يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ قد دبَّر شؤون أهل مصر الاقتصاديَّة، فهو لم يقتصر على تأويل الرُّؤيا، بل علَّمهم ما يصنعون، وبيَّن لهم ما يعملون، ودبَّر لهم المخرج ممَّا عسى به يُصابُون.

وممَّا تجدُر الإشارة إليه أنَّ يُوسُفَ مِن كَرَمِ أخلاقه، ونُبْل شُعُورِه لم يُعَاتِب السَّاقِي لعدم قيامه بما كان طَلَبَ منه، ولم يطلب منه تأكيد ذكره عند الملك، إذ ما بعد الشِّدَّة إلَّا الفَرَج، ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشَّرح] فاللَّيل إذا اشتدَّ ظلامُه أوشكَ الفجرُ أن ينبلجَ نورُه، والشِّدَّة إذا تَنَاهَتْ لم يَعْقُبْها إلَّا الفَرَجُ، والمصائبُ إذا تَوَالتْ تَولَّتْ، وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ النَّصر مع الصَّبر، والله ـ لا ريب ـ يُحْدِثُ بعد العُسْرِ ميْسَرةً.

فإذا ما ضاقتْ بك الأيَّام واستحكمت حلقاتُها؛ فأبشر بالفرج، فلا يعقب

البلاء إلَّا الرَّخاء، ولله القائل:

ولربَّ نازِلــــةٍ يَضِيــقُ بها الفتـى ... ذَرْعـاً وعنـد الله منـــها المخْـرَجُ
ضَاقَــتْ فلـمَّا اسْتَحْكَمت حلقاتُها ... فُرِجَت وكَــانَ يَظنُّــها لا تُفْـــرَجُ

الفرق اللُغوي بين عام وسَنَة

من أشهر الفروق الَّتي قرَّرها علماء اللُّغة بين العام والسَّنة، أنَّ السَّنة من الأسماء الغالبة، فالدَّابة مثلاً يغلب استخدامها في الفرس، والمال في الإبل، والسَّنة يغلب استخدامها في الأزمة والقحط والجدب، والعام يغلب استخدامه في الرَّخاء والعطاء والخصب.

ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ... ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف] أي بالقحط والجدب، وفي دعاء النَّبيِّ ـ ﷺ ـ على المشركين، قال ـ ﷺ ـ: " اللَّهمَّ اشْدُدْ وطأتك على مُضَرَ ، اللَّهمَّ اجعلْها سنين كَسِني[١] يُوسُفَ "[٢]

أمَّا العام، فيستخدم غالباً في الرَّخاء، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

وقال البقاعي في "نظم الدّرر" في قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت] : "وعبَّر بلفظ ﴿سَنَةٍ﴾ ذمّاً لأيام الكفر، وقال: ﴿ عَامًا ﴾ إشارة إلى أنَّ زمان حياته ـ عليه الصَّلاة

---

(١) أضاف السّنين إلى يُوسُفَ لأنَّه أنذر بها، ودبَّر أمور النَّاس فيها.
(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٦٥) كتاب الدّعوات، وأخرجه البخاري في كتاب: الأذان، والجمعة، والجهاد والسّير، وأحاديث الأنبياء، وتفسير القرآن، والأدب، والإكراه. وأخرجه مسلم في " صحيح مسلم بشرح النووي " (م٣/ ج٥/ ص١٧٧) كتاب المساجد، وأخرجه في كتاب: صفة القيامة.

والسَّلام ـ بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض"[١].

ما رأى رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ النَّقِيَّ (الدَّقيق المنقَّى)!

قوله ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ فيه حُسْنُ تدبير عظيم من يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ، فقد أمرهم أن يتركوا الحبَّ في سُنْبلِه، لادِّخار القمح لهم، وادِّخار حطام السَّنابل من التِّبن وعصيف البُرِّ لسوائمهم وبهائمهم.

ومن الجدير معرفته أنَّ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ أقام في المدينة المنوَّرة عشر سنين ولم يشبع من طعام بُرّ ثلاث ليال متوالية حتَّى فارق الدُّنيا، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: "مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ"[٢]

ويظهر أنَّ البُرَّ في المدينة كان قليلاً، وكان الأغلب الشَّعير، ومع هذا لم يشبع ـ ﷺ ـ من خبز الشَّعير حتَّى لحق بالله، أخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ فَدَعَوْهُ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ، وَقَالَ: " خَرَجَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ مِنْ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ "[٣]

وقد صحَّ أنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ ما رأى النَّقيَّ، أي خبز الدَّقيق الحُوَّارَى النَّظيف الأبيض المسمَّى الدَّرْمَك، المُنَقَّى دقيقُهُ، فلم يكن يعرف المناخل ـ ﷺ ـ من يوم بُعِثَ حتَّى لقي الله تعالى، وكذلك أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، فقد كان أغلب طعامهم الشَّعير غير المنخول، ففي كتاب (الأطعمة) وتحت باب (ما كان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ وأصحابه يأكلون) ورد أنَّ أبا حَازِمٍ سأل سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، وقال له:

" هَلْ أَكَلَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ النَّقِيَّ؟ فَقَالَ سَهْلٌ: مَا رَأَى رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ النَّقِيَّ

---

(١) البقاعي "نظم الدّرر" (ج٥/ ص ٥٤٣).
(٢) البخاري " صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص١٨٠) كتاب الرّقاق.
(٣) البخاري " صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٢٠٥) كتاب الأطعمة.

مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللهُ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: هَلْ كَانَتْ لَكُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ مَنَاخِلُ؟ قَالَ: مَا رَأَى رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ مُنْخُلًا مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللهُ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ الشَّعِيرَ غَيْرَ مَنْخُولٍ؟! قَالَ: كُنَّا نَطْحَنُهُ، وَنَنْفُخُهُ، فَيَطِيرُ مَا طَارَ، وَمَا بَقِيَ ثَرَّيْنَاهُ (١)، فَأَكَلْنَاهُ "(٢)

وقد أشكل على البعض كيف أنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ يطوي الأيام ذات العدد جوعاً، وهو بين أصحابه، ومنهم من يملك الأموال الجسام، كأمثال: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، وعبد الرّحمن بن عوف، وغيرهم كثير ـ رضي الله عنهم ـ! وكيف يُوصَفُ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ بذلك، وقد ثبت أنَّه لم يكن معوزاً ولا محتاجاً، فقد ساق ـ ﷺ ـ من الهدي مائة بدنة في السَّنة الَّتي حجَّ بها، ونحر منها بيده الشَّريفة ثلاثاً وستين بدنة، ثمَّ أعطى عليّاً فنحر ما بقي منها، وقسّمها على المساكين، فقد أخرج مسلم من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ: "... ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْحَرِ فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَعْطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ"(٣)

والجواب أنَّ عدم شبعهم لم يكن على كلِّ حالة ووجه، ولم يكن عن عوز وضيق، ولكنَّهم كانوا يؤثرون تارَة، وتارَة لكراهة الشَّبع والتَّوسُّع في المأكل والمشرب، وعلى هذه الخليقة كانت خلائق الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيه قيود، فقولها: "مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ" فيه أنَّ الشَّبع المنفي بقيد المدينة، فاستثنت بذلك ما كان قبل الهجرة، وقولها: "مِنْ طَعَامِ بُرٍّ" فيه استثناء لأنواع الأطعمة الأخرى، وقولها: "ثَلَاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا" نَفَت الشَّبع على التَّوالي لا مطلقاً.



(١) بَلَلْنَاهُ وليَّنّاه بالماء.
(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٢٠٤) كتاب الأطعمة.
(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٩١).

القسم الخامس

تنظيمه للخزائنِ المصريَّة

يُوسفُ ﷺ يَرفُضُ طَلَبَ الملك

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾ بعدما جاءَه الرَّسولُ ، وسمع منه عبارة الرُّؤيا ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾ يقصد يُوسُفَ، وذلك لما رأى من علمه وفضله، فقد استحسن تأويله وأُعجب به لِمَا سمعه، " والأذن تعشق قبل العين أحياناً " والوَصْفُ يحرِّك من الشَّوق أغْصَاناً وأَفْناناً!

ونُفِّذَ أمرُ الملك، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي فلمَّا جاءَ رسُولُ الملك إلى يُوسُفَ يدعوه للخُروج من السِّجن، أخذ يُوسُفُ يُراجع ويستعرض تلك الدَّعوى والتُّهمة المزوَّرة، التي دَخَلَ السِّجنَ بسببها، ومرَّ به شريطُ الذِّكريات المؤسِف، فَوَجَدَ أنَّ هناك دواعي كثيرة تمنعه من إجابة الدَّاعي إلى طلبه، ولذلك ﴿ قَالَ ﴾ يُوسُفُ للرَّسول بلسان اللُّطْفِ: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾سيِّدك الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي ﴾ الله تعالى ﴿ بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾.

مجرد سؤال، لم يغْتب أحداً، ولم يتَّهم أحداً بصراحة، ولم يقع في أحد، ولم يذكر اسم سيِّدته امرأة العزيز، وهي الَّتي ما زال في السِّجن بمساعيها، واكتفى بالإيماء.

ونراه ـ ﷺ ـ لم يَقُل: سَلْه أنْ يُفتِّش عن شأنهنَّ! فلربَّما كان في ذلك جرأة على الملك تدفع الملك إلى الامتناع وعدم الالتفات إليه.

وقوله: ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ يدلُّ على وفور عقله وكمال أدبه؛ فقد ذكر النِّساءَ جملة ليُدخِل امرأة العزيز فيهنَّ مدخلَ العموم بالتَّلميح لا بالتَّصريح، وهذا من

أخلاق نبيِّنا محمَّد ﷺ، فلم يكن يقابل أحداً بمكروه، فقد أُثر عنه أنَّه كان يقول: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ"(١).

ومن إمساكه ـ عليه السلام ـ عن غيبة أحد، نتعلَّم ألَّا نتلمَّظ بمُضْغَةٍ طالما لفظتها الكرام، وطالما ورد النَّهيُ عنها في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات]

وطلب يوسف نقل الدَّعوة من محكمة (العزيز) إلى محكمة (الملك) بهذه الجرأة يدلُّ على ثقته بكسب الدَّعوة؛ لأنَّه واثقٌ بالبراءة.

البراءة أوَّلاً

أبى ـ عليه السلام ـ الخروج من السِّجن حتى تجري التَّحقيقات اللَّازمة عمَّا نُسِبَ إليه، وحتى تبرأ ساحتُه من تلك التُّهمة الشَّنيعة، ويعلم النَّاسُ جميعاً أنَّه حُبِس بلا جرم؛ لئلَّا يتسلَّق به الحاسدون إلى تقبيح أمره، وحطٍّ منزلته عند الملك، فالبراءة أولاً، ثمَّ الخروج ثانياً. فهو يريد أن يعاد التَّحقيق في سبب دخوله السّجن، حتَّى إذا خَرَجَ خَرَجَ موسوماً بالبراءة والشَّرف والعزَّة، مرفوع الرَّأس، وافر الكرامة، والاجتهاد في نفي التُّهم واجبٌ وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها.

ولا تعارض بين قول يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ للسَّاقي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ... ﴿٤٢﴾﴾ وقوله لرسول الملك ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴿٥٠﴾﴾ لأن هدفه في المرَّتين إعادة التَّحقيق في التّهمة الملفَّقة ضدّه، وإثبات براءته أخذاً بالأسباب.

ثناءُ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ على يُوسُفَ

أثنى النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ على يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ الَّذي طال عليه السِّجن ولم يستعجل

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٨٤) كتاب الشّروط.

الخروج، فقال في حديثه الشَّريف: "لو لبِثْتُ في السِّجن ما لَبِثَ يُوسُفُ، ثمَّ أتاني الدَّاعي لأجَبْتُهُ"(١) أي لأسرعتُ الإجابة في الخروج، وما قدَّمتُ طلب البرءاة، فشهد ـ ﷺ ـ ليُوسُفَ بكمال فضيلة الصَّبر والأناة عنده، وحسن نظره.

وقيل: المعنى إشارة إلى ترك العزيمة بالرُّخصة، وتقديم حق الله تعالى بتبليغ التَّوحيد والرِّسالة على براءة نفسه، وقيل: إنَّما قاله ـ ﷺ ـ قبل أن يعلم أنَّه أفضل الأنبياء والمرسلين، وقيل: هو من باب التَّواضع منه ـ ﷺ ـ والثَّناء على صبر يُوسُفَ وحلمه، لا أنَّه لو كان مكانه عجَّلَ بالخروج، فحلم النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ معلوم لدى الخواصِّ والعوامِّ، ولكن هذا من حسْن تواضعه، وقيل: أراد ـ ﷺ ـ أن يُنبِّه على أنَّ الأنبياء وإنْ كانوا من الله بمكان لا يُرامُ، فهم بَشَرٌ يَطْرأ عليهم ما يطرأ على غيرهم، وأنَّ ذلك لا يُعَدُّ نقصاً، وقيل غير ذلك.

اعترافُ امرأة العزيز ببراءةِ يُوسُفَ

عادَ الرَّسولُ أدراجه إلى الملك، وأخبره بما حدث، فلم يغضب لنفسه لأنَّ يُوسُفَ لم يجب إرادته إلَّا بعد التَّحقيق عن سبب اعتقاله، سِعَة صدر منه، بل نزل عند رغبته، فلا بدَّ أنَّ ثقته بيُوسُفَ زادت وحسن اعتقادُه فيه، فاستقصى الأمور، وأعاد التَّحقيق، وجمع النِّسوة، ودعا معهنَّ امرأة العزيز، وواجههنَّ بإصبع الاتِّهام، وأجلسهنَّ مجلس الاستنطاق:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ مشيراً إلى أمرٍ لهنَّ جَلَل. ويلاحظ من كلامه أنَّه تأكَّد من براءة يُوسُفَ؛ فقد أسند للنِّسوة تهمة المراودة.

ويظهرُ أنَّه لم يكن هنالكَ مجالٌ للإنكار: ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ تعجُّباً من عفَّته

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٧١) كتاب التَّعبير. ومسلم " صحيح مسلم بشرح النَّووي" (م٨/ج١٥/ ص١٢٣) كتاب الفضائل، وأخرجه في كتاب الإيمان (م١/ج٢/ ص١٨٣).

﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ﴾ قطُّ ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ ما: نافية، وسوء: نكرة، والنَّكرة في سياق النَّفي تفيد العموم، ومِنْ: لتوكيد النَّفي، وكلّ ذلك مبالغة في نفي جنس السُّوء عنه. وكانت هذه الجملة طعنةً نجلاء في قلب امرأة العزيز، الأمر الَّذي حذاها ودعاها إلى الاعتراف.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ لما رأت الأمر ينذر بالنِّهاية ـ بلسان النَّدم والحياء والخجل ـ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ وانكشفَ بعد خفاء ، الآن وضُحَ الحقُّ وتبيَّن ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ في سابقِ قولِه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ .

ولم يبقَ لأحدٍ مقال؛ فقد اعترفَ الخصم بأنَّ خَصِيْمَهُ على الحقِّ وهو على الباطل، وقطعت بذلك امرأة العزيز قولَ كلِّ خطيب.

تحقُّق صَرْف الكيد

كان موقف النِّسوة وامرأة العزيز مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾، فقد تحقَّق صرفُ الكيد عن يُوسُفَ بهداية الله تعالى للنِّسوة وامرأة العزيز للاعتراف.

ومن اعتراف النِّسوة وامرأة العزيز نفهم أنَّ عاطفة النِّساء تملك عقولهنَّ، بخلاف الرِّجال، فإنَّ عقولهم تملكُ عواطفَهم، لذلك فهنَّ إلى الصِّدقِ وإظهارِ الحقيقةِ وعدم القدرة على إخفائها أقربُ من الرِّجال.

تتمَّة الاعتراف ونهاية المطاف

واستمرَّت امرأة العزيز تعبِّر عن أسفِها وندمها وتوبتها ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ يُوسُفُ ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، ولم أفترِ عليه كذباً وهو غائب، فلم يكن يُوسُفُ قد خَرَجَ

من السِّجنِ بعد ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ ولا يصلح ولا يُسَدِّد ﴿كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ إن كنتُ قد برَّأتُ يُوسُفَ ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي إلَّا نفساً تداركتها رحمةُ الله تعالى بالعصمة كنفس يُوسُفَ ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ وهكذا أخمدت امرأةُ العزيز الفتنةَ التي أضرمت نارَها، وبرَّأت يُوسُفَ من التُّهمة ولم تبرِّئ نفسَها.

وهذا التَّغيير في شخصيَّة امرأة العزيز صورةٌ من صُورِ نجاح يُوسُفَ في الدَّعوة، فقد دعا إلى الله بأخلاقه قبل أقواله، وبحاله قبل مقاله، ونجح في نَقْل هذه المرأة من مَهَاوي الرَّدى إلى صَعِيدِ الهدى. هذا ومكارم الأخلاق من مقاصد بعثة النَّبيِّ محمَّد ـ ﷺ ـ، والتَّحلِّي بالأخلاق الفاضلة واجب على آحاد النَّاس، فما ظنّك بالدَّاعية، فلا ريب أنَّ تجمُّلَه بها أوجب.

في الوجوه والنظائر

اعلم أنَّ من الفِقْه معْرِفَةَ الوجُوه والنَّظائر، فالكلمة الواحدة في القرآن الكريم قد تَنْصَرِفُ إلى وجوه شتَّى، فَمِنْ ذلك كلمة (الهدى) لها وجوه، نذكرُ منها أنَّها تأتي بمعنى الإصلاح والتَّسديد كما في سورة يُوسُفَ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾.

وبمعنى الدِّين: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ... ۝٧٣﴾ [آل عمران].

وبمعنى الإيمان: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ ... ۝٧٦﴾ [مريم].

وبمعنى القرآن: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ [النّجم].

وبمعنى التّوراة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ ... ۝٥٣﴾ [غافر].

وبمعنى التَّوبة: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ ... ۝١٥٦﴾ الأعراف].

وقد اشتغل في جَمْعِ الوجوه والنَّظائر في القرآن الكريم جَمْعٌ من العُلماء، ولا يَعْلَمُ قَدْرَ هذه الوجوهِ مثل مَنْ عَلِمَ حصرها، وهذه الوجوه فيها ما فيها من دقائق وحقائق لا توجد في كلام البشر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النّور].

الشُّهود على براءة يُوسُفَ

تضافرت شهادات عديدة على براءة يُوسُفَ، فقد شهدت ببراءته الشُّهود:

أولاً: شهادة الله تعالى، القائل: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾[النِّساء] ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب] والله أكبر شهادة.

ثانياً: شهادة الشَّيطان عينه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، فأقرَّ بأنَّه لا يمكنه إغواء المُخْلَصين، ويُوسُفُ من المُخْلَصين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثالثاً: شهادة يُوسُفَ الَّتي ذكرها الله في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾، وقوله أوَّل الأمر: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

رابعاً: شهادة الشَّاهد من أهلها: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

خامساً: شهادة العزيز، فقد قال لزوجته لمّا رأى قميص يُوسُفَ قد من دُبُر: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ وقال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

سادساً: شهادة النِّسوة: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن

نَفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ وشهادتهنَّ أمام الملك: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٖۚ ﴾.

سابعاً: شهادة امرأة العزيز نفسها، فقد اعترفت أمام النِّسوة، وقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ ...﴿٣٢﴾ ﴾، وقالت أمام الملك: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

ثامناً: إسناد القرآن الكريم المراودة إلى امرأة العزيز، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ... ﴿٢٣﴾ ﴾ وقال حكاية عن يوسف: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ ...﴿٢٦﴾ ﴾ وقال حكاية عن النّسوة: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٞ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ ...﴿٣٠﴾ ﴾ وقال حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ ...﴿٣٢﴾ ﴾، وقال حكاية عنها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

وهذا كلّه مسوق لتنزيه يُوسُفَ عليه السلام، فلا ينبغي لمسلم بعد هذه الشّهادات كلِّها أن يتوقَّف في هذا الباب!

توبةُ امرأة العَزيز

عبَّرت امرأةُ العزيز باعترافها عن اعتذارِها وأسفِها وندمِها وتوبتِها ممَّا كان منها، وتضحيتها بشرفها وسمعتها في سبيل قول الحقِّ والدِّفاع عن يُوسُفَ يقظةٌ لضميرها الَّذي غَابَ عن السَّاحة كلَّ هذا الوقت، ولا خَيْرَ في حياةٍ نحياها بلا ضَمِير، ولا خَيْرَ في عيشة نعيشها بضمائر خربة وذِمم عفنة.

ونراها تطلبُ المغفرةَ من ربِّها طَلَبَ مؤمنة مُنِيبة إلى الله تعالى، فتقول: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾، فإذا كانت مخلصةً في رجوعها إلى ربّها ـ ولا نخالها إلا كذلك ـ

فإنَّ الله تعالى يتوب على مَن تاب ويغفر الذُّنوب جميعاً.

ونراها أقلعت عن سابق عهدها، وعادت إلى الفضيلة، وهذا من نعمة الله تعالى عليها، فسبحان القائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشَّمس]، وهكذا يتجلَّى العنصر الإنساني في القصَّة بوضوح.

آخِرُ كلمة قالتها امرأةُ العزيز

آخرُ كلمة تكلَّم بها عزيز مصر هي قوله لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾، وآخر كلمة تكلَّمت بها امرأته قولها ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾؛ إيذاناً بطمعها فيهما.

العَارُ خَالِدٌ

كانت امرأةُ العزيز بما فعلت سابقاً قد سوَّدت صفحات أعمالها وكتبت بالسَّوادِ ذكريات أيامها الخالدة، لكنَّها عادت وتابت لتسجِّلَ صفحةً مشرقةً مضيئةً في حياتها.

ومع هذا؛ فالعار دائم، والسُّبةُ خالدة، والقرآن يقصُّ علينا هذه الحادثة ليعتبرَ بذلك المعتبرون والمعتبرات، فيأخذوا حذرهم، ولكن؛ ما أكثر العبر! وما أقلَّ المعتبرين !

طَلَبُ الملك ليُوسُفَ ثانية

لَمَّا تحقَّق الملكُ من براءة يُوسُفَ، ووقف على صحَّة عفَّتِه، وعرف علمه، وعلم صبره؛ ازداد شعوراً بالانعطاف إليه، فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ﴾ أي ائتوني بيُوسُفَ سراعاً أجعله من خاصَّتي وأهل مشورتي.

فَآبَ الرَّسولُ إلى يُوسُفَ، وأنبأه بما كان من أمر براءته، وأنَّ الملك يكرِّرُ طلبَه

إليه، فآنسَ يُوسُفُ عندئذٍ أنَّ بإمكانه الخروج من ظلمة السجن ـ قبر الأحياء ومنزل الابتلاء ـ والعيش في النُّور والضِّياء بعد أن ظهرت براءتُهُ كالشّمس في ضحاها وكالقمر إذا تلاها.

يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ في بلاط الملك

وخَرجَ يُوسُفُ من السِّجن إلى بلاط ملكِ مصر معزَّزاً مكرَّماً، وما أن كلَّم الملكَ حتَّى قال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ قريبُ المنزلةِ رفيعُ الرُّتبة، مؤتمنٌ على كلِّ شيء؛ لما رأى من حسن منطقه، وبلاغة قوله، وأصالة رأيه، ووفور عقله.

وكان يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ قد ذاقَ مَرارةَ العيش وجرَّب البُؤسَ والحرمان ولم ينس بعد ما جرى عليه فيما مضى، ولم ينسَ رؤيا الملك، فتصوَّرَ ما سيجري على النَّاسِ في سنيِّ القحط من هوان إذا لم يُحسَبْ لهنَّ الحساب، فلمَّا سمع كلام الملك: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ وأنَّه يعْرض عليه المنْصِبَ، رغب أنْ يتولَّى شؤون مصر لينقذ البلادَ وما حولها من شرِّ المجاعة المقبلة رحمةً بالنَّاسِ، لا سيما وأنَّه آنس في نفسه القدرة والعلم.

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ أمينٌ كما عهدتني ﴿ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ بوجوه التَّصرُّف الأحوط والأرشد.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي وهكذا مكَّنَّا ليُوسُفَ في أرض مصر، وجعلنا له العزَّ والسُّلطان بعد الحبس والضِّيق والحرمان.

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ يتصرَّف في مملكة مصر كما يريد، ويتقلَّب فيها معزَّزاً.

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ كيُوسُفَ، فهو خَلِيقٌ بالأَجْرِ والثَّوابِ لأَنَّه كان محسناً، والمستقبل نتيجة الماضي، فرحمتنا ثمرة إحسانه السَّابق، و﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[الرَّحمن]

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ تنبيه إلى أَنَّ المحسنينَ لا يفوتهم جزاء إحسانهم، فمَن يؤمن بالله تعالى ويعمل الصَّالحات، ويغرس في مغارس الخير؛ فإن الله تعالى لا يضيع أَجْرَ من أحسن عملاً.

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ وأجـلُّ بكثيـر ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ كيُوسُفَ وأمثالِه.

وهكذا أُسْدِل السِّتارُ على قصَّة امتحان يُوسُفَ بالشِّدَّة بتولِّيه خزائن أرض مصر، ويكون بذلك قد انتقل من الاختبار بالبلاء إلى الاختبار بالرَّخاء.

وقد اخْتُبِرَ ـ عليه السلام ـ بالشَّر ليظْهر الصَّبْر، وبالخير ليتبَيَّن الشُّكر.

تعلَّمْ عدَم الحسد

نتعلم عدم الحسد لَمَّا نَعْلَم أنَّه يوجد في التَّاريخ مَنْ كان عبداً اشتري بالمال، ثمَّ دخل السِّجن أعواماً، ثم ترقَّى بعد ذلك إلى أرفع الدَّرجات، وصار في أحسن الأحوال:

دعِ المَقادِيرَ تَجري فِي أَعِنَّتِها ... ولا تَبيتَنَّ إلَّا خَاليَ البالِ

ما بَيْنَ رمشةِ عَيْنٍ وانتباهتِها ... يُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالٍ إلى حَالِ

الحديثُ أدلُ على الرَّجلِ من لباسه

حينما علم ملكُ مِصْر أَمْرَ يُوسُفَ، قال: ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ وحينما أجرى التَّحقيق، قال: ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ فلمَّا جاءه وكلَّمه وناقشه وسمع بيانه رفع محلَّه

ومكانه ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ في ملكي ﴿أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ على تدبيره.

فقد كان يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ مِلءَ الأُذن كما هو ملء العين، وملء المسامع والنُّهى، وحقّاً الحديثُ أدلُّ على الرجل من لباسِه، وصدقاً المرءُ مخبوء تحت لسانه؛ لذلك قال أحدُ الحكماء لجليس له: " تكلَّم لأعرفك ".

تمكينُ يُوسُفَ في الأرض

كان تمكين يُوسُفَ في الأرض أوَّل الأمر خاصّاً بأمكنةٍ محدودة ومعلومة، وهذا هو المذكور في سابق قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، ولم يطل ، حيث سُجِنَ؛ بخلاف التَّمكين الثَّاني المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ فإنَّه تمكينٌ عامٌّ شاملٌ، وقد طال وحَسُن.

ردُّ دعوى زواج يُوسُفَ بامرأة العزيز

ذكر بعضُ المفسِّرين أنَّ يُوسُفَ تزوَّجَ بامرأة العزيز، وشاع عند القصَّاص أنَّ امرأة العزيز (زليخا) عادت شابة بكراً بعدما كانت ثيِّباً غير شابَّة، وهذا كما قال الألوسي في تفسيره: ممَّا لا أصل له، قال: "وخبر تزوجها أيضاً ممَّا لا يعوَّل عليه عند المحدِّثين "[1].

ولا نرى أنَّه يليقُ أن يتزوَّج يُوسُفُ بها، فمعلومٌ أنَّ زوجة كلِّ رسول هي أمٌّ لأفراد أمَّته؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ...﴿٦﴾ ﴾[الأحزاب]، ولا يليق أن تكونَ امرأةُ العزيز أمّاً للمصريين آنذاك.

---

(١) الألوسي " روح المعاني " (م٧ / ج١٣/ ص٥).

خضوعُ المؤمن وموالاته لغير المؤمن

لا يبيحُ الإسلام للمؤمن أن يخْضَعَ لغير المؤمن في غير ضرورة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ...﴿٥٩﴾﴾ [النِّساء]

فهذه الآية تبيِّن أنَّه لا ينبغي للمؤمن الخضوع سوى لله تعالى والرَّسول ـ ﷺ ـ وأولي الأمر من المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النِّساء].

والمراد عدم الجواز في حالة الاختيار، وأمَّا في حالة الاضطرار؛ فهو جائز، ويُوسُفُ ـ عليه السلام ـ مضطرٌّ أن يكون تحت إمرة غير المؤمنين؛ فهو على كلِّ حالٍ ووجهٍ سيكون تحت إمرة الملك في أرض مِصْرَ.

ولسائل أن يسأل: كيف يجوز ليُوسُفَ أن يكون تحت سلطة الملك غير المؤمن، وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ...﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران].

فنجيبه عن ذلك: أنَّ الاتخاذ لا يحرم إلّا إذا كان ضد المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران]

ونفهم من قول يُوسُفَ لملك مصر: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ ليخدم البلاد والعباد، جواز مساعدة غير المسلم ضمن حدود الله تعالى الَّتي بيَّنها بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ...﴿٢﴾﴾ [المائدة]

يُوسفُ النبيُ والرَسول

لم يجلس يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ على كرسيِّ المنصب الذي وُكِلَ إليه مسند الظهر مسترخياً، ولم ينثنِ شَبْعاناً على أريكته، ولم يتَّخذ المنصب مغنماً، وإنَّما نظَّم أمر البلاد،

وأدار شؤونها، فخطَّط للزِّراعة والإنتاج، وادَّخر في سنوات الخصب الحَبَّ في سنبله ليواجه سبع سنوات لا زرع فيها ولا ضَرْع، ودبَّر لعدالة التَّوزيع، وضمن الكفاية بلا تقتير ولا تبذير، ودعاهم إلى الإيمان والتَّوحيد، فدفع الله به الشِّدَّة عن النَّاس، ونجَّى الله تعالى به مِصْرَ في أشدِّ أيَّام جدبها من المجاعة المهلكة.

وبذلك يكونُ يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ قد أدَّى الأمانة، وبلَّغ الرِّسالة، لكنَّهم لم يجيبوه في مسألة الدَّعوة إلى التَّوحيد والإيمان قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ... ﴿٣٤﴾﴾ [غافر].

مَجِيءُ إخوة يُوسُفَ مِصْر لشراءِ القمح

صَدَقَ تفسيرُ يُوسُفَ بمجيء السِّنين السَّبع الخصبة، ثمَّ تلتها سِنُو الجوع، فأصاب أهلَ مِصْرَ وما جاورها من البلاد، وخاصَّة فلسطين، الجَدْبُ والقَحْطُ.

وكان يُوسُفُ قد وفَّر من أقواتِ مِصْر ما يُبَاعُ لجيرانها، فورد النَّاسُ على يُوسُفَ من سائر البلاد يبتغون الميرة (الطَّعام)، وعلم يعقوب ـ عليه السلام ـ وبنوه أنَّه يوجدُ قَمْحٌ في مصر، فأرسلهم جميعاً ليمتاروا ما عدا (بنيامين) شقيق يوسف لأبيه وأمِّه، لم يقدرْ على فراقه.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ أي ودارت الأيَّام وكرَّت الأعوام، فجاءت سِنُو القحط الغَبْراء، وجاء إخوة يُوسُفَ مصر، وهذا من اختصار القرآن المعجز، ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾: على يُوسُفَ، المشرف العام على خزن الغلال، ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ يُوسُفُ؛ لأنَّ صورهم كانت قد طُبِعَتْ في ذاكرته وهم كبار، فلم يطرأ على ملامحهم ذلك التغيُّر، ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ لم يعرفوه لهيبة الملك، وبعد العَهْد، وتغيُّر الملامح والتَّقاسيم، وظنِّهم هلاكه.

وقد أخبر الله تعالى عن معرفة يُوسُفَ لإخوته بالجملة الفعليَّة ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ لإفادة التَجدُّد، فقد تجدَّدت معرفته لهم من أوَّل الأمر، وأخبر عن جهلهم به بالجملة الاسميَّة ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ لإفادة الثُّبوت والاستمرار، فهم ثابتون على جهلهم بيُوسُفَ، ويلاحظ أنَّ بين ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ و ﴿ مُنكِرُونَ ﴾ طباق إيجاب بديع.

مطالبة يُوسُفَ إخوته بإحضار أخيهم

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾، وأوقر ركائبهم بما جاؤوا لأجله من الطَّعام وأوفى، وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم، ودفعوا الثَّمن، ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ولم يقل: بأخيكم؛ مبالغة في إظهار عدم معرفته بهم.

ويظهر أنه قد سألهم عن أحوالهم، فأخبروه عنها بالتَّفصيل، فلذا ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ لأراه، وهذه الجملة كانت بمثابة لُغزٍ مِن يُوسُفَ لأبيه لا يحلُّه إلَّا يعقوب ـ عليه السلام ـ، فمتى نُقِلَت إليه وضعت يده على طرف الخيط الذي يدلُّ على يُوسُفَ، فما حاجة عزيز مِصْرَ لرؤية أخيهم؟! ولذلك سيأتي له أن يقول لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ ﴾ لِمِصْرَ ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾، فهو يظنُّ يُوسُفَ هناك.

إغراء وتحذير

ثمَّ أخذ يحبِّب ويرغِّب إليهم المجيء ثانية مع أخيهم، فقال لهم بلهجة السُّرور: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ ﴾ الذي تكتالون وأزيده ولا أبخسه ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ خير المضيفين.

وبعد هذا التَّشويق قال محذِّراً: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ ﴾ كما اتَّفقنا، ﴿ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ ليس لكم عندي طعامٌ أكيله مستقبلاً ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ في بلادي

مصر، فعلى إتيانكم بأخيكم يتوقف كيلي لكم، بل دخولكم مصر، فتصريح الدُّخول هو أخوكم وإلّا أُرْجِعتم.

ولا يغيب ذلك الارتباط الوثيق في القصَّة بين مصر وفلسطين، فقد جرت أحداثها بين البلدين، وكانت مصر ظهراً لفلسطين في ضائقتها، وملجأ لأهلها، وعوناً لهم في الأزمة، وسنداً لهم في الشِّدَّة .

نقض قولهم يُوسُف يَمُنُّ على إخوته

قَوْلُ يُوسُفَ: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٦٢ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣﴾ [البقرة].

وعلى هذا؛ فإن قال قائل: كيف يمنُّ يُوسُفُ على إخوته بما جاد به عليهم؟

فالجواب أنَّ يُوسُفَ لم يقصد الفخرَ والإعجابَ والمنَّ، ولكنَّه أراد ترغيبَهم في العودةِ ثانية مع أخيهم من أبيهم، ولعلَّ ما يؤكِّد ذلك أنَّه أتبع الإغراء بالتَّحذير، فهذه الآية والَّتي بعدها، يمثلان بابيّ الإغراء والتَّحذير، اللَّذين يذكران في علم العربيَّة، وغرضه الاستحواذ على شقيقه فقط.

وَعْدٌ وموافقة

﴿قَالُواْ﴾ لِيُوسُفَ بلسان الوعْدِ والموافقة: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ونحتالُ بكلِّ حيلةٍ لإقناع أبينا بإرساله معنا المرَّة الثَّانية، ولسوف نجتهد ولا ندَّخر جهداً، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾ إنْ شَاءَ اللهُ تعالى، فنحنُ نبدأ وعلى الله تعالى التَّمام، وعلى هذا نفترق، والتَّوفيق من الرَّحمن.

يُوسُفُ يسعى لضمان مجيء أخيه

﴿ وَقَالَ ﴾ يُوسُفُ ﴿ لِفِتْيَـٰنِهِ ﴾ غلمانه وخدمه: ﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ ﴾ الثَّمن الذي اشتروا به الطَّعام ﴿ فِى رِحَالِهِمْ ﴾ في أوعيتهم سرّاً؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾ ويطَّلعون عليها ﴿ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ ﴾ راجعين ﴿ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ ﴾ وفتحوا أوعيتهم؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ إلينا ثانية، ففعل فتيانه ما أمرهم به.

ليس مِنْ رَسُولٍ كالدِّرهم

لا يخفى أنَّ ردَّ يُوسُفَ الثَّمن كان وسيلةً لضمان عودتهم ثانية بشقيقه، ولكن كيف؟!

الجواب: إمَّا بوقوفهم على بالغ إكرامه لهم، فيرجعون طمعاً في برِّه وحسن معاملته، أو أنَّهم إذا وجدوا الثَّمن تحرَّجوا من أخذه، فدينهم يحملهم على ردِّ الثَّمن وردِّ الأمانة إلى أهلها، فيكون ذلك أدعى لهم إلى العودة ثانية.

لماذا لم يُظْهِر يُوسُفُ نفسَه لإخوته؟

فإن قيل: لماذا لم يظهِرْ يُوسُفُ نفسَه لإِخوته ويعرِّفْهم بجليَّة الأمر؟!

فالجواب: أنَّ وقت تحقُّق رؤيا يُوسُفَ المكتوب والمعلوم في اللَّوح المحفوظ لم يحن بعد، وأنَّه لا بدَّ لهم من دروس يتلقَّونها، ويُوسُفُ بعمله هذا مسخَّر للقدر العدل من الله العدل.

كما أنَّه لو فعل ذلك لأمكن ألَّا يعودوا إليه ثانية، وأن يخفوا ما سمعوا عن أبيه وأخيه، أو أنَّه خشي منهم الإساءة له أو لأخيه.

ففي تدبير يُوسُفَ وحبكه لحضور أبيه وأخيه دلالة ذكاء عظيم وتدبير رائع.

كُنه البِضاعة

اختلف المفسِّرون في حقيقة وكُنْه البضاعة الَّتي اشترى بها أولادُ يعقوب مِيرَتهم، هل هي: دراهم، فضَّة، جلود... الحاصل أنَّها ثمنٌ للميرة.

الإخوةُ يطلبونَ أخاهم مِنْ أبيهم

قام إخوةُ يُوسُفَ من مِصْرَ، وركبوا رحالهم يقطعون بطن الصَّحراء، إلى بلادهم أرض كنعان بفلسطين، وقد وقعوا بين مطرقتين: لا يدرون يوفون بعهدهم ويطلبون أخاهم، أم يسكتون خشيةَ أن يثيروا حزن والدهم على يُوسُفَ، ثمَّ إنَّهم رجَّحوا طلب أخيهم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿قَالُواْ﴾ بمجرَّد وصولهم وعليهم أمارات الضِّيق: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾ وأخرجوا كلامهم بصيغة الماضي ﴿مُنِعَ﴾ والمراد المستقبل؛ ليؤكِّدوا لأبيهم المنع.

أي إنَّ عزيز مِصْرَ منع منَّا الكيل بعد هذه المرَّة؛ إلَّا أن نأتي بأخينا، ﴿ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ ...﴾، وقول يُوسُفَ هذا يؤخذ منه أنَّ أولاد يعقوب ليسوا من أمٍّ واحدة ، ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا ﴾ حسبَ اقتراحه ﴿ نَكۡتَلۡ﴾ من الطَّعام، والأصل نكتال، لكن الفعل مجزوم لأنَّه جواب الطَّلب، وعلامة جزمه سكون آخره، فحذفت الألف منعاً لالتقاء السَّاكنين.

وقد تلطَّفوا وترفَّقوا بالقول لأبيهم حيث قالوا: ﴿أَخَانَا﴾ إظهاراً لمحبَّتهم له وإشفاقهم عليه، ثمَّ أكَّدوا ذلك، فقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ ﴾ أكَّدوا حفظه بحرف التَّوكيد إنَّ، وبالجملة الاسميَّة الدَّالة على الثَّبات والاستمرار، أي أنَّهم دائمون على حفظه.

جَوابُ يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ فما أشبهَ الليلةَ بالبارحة! فلا أخالُ وعدكم بحفظ أخيكم إلَّا كوعدكم سابقاً بحفظ يُوسُفَ، وما رأيتُ من حفظكم شيئاً؛ لذا فأنا لا أثق كثيراً بحفظكم ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤) ﴾ فأسأله ألَّا يجمعَ عليَّ مصيبتين.

ويظهر أنَّ جملة ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٦٣) ﴾ ما زالت ترنُّ في أذنِ يعقوب ـ عليه السلام ـ من يوم أخذوا يُوسُفَ؛ لذلك أسندَ هذه المرَّة الحفظ للحافظ، قال: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ ، ومعناه: لا أعتمد على حفظكم له، فحفظُ الله تعالى خيرٌ من حفظكم.

ولم يكن خوف يعقوب ـ عليه السلام ـ على ابنه لِصِغَرِ سِنِّه أو من ذئب أو نحوه، ولكن الخوف من رجالٍ عشرة عَهِد منهم سابقاً ما يدعو إلى الخوف ويقود إلى الحذر، لا سيَّما أنَّه لم يعاقبهم المرَّة الأولى على إيقاعهم بيُوسُفَ ممَّا قد يجرِّئهم على أخيهم الآخر.

إغراءُ الإخوة لأبيهم

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ ﴾: أي ولمَّا حطُّوا رحالَهم وفتحوا الأوعية التي وضعوا فيها الميرة ﴿ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ ﴾ الَّتي أخذوها معهم ثمناً للميرة قد ﴿ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ ﴾.

عندها توجَّهوا بالحديث لأبيهم وبِلِسَان الظَّافر بما يبرهن كلامه، ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ ﴾ وأي شيء نَطْلُبُ من إكرام العزيز أعظمَ من هذا الإكرام؟

﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ ﴾ وهو من تَسْمِيَة الشَّيء بما كان عليه، وهو مجاز

مرسل على اعتبار ما كان، فالبضاعة كانت لهم، والمعنى هذا ثمن الطَّعام قد رُدَّ إلينا من حيث لا نشعر، أوفى لنا الكيل، وأحسن إلينا، وردَّ لنا الثَّمن! أليس هذا داعياً لأن نوفي له بما طلب؟!

وَعَدا عن ذلك كلِّه ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ فنحن إذا ذهبنا ثانية مع أخينا نأتي بالطَّعام لأهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من المكاره، فلا تخش عليه، وكرَّروا حفظ الأخ مبالغةً في الحضِّ على إرساله.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا؛ لأن العزيز لا يبيع للشَّخص الواحد إلَّا حمل بعير اقتصاداً وتوفيراً، فباستصحابنا لأخينا نزداد حمل بعير، فإرساله معنا أربح وأجدى.

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ وسهلٌ على العزيز إعطاؤه؛ لجودِه وبالغِ كرمِه، ومع ذلك فالأمر راجع إليك.

وأولى الأمور بالنَّجاح التّكرار والإلحاح، فلم يبرحوا يجادلون أباهم جدال طَلَب، وهو يجادلهم جدال إباءٍ وامتناع، حتَّى نزل عند رغبتهم مشترطاً عليهم لإرساله معهم أن يُعاهِدوه على إرجاعه له سالماً، ففعلوا.

الإخوة يَقطَعُونَ المواثيق على أنفسِهم

﴿قَالَ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لن أرسِلَ أخاكم مَعَكُم إلى مِصْرَ حتَّى تعطوني عهداً مؤكَّداً باليمين بإشهاد الله تعالى، وهو الحلف به، ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ ولترجعنَّهُ لي على أيِّ حالٍ كنتم؛ إلَّا في حالةٍ واحدة، وهي ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أن تهلكوا عن آخركم بقدر واقع، ما له من دافع.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ ﴾ أي فلمّا أعطوْه المواثيق والعُهُودَ المؤكَّدة بالأيمان أنّهم سيردُّون أخاهم إلَّا أن يُحاطَ بهم،﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦ ﴾ أي شهيد عليَّ وعليكم.

وهكذا نجحوا في أخذه كما أخذوا يُوسُفَ مِنْ قبل، لكنَّ نيَّتهم في هذه المرَّة صالحة، وقلوبهم سليمة.

مَعْرِفَةُ الوقْف والابتِداء

معرفة الوقف والابتداء والقطع والاستئناف علم نبيل يُؤْمَنُ به من الوقوع في الخطأ الجليل، فعلى المسلم أن يتعلَّم ما ينبغي أن يُوقَفَ عنده لمعرفة المعاني على مراد الله تعالى، ومن شواهد ذلك، قوله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦ ﴾ فيوقف على ﴿قَالَ ﴾ وقفة لطيفة؛ لئلّا يُتَوهَّم أنَّ الفاعل لفظ الجلالة، وإنَّما الفاعل يعقوب ـ عليه السلام ـ.

ولذلك فقد أكَّد بعض العلماء الوقف على قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ ﴾ والابتداء بقوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾ حتَّى يتبيَّن الفصل بين الخبرين، فالله تعالى أخبر أنّ امرأة العزيز همَّت، وأخبر أنّ يُوسُفَ لم يهمّ لرؤيته برهان ربّه.

فقراءة الوقف تزيل توهّم أن الخبر واحد.

الحذر لازمٌ بجانب القدر

كان يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ قد سمح بذهاب يُوسُفَ معهم ليرْتَعَ ويَلْعَبَ دونَ شرطٍ أو قيدٍ، ولا عَهْدٍ ولا ميثاق، فرأى مغبَّة وخطورة ذلك، ولذلك احتاط وتحفَّظ في أمر شقيقه؛ لئلا يكون أَسِيرَ الحسْرَة والنَّدامة، وحبيس التَّلهُّف والأسى، ومع هذا

ما أغنى عنه ذلك شيئاً.

فنتعلَّم من هذا أنَّ الحذر لا يدفعُ القَدَرَ، ولا يردُّ شيئاً قضاه الله، وإن جَهِدَ العبد جَهْدَه؛ فما أراده اللهُ تعالى نافذٌ لا محالة، ومع هذا ينبغي لنا الاحتياط والحذر بجانب القدر؛ أخذاً بالأسباب، ولذلك قال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: " لا يغني حَذَرٌ مِن قَدَر، والدُّعاء ينفع ممَّا نزل، وممَّا لم ينزلْ، وإنَّ البلاء لينزل فيتلقاه الدُّعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة"(١).

وصيَّةُ يَعْقُوب ـ عليه السلام ـ لأولاده

وتجهَّز أبناءُ يعقوب للرَّحيل، وقبل أن يمضوا أوصاهم أبوهم يَعْقُوبُ بلهجة التحبُّب والنُّصح: ﴿ يَبَنِيَّ ﴾ الأحدَ عَشَرَ رجلاً ﴿ لَا تَدْخُلُواْ ﴾ مِصْرَ ﴿ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ مجتمعين، فتسرع إليكم عيونُ الحاسدين كونكم أبناء رجلٍ واحد ﴿ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾؛ فذلك أحوط وأحرز لكم.

وقوله: ﴿ لَا تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ فيه إطناب، وهو في علم المعاني: زيادة اللَّفظ على المعنى، وفائدته تمكين المعنى من النَّفس، وفي قوله: ﴿ لَا تَدْخُلُواْ ﴾ و ﴿ وَادْخُلُواْ ﴾ طباق سلب بديع.

مع ذلك: ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ﴾ أمر ﴿ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فهذا التَّحذير والتَّدبير لا يغني من قدر الله تعالى، فما أنا مغنٍ عنكم نقيراً ولا فتيلاً، ولا أملك لكم من قطمير، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا قضى فلا رادَّ لقضائِه ولا معقِّبَ لحكمه.

ولم يبيِّن يعقوبُ ـ عليه السلام ـ لأبنائه علَّة هذا التَّحذير، والحكمة من هـذه الوصـيَّة، لكنَّه قدَّم حقيقة إيمانيَّة: ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ قدَّره عليكم.

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج١/ ص٤٩٢) كتاب الدّعاء، وقال الحاكم: هذا حديث صـحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه.

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ ﴾ والقضاء الفعليُّ ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ بعد أخذي بالأسباب كما أمر، ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

التوكُلُ محلُه القَلْب

والأخذ بالأسباب مع التَّوكُّل على الله تعالى فرضٌ دينيٌّ؛ لذلك نرى يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ يجمع بين الأخذ بأسباب السَّلامة والتوكُّل، ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ... ﴾ الآية.

والتوكُّل: هو اعتماد القلب على الله تعالى وحده، فلا ينفع العبد قوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ... ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود]، وهو معتمدٌ على سواه؛ كمن ينطق بالتَّوبة وهو مصرٌّ ومضْمِر على المعصية، فتوكُّل اللِّسان شيء، وتوكُّل القلب شيء آخر.

قُلوبُ العارفين لها عيونٌ

أَذِنَ يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ بإرسال أخيهم لمقابلة عزيز مِصْر، ولكنَّه كان يتوجَّس أمراً، ويتوقَّع حدثاً، ويتخيَّل كرباً سيلاقُونَه، ونفهم هذا من قولِه: ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾.

وهكذا المؤمن الحقُّ دليله قلبُه، فيعقوب ـ عليه السلام ـ يحسُّ بشيء سيجري لأولاده قبل أوانه، لذا نراه ينصحهم فيقول لهم بلسان الشَّفقة والمحبَّة: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ وقد أحسن القائل:

قُلـــوبُ العَارفـينَ لهـا عيـون   ترى مـا لا يـراه الناظرونا

" العين حقٌّ "

قول يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ ﴾ في سبب أمره لهم بالتَّفرُّق أقوال، ولعلَّ أظهرها أنَّه خاف عليهم من إصابة العين إنْ دخلوا مجتمعين، وفي هذه الآية أنَّ العينَ حقٌّ، وأنَّ الحذرَ لا يردُّ القدرَ، ومع ذلك لا بدَّ من مراعاة الأسباب.

ومن هنا فلا بأس بتخوُّف المؤمن من الحسد وإصابة العين، وأخذ أسباب السَّلامة والنَّجاة منها مع اليقين أنَّ ذلك لا يدفع قدر الله تعالى.

والعين كما قال ابن حجر: " نظرٌ باستحسان مشوبٌ بِحَسَدٍ من خبيث الطَّبع يحصل للمنظور منه ضررٌ "[1]. قلت: والعين إنَّما يقع ضَرَرُها عند نظر العائِن بإذن الله وقدره، لا بفعل العائِن.

والعين وإصابتها وتأثيرها حقٌّ بأمر الله تعالى، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: " العَيْنُ حَقٌّ "[2] أي الإصابة بالعين شيء ثابت لا مرية فيه.

والحاسد له تأثير في أذى المحسود دون ريب، قال تعالى للنَّبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ ...(٥١) ﴾ [القلم] ، وقال تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [الفلق] فبيَّن الله تعالى أنَّ للحاسد شرّاً، وأرشد إلى استدفاعه باللّجوء إليه سبحانه.

بل إنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال " أكثر مَنْ يَمُوتُ مِنْ أمَّتي بعد كتابِ الله و قضائِه وقدرِه بالأنْفُس "[3] يعني بالعين .

---

(١) ابن حجر " فتح الباري " (ج١٠ / ص١٦٣) كتاب الطِّب.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤ / ج٧ / ص٢٤) كتاب الطِّب.

(٣) أخرجه الطيالسي بإسناد حسن عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه في " مسند أبي داود الطيالسي ـ " (ص٢٤٢/ رقم١٧٦٠) والحديث أورده الهيثمي في " مجمع الزوائد "=

وقد أنكر العَيْنَ والحسد طوائفُ المبتدعة، وأصحابُ مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم ومَن قلَّ علمه، وطالما أنَّ الشَّرعَ أَخْبَرَ بوقوعه لم تكن لإِنكاره فائدة ولا معنى، بل يجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه.

فلا ينبغي لمسلم إنكار تأثير العين في الأجسام؛ فإنَّه أمرٌ معلوم مشاهد؛ كما يحدث للوجه إذا نظر إليه مَنْ يستحي منه يحمرُّ حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكما يحدث للوجه إذا نظر إليه مَنْ يخاف منه، يصفرُّ صفرة لم تكن قبل ذلك، وكثير من الناس يَمْرَضُ وتَضْعُفُ قواه بمجرَّد النَّظر إليه.

وهناك صنفان من الأفاعي معلومٌ أنَّهما يَسْتَسْقِطَانِ الحَبَلَ، أي أن المرأة الحامل إذا نَظَرَتْ إليهما وخافت أسقطت الحمل غالباً ووضعت ما في بطنها، ويخطفان البصر ويطمسانه أيضاً بمجرَّد نظرهما إليه؛ لخاصة جعلها الله تعالى في بصريهما إذا وقع على بصر الإنسان، ويؤيد هذا ما رواه مسلم عن سالم عن أبيه عن النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ قال:

"اقتلُوا الحيَّاتِ وذا الطُّفيَتَيْنِ[1] والأَبْتَرَ[2]؛ فإنَّهما يَسْتَسْقِطَانِ الحَبَلَ، ويلْتَمِسَان البَصَرَ. قال: فكان ابنُ عمر يقتُل كلَّ حيَّة وجدها، فأبصرَه أبو لُبابَةَ بن عبد المنذر أو زيدُ بن الخطَّاب، وهو يطارِدُ حيَّةً، فقال: إنَّه قد نهى عن ذوات البيوت"[3].

مشروعيَّة الرُّقية من العين

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: " أمرني رسُولُ الله ـ ﷺ ـ أو أَمَرَ أن

=(ج٥/ ص١٠٦) وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصَّحيح خلا طالب بن حبيب بن عمرو، وهو ثقة. وقال الحافظ في " فتح الباري " (ج١٠/ ص٦٧): أخرجه البزار بسند حسن. وهو في" سلسلة الأحاديث الصحيحة " للألباني (م٢/ ص٣٨٤/ رقم٧٤٧).

(١) هما الخطَّان الأبيضان على ظهر الحيَّة.

(٢) حيَّةٌ خبيثة قصيرةُ الذَّنب.

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النَّووي " (م٧ / ج ١٤/ ص٢٢٩) كتاب قتل الحيَّات ونحوها.

يُسْتَرقى مِنَ العين"[1]. وعن أمِّ سَلَمَةَ ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ رأى في بيتها جاريةً في وجهها سَفْعَةٌ[2]، فقال: " استرقوا لها فإنَّ بها النَّظْرَةَ[3]"[4]

وعَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ، قَالَتْ: " يَا رَسُولَ الله، إِنَّ وَلَدَ جَعْفَرٍ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ الْعَيْنُ أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ"[5] ومن ذلك نفهم مشروعيَّة الرُّقية من العَيْن.

عادات الأمَم في دَفْع إصَابة العَين

اختلفت عاداتُ الأمم في دفع إِصابة العَيْن والحسد، فمن النِّساء من تُسلِّح طفلها بخرزة زرقاء، ومن النِّساء من تعلِّق فوق مهده أو باب غرفته نعلاً صغيراً، ومن النِّساء من تعلِّق على صدره قطعة نقود، ومن النِّساء من تصنع له حجاباً أو حرزاً فيه بعض الطَّلسمات، أو تضع في غرفته منظراً على شكل كفِّ اليَد وقد رُسِمَت في وسطه عينٌ إنسان... وكلُّ هذه خزعبلات وخرافات وبدع وضلالات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان.

وهناك من يقوم بالنَّقر على الخشب لدفع إصابة العين، ومن النَّاس من يبخِّر البَخُور، ومن النَّاس مَنْ إذا خَافَ السِّحر أو الحسد سقاه أهله ماء في إِنَاءٍ من نحاس يُعْرَف عند العوامِّ باسم (طاسة الرَّعبة) وقد حُفِرَ على هذا الإناء بعض الطَّلاسم والصُّور والآيات والكلمات المقلوبة، وهذا كلُّه ليس من الدِّين في شيء.

---

(١) البخاري " صحيح البخاري" (م٤/ ج٧ / ص٢٣) كتاب الطِّب

(٢) أي صُفرة وشحوب في الوجه.

(٣) اختُلِفَ في المراد بالنَّظرة، فقيل: " عين من نظر الجنِّ، وقيل: من الإنس " والحاصل العين عينان، عين إنسيَّة، وعين جنيَّة والنَّبيُّ ـ ﷺ ـ أَذِنَ في الاسترقاء من العين.

(٤) البخاري " صحيح البخاري" (م٤/ ج٧ / ص٢٣) كتاب الطِّب.

(٥) التِّرمذي "الجامع الصّحيح وهو سنن التِّرمذيّ" (ص٥٩٩/ رقم٢٠٦٤)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَاب عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَبُرَيْدَةَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وعلاج الحسد ودفع أذى العين موجود في الكتاب الكريم والسُّنَّة المطهَّرة، فمِمَّا يدفع به هذه العلَّة التعوُّذات والرُّقى، ومن التعوُّذات والرُّقى: الإكثار من قراءة المعوِّذتين: الفلق، والنَّاس. فالمعوِّذتان نزلتا لإبطال واكتساح تأثير السِّحر والحسد، فقد أخرج التِّرمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: " كَانَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ يَتَعَوَّذُ مِن الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا "[1]

وقد أرشد النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ إلى الاستعاذة من الحسد قبل وقوعه، فقد كان يعوِّذُ الحسن والحسين، أخرج البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَاكُمَا[2] كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ[3] وَهَامَّةٍ[4]، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ[5]"[6]

ومن علاج الحسد قبل وقوعه الاحتراس والاحتراز منه، وذلك بِسَتْر محاسن مَنْ يخاف عليه العَيْن بما يردُّها عنه.

ومن الرُّقى المشروعة رُقيةُ جبريل ـ عليه السلام ـ للنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ الَّتي رواها مسلم عن أبي سعيد: " أنَّ جبريل أتى النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ، فقال: يا محمَّد، اشتكيتَ؟! فقال: نعم. قال: باسْمِ الله أرقيكَ، من كلِّ شيءٍ يؤذيكَ، من شرِّ كلِّ نفْسٍ، أو عينِ حاسِد، الله

---

(١) التِّرمذي " الجامع الصَّحيح " (ص٥٩٩/ رقم٢٠٦٣)، وقَالَ أَبُو عِيسَى وَفِي الْبَاب عَنْ أَنَسٍ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٢) يريد إِبْرَاهِيم ـ عليه السلام ـ وَسَمَّاهُ أَبًا لِكَوْنِهِ جَدًّا.
(٣) المراد شياطين الإنس والجنّ.
(٤) الهامَّة: واحدة الهوامّ ذوات السُّموم.
(٥) العين اللَّامَّة: الَّتي تُصيب بسوء وشرّ.
(٦) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١١٩) كتاب أحاديث الأنبياء.

يشفيك، باسم الله أرقيك"[١].

وروى مسلم عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهَا قَالَتْ: " كَانَ إِذَا اشْتكَى رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ رَقَاهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَشَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ "[٢]

وممَّا ينفعُ بعد استحكام النَّظر أَمْرُ العائِن (المُصِيب بالعين) بالاغتسال عند طلب المعْيُون (المُصاب بالعين) منه ذلك؛ لما رواه الإمام مسلم عن ابن عباس عن النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ، قال: " الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا "[٣].

وصفةُ الغسل أن يُؤمَرَ العائِنُ بغسل: وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره (طرف إزاره الدَّاخل الَّذي يلي جسده من الجانب الأيمن) في قَدَح، ثمَّ يُصَبَّ ذلك الماء على رأس المَعِين (المحسود) وظهره من خلفه بغتة، ثمَّ يُكْفَأَ القدح.

قال ابن قيم الجوزية: "وهذا ممَّا لا يناله علاج الأطباء، ولا ينتفع به مَنْ أنكره، أو سخر منه، أو شكَّ فيه، أو فعله مجرِّباً: لا يعتقدُ أنَّ ذلك ينفعه "[٤].

وصفة الاغتسال وقعت في حديث سهل بن حنيف، أخرج أحمد بسند صحيح، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ:

" أَنَّ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ خَرَجَ وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشِعْبِ الْخَزَّارِ مِنْ الْجُحْفَةِ اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ـ وَكَانَ رَجُلًا أَبْيَضَ حَسَنَ الْجِسْمِ وَالْجِلْدِ ـ

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النَّووي " (م٧ / ج١٤ / ص١٧٠) كتاب السَّلام.
(٢) المرجع السَّابق.
(٣) المرجع السَّابق.
(٤) ابن قيم الجوزيَّة " الطِّب النَّبوي " ص١٣٤.

فَنظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخُو بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ، وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ؛ فَلُبِطَ[1] سَهْلٌ، فَأُتِيَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ، والله مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَمَا يُفِيقُ! قَالَ: هَلْ تَتَّهِمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، فَدَعَا رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ عَامِرًا فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟! هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ[2]، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اغْتَسِلْ لَهُ؛ فَغَسَلَ وَجْهَهُ، وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الماءُ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، ثمَّ يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ "[3]

وختاماً، إذا كان الإنسان يخشى ضَرَرَ عينه وإصابتها لأخيه؛ فليُبَرِّك إنْ رأى شيئاً أعجبه؛ ليدفع شرَّها، فإذا رأى نعمةً على أخيه المسلم، قال: اللَّهُمَّ بارِكْ عليه، أو قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون] أو قال: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ...﴿٣٩﴾﴾ [الكهف] اللَّهُمَّ بارك له فيما أعطيتَه، وارزقني خيراً منه ـ ونحو ذلك ـ؛ تفادياً للحَسَد، فإنَّه لا يضرُّه بالعين بإذن الله، وهي رقية منه.

فلا شكَّ أنَّ العائن إذا برَّك امتنع ضرره بإذن الله ربّ العالمين، وإذا اغتسل شفي معينه كما أخبر الصَّادق الأمين ـ ﷺ ـ، وهذه النُّبْذَة الواردة تكفي في هذه العارضة.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ على لِسَان يُوسُفَ ويعقوب

قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ورد في سُورة يُوسُفَ مرَّتين وبمعنيين، الأوَّل: على

---

(١) صُرِعَ وسقَطَ إلى الأرض.
(٢) دعوت بالبركة.
(٣) أحمد " المسند " (ج١٢/ ص٤٠٢/ رقم١٥٩٢٢).

لسان يُوسُفَ، وجاء بمعنى الحكم التَّشريعيّ، والثَّاني: على لسان يعقوب، وجاء بمعنى الحكم القدريّ.

فيُوسُفُ ـ عليه السلام ـ لَّما دعا صاحبي السِّجن إلى التَّوحيد، قال: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ ﴾، فقرّر لهما أنَّ الحكم التَّشريعيَّ لله وحده.

ويعقوب ـ عليه السلام ـ لَّما نهى أولاده عن الدّخول من باب واحد وأمرهم بالتَّفرّق، قال لهم في مقام الرِّضا بقدر الله: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ ﴾ فنصَّ لهم على أنَّ الحكم القدريّ لله وحده.

التقديرُ أقوى منَ التدبير

التزم الأولادُ وصيَّةَ أبيهم ممَّا يظهر لنا حُسْنَ طاعتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم ﴾ ﴿ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾، ﴿ مَّا كَانَ ﴾ ذلك التَّحفُّظ ﴿ يُغۡنِي ﴾ يدفع ﴿ عَنۡهُم مِّنَ ﴾ قدر ﴿ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ ﴾؛ فالتَّقدير غالبٌ للتَّدبير، والإنسانُ وديعةُ غَيْب، وأسير قَدَر ﴿ إِلَّا حَاجَةٗ ﴾ غاية ﴿ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ ﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين عنهم، وقالوا غير ذلك. قلت: والله تعالى أعلم بما كان في نفسه ـ عليه السلام ـ .

ثمَّ زكَّى الله تعالى علم يعقوب، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ أي وإنَّ يعقوب ـ عليه السلام ـ لذو علمٍ واسعٍ لأجل تعليمنا إيَّاه بالوحي والإلهام، فهو عامل بما عَلِم ، وهذا ثناءٌ من الله تعالى على يَعْقُوبَ.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ما عُلِّمَهُ يعقوب ـ عليه السلام ـ من الجمع بين الأخذ بالأسباب والتَّوكُّل.

يُوسُفُ يُعرِّفُ أخاه به ويتخذ التدابير لإبقائه عنده

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي ولمَّا وَفَدُوا على يُوسُفَ ودخلوا عليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ ﴾ضَمَّ إليه أخاه الشَّقيق في مجلس خاصّ.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ صارحه أنَّه أخوه يُوسُفُ، وطلب منه ألَّا يحزن ولا يتألَّم ولا يأسف على ما كانوا يفعلون؛ فقد قُدِّر عليهم أن يفعلوا ما فعلوه، ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ... ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر] وأعلمه أنَّه سيتَّخذ التَّدابير لإبقائه عنده باتِّهامه بالسَّرقة، وطلب منه أن يَكْتُمَ الخبرَ.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ ﴾ أي ولَّما قضى يُوسُفُ حاجتهم، وحمَّل عيرهم طعاماً وميرة ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ [1] فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ﴾كلَّف بعضَ غلمانه أن يدسُّوا صاع الملك في متاع أخيه دونَ أن يَعْلَمَ أحدٌ.

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ أي ولَّما ساروا في طريقهم عائدين فرحين إلى بلادهم، نادى عليهم منادٍ: أيَّتُها القافلة، يا أصحاب الإبل، رويداً، مكانكم، إنَّكم سارقون!

الإخوة يردُّون التُّهمة

فلمَّا سمع إخوة يوسف هذا الكلام؛ بغتوا، ودهشوا، فحوَّلوا عنان دوابِّهم مقبلين عليهم، ﴿ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم ﴾ أي على المنادي ومن معه: ﴿ مَّاذَا

---

(١) السِّقاية والصَّاع والصِّواع بمعنى واحد، يسمَّى سقاية لأنَّه يُشْربُ به، وصاعاً لأنَّه يُكالُ به.

﴿تَفۡقِدُونَ ٧١﴾ ماذا ضاع منكم؟

وفي قولهم: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١﴾ بدل: ماذا سرقنا؟ توجيه لهم إلى مراعاة حُسْنِ الأدب في الخطاب، وعدم المجازفة بنسبة السَّرقة إليهم، ولهذا التزموا الأدب معهم.

﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ وأضافوا الصّواع إلى الملك لتهويل سرقته ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ أي ولمن جاء بالصِّواع حمل بعير من الطَّعام مكافأة له ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ أي وأنا ضمينٌ، وكفيلٌ، يتعهَّد بتحقُّق هذا الوعد، والظَّاهر أنَّ الزَّعيم هو المؤذِّن.

﴿قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قسمٌ فيه معنى التَّعجُّب ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ وتحقَّقتم من أمانتنا في كرَّتي مجيئنا أنَّا ﴿مَّا جِئۡنَا﴾ مِصْرَ ﴿لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ونعيث في بلادكم، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ قطُّ.

وفي الآيتين تنبيه إلى ترك الإسراع في إلقاء التُّهم، والإقلاع عمّا لا يجوز من الكَلِم، وفيها ما يجب على الإنسان من ردّ البُهتان، ونفي البَاطل البيِّن البُطْلان.

من علوم المعاني الاعتراض

الاعتراض: هو أن يأتي في أثناء الكلام كلمة أو كلام لا محل له من الإعراب، لنكتة سوى رفع الإبهام، وزيادة اللَّفظ تمكّناً ، وإنَّما لإفادة معنى آخر، مع أنَّ اللّفظ يستقلُّ ويلتئم بغير الاعتراض، كتقرير إثبات البراءة في قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...٧٣﴾ فقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ اعتراض، والنّكتة فيه تقرير إثبات البراءة من تهمة السَّرقة.

وكالتَّنزيه في قوله تعالى : ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم

مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النّحل]، فإن قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ جملةٌ معترضةٌ، والنّكتة فيه تنزيه الله تعالى عمّا ينسبون إليه.

وكتعظيم شأن المقسم به في قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الواقعة] فإنَّ قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه؛ والنّكتة فيه تعظيم شأن المقسم به في نفس السَّامع، وفي قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ اعتراض آخر، وهو قوله تعالى: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فذانك اعتراضان، ولا يخلو اعتراض في القرآن الكريم من فائدة، وهو جارٍ مجرى التَّوكيد في كلام العرب، وبنحو الَّذي قلنا قال أهل المعاني.

ومن أمثلة الاعتراض من سورة يُوسُفَ، قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ فإنَّ قوله: ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ ﴾ جملة اعتراضيَّة بين ما وخبرها، فلو لم يكن هناك اعتراض، لكان: وما أكثر النَّاس بمؤمنين، والنّكتة فيه التَّأكيد على أنَّ هداية التَّوفيق بيد الله تعالى وحده.

مَشْروعيَّةُ الجَعَالة

الجَعَالة: من الشَّيء تجعله للإنسان على عمله، ومن الأجر تجعله على الشَّيء فعلاً أو قولاً، وهي عَقْدٌ جائز غير لازم، والأصل في مشروعيَّتها، قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ ﴾ ولأنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ أجاز أَخْذَ الجُعْل على الرُّقيَّة، أخرج البخاري عن أَبِي سَعِيدٍ ـ رضي الله عنه ـ، قَالَ:

"انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ

مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ[1] سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ؛ فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا؛ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟! فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَالله إِنِّي لَأَرْقِي[2]، وَلَكِنْ والله لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا؛ فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا[3]، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنْ الْغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ: الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ (عِلَّة)، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمْ[4] الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ[5] ؟! ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا[6] ، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ "[7]

الإخوة في مصيدة يوسف

وهنا قال المؤذِّن وأصحابُه: ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ ﴾ أي فما عقوبة وجزاء سرقة

---

(١) أي لُسِعَ من حيَّة أو عقرب، واللَّدْغ أكثر ما يستعمل في العقرب.
(٢) الرَّاقي هو أبو سعيد الخُدْريِّ ـ ﷺ ـ راوي الخبر، وقد فُهِم ذلك من طرائق أخرى للحديث.
(٣) الجُعْل: ما يُعْطَى على عمل.
(٤) ومقدار الجُعْل ثلاثون شاة كما صرَّح بذلك المصنّف في فضائل القرآن بلفظ آخر، وفيه: "فأمر له بثلاثين شاةً وسقانا لبناً ... " البخاري " صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٠٣) كتاب فضائل القرآن.
(٥) فأثبت أنَّها رقية، وفيه دلالة ظاهرة على فضل فاتحة الكتاب.
(٦) أمرهم بذلك لتطمئنَّ قلوبهم وتقرّ أعينهم بأنَّه حلال مشروع لا شبهة فيه.
(٧) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٥٣) كتاب الإجارة.

الصِّواع في شريعتكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ في ادِّعائكم البراءة منه، وهذا من باب تحكيم المرء في ذنبه.

﴿قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أَخْذُ ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامهُ ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ لا غير ـ وهذه الجملة تقريرٌ للحكم وتوكيد له ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ في شريعتنا نحن آل يعقوب بهذا الجزاء، فصرَّحوا له بتفتيش أوعيتهم، وهذا ما أراده يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ.

حُكْمُ السَّرقة في شريعة يَعْقوب ـ عليه السلام ـ

أخذ يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ أخاه منهم بتهمة السَّرقة، بعد أن أخذ هذا الحكم من أفواههم ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فيظهر أنَّ السَّارق كان يُؤْخَذ في شريعة يعقوب ـ عليه السلام ـ، ويُسَلَّمُ لمن سَرَقَ منه، ويدلُّك على ذلك، قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ...﴿٧٦﴾﴾، وقوله تعالى حكاية عن إخوة يُوسُفَ بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ ...﴿٧٨﴾﴾ فقد أخذه منهم بتهمته.

ولكن يبدو أنَّ هذا الحكم لم يكن عامّاً في كلِّ سرقة، فقد قال النَّبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: " إنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ، لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "(١)

ويؤخذ من هذا الحديث أنَّ إقامة الأحكام والحدود والعقوبات على الضُّعفاء

---

(١) البخاري " صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢١٣) كتاب المناقب.

وترك العظماء سبب في هلاك الأمَّة، فقد هلكت أُمَمٌ من الَّذين خلوا من قبل بسبب ذلك.

ما أعظمَ الفَرْقَ!

سبحانَك يا ربّ!! ما أعظمَ الفَرْقَ بين الأنبياء وسائر البشر! فيَعْقُوب لما نَعَى أولادُه له يُوسُفَ، و ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾، عزَّ على نفْسِه أن يصرِّحَ لهم بأنَّهم كاذبون، ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ ﴾ مع أنَّهم كانوا كاذبين، وهو يعتقد ذلك، ولكنَّه ثَقُل عليه أن ينعتهم بهذه الصِّفة.

وأمَّا مؤذِّن يُوسُف ومَنْ معه: ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ ﴾ هكذا واجهوهم ووصفوهم، مع أنَّهم كانوا صادقين، وفتيان يُوسُفَ يعلمون ذلك، فما أعْظَمَ الفَرْقَ! وما أعْظَمَ أَخْلاقَ الأنبياء! صلوات الله وسلامه عليهم.

ثُبوتُ السَّرقة على شَقيقِ يُوسُفَ

وعندما سمع يُوسُفُ الفتوى والجواب المنتظر من إخوته؛ اطمأنَّ قلبُه، ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ أخذ يفتِّش أوعيتهم بحثاً عن الصِّواع قبل وعاء شقيقه؛ إتماماً للحيلة، وتمكيناً لها، ودفعاً للتُّهمة والتَّواطؤ في القضيَّة،﴿ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا ﴾ أي السِّقاية ﴿ مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ وهكذا ثَبَتَتْ السَّرقةُ عليه.

﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ ﴾ أي كذلك كاد الله تعالى لأجْلِ يُوسُفَ ودبَّر له وألهمه الحيلة؛ ليستبقي أخاه عنده.

﴿ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ ﴾أي لم يكن في شَرْع مِصْر أن يأخذ أخاه بالسَّرقة، ولكن هذا الحكم كان في شريعة يعقوب ـ عليه السلام ـ وهو تفسير للكيد، وبيان

له ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أمراً، فإنَّه يكون.

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ في العلم، كما رفعنا درجة يوسف، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾، وهو الله تعالى.

الكَيدُ المذموم والكَيدُ الممدوح

الكيد يكونُ مذموماً وممدوحاً، وإن شَاعَ استعمالُه في المذموم أكثر، فما هو من قبيل المذموم ما في قوله تعالى: ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾، وممَّا هو من قبيل الممدوح ما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾.

كيف جَازَ ليُوسُفَ أنْ يَنصِبَ أحبولَةً لإخوته؟

لقائل أن يقولَ: كيف جوَّز يُوسُفُ لنَفْسِهِ أنْ يعملَ على إخوتِه حيلةَ تسريق شقيقه، وهي تهمة باطلة، ولا شكَّ أنَّها ستُدْخِلُ الكَدَرَ والكَمَدَ والهمَّ والغمَّ على إخوته وعلى قَلْبِ أبيه يعقوب ـ عليه السلام ـ؟!

فالجواب: أن هذه الحيلة وهذا الصُّنع والتَّدبير لم يفعلْه يُوسُفُ عن أمره، إنَّما كان بإلهامٍ من الله تعالى وإذنٍ منه، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ في حالٍ من الأحوال ﴿ إِلَّآ ﴾ في حالِ ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ تعالى ذلك ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال] فالله تعالى إذا أراد أمراً هيَّأَ الأسبابَ له، فلا اعتراض.

وأمر آخر أنَّه إذا أينع الكربُ جاءَ الفرجُ.

الإخوةُ يَطْعَنونَ بيوسُفَ

فلمّا رأى الإخوة الصِّواع قد أُخْرِج من متاع أخيهم؛ تنصَّلوا من التُّهمة، وقذفوا بها يُوسُفَ وأخاه، ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ ﴾ فلا عجب ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ ﴾ يعنون به يُوسُفَ، ولم يقولوا: (أخٌ لنا) إنَّما قالوا: ﴿ أَخٌ لَّهُۥ ﴾؛ نفياً لمعرَّة السَّرقة عن أنفسهم، ولأنَّهما من أمٍّ واحدة غير أمِّهم، وهذه الكلمة تشفُّ عن تجدُّد حسدهم ليُوسُفَ، وبذلك أساؤوا له بالفِعَال والأقوال.

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ ﴾ أي أضمر يُوسُفُ وأخفى هذه التُّهمة في نَفْسِهِ، ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ ﴾ ولم يُبْدِ تأثُّرَه منها، ولكن كأنِّي به وقد اعتصره الألم؛ فطعن اللِّسان كَوَخْزِ السِّنان!

ويجوز أن يكون المعنى: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ والمعنى، قال في نفسه بل ﴿ أَنتُمْ ﴾ بهذا القذف ﴿ شَرٌّ مَّكَانًاۖ ﴾ ومنزلةً عند الله تعالى من المقذوف، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ وتتقوَّلون وتفترون، ولم يصارحهم بهذا الكلام، إنَّما طواه في نفسه وكتمه.

ويلاحظ في قوله: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا ﴾ طباق إيجاب بديع، وأمَّا ما أضافوا له من السَّرقة، فقد اختلفت الرِّواياتُ وكَثُرت القصصُ والحكاياتُ الباحثة عن مصداق قولهم، ولعلَّ أصحَّ ما قيل: "إنَّهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه؛ قاله الحسن"(١) قلتُ: ولعلَّ ما يؤيّد ذلك أنَّهم كذبوا من قبل على أبيهم.

---

(١) القرطبي " الجامع لأحكام القرآن " (ج٩ / ص٢٣٩).

استعطافُ الإخوة ليُوسُفَ وردُّه الاستعطاف

ولمَّا تقرَّر أخذُ أخيهم بمقتضى فتواهم، رأى إخوة يوسف عندئذٍ أنفسَهم في مأزقٍ حرجٍ، لا بدَّ لهم فيه من الاستعطاف والاسترحام للخروج منه.

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا ﴾وهو يعقوب ـ عليه السلام ـ لا يقوى على فراقه، وقولهم: ﴿ شَيۡخٗا كَبِيرٗا ﴾ فيه إطناب للاستعطاف ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ ﴾ أي نتقدَّم إليك ملتمسين أن تأخذ واحداً منَّا بدلاً عنه، فلسنا عنده بمنزلته من المحبَّة، فأطلقه لأجل خاطر الشَّيخ الكبير ورحمةً به ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ ﴾ فأتمم إحسانَك علينا، ولا تردَّ سؤالنا! وتذكيره بإحسانه؛ لعلَّه يلين.

وكأنِّي بيُوسُفَ يتصوَّر قُرْبَ انجلاءِ الحقيقة وقربَ تحقُّق رؤياه بمجيء أبيه وأهله جميعاً إليه وسجودهم له، فلم تَلِنْ له قناةٌ:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ أي نعوذُ بالله تعالى أن نأخُذَ أحداً بجرم الآخر، فليس من العدل ولا الإحسان تركُ الجاني وأخذ البريء ، فما هذه الشَّفاعة؟! فلن ﴿ نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ كما قلتُم وأفتيتم وحكمتم، وإنْ أطعناكم فيما تطلبون ﴿ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ ﴾.

ومع أنَّه لم يقبل شفاعتهم، نراه لم يؤنِّبْهم بأنَّ هذا خلاف فتواكم، ومخالفة لشريعة الله تعالى، و ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾ [الصَّف]، وإنَّما ردَّهم ردّاً حسناً.

وتجدرُ الإِشارة إلى أنَّه لم يَقُلْ: معاذ الله أنْ نأخُذَ إلَّا مَن سرق؛ تفادياً للكذب، فهو يعلم أنَّ أخاه ليس بسارق.

تكرير كلمة ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾

لم ترد كلمة ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ في القرآن الكريم إلَّا مرَّتين، وعلى لسان يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ:

الأولى: عندما قالت له امرأةُ العزيز: ﴿هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

والثانية: عندما قال له إخوته: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ ثبات على العقيدة والمبدأ في كلِّ زمان ومكان.

المفاوضة والقرار

﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ ﴾ أي ولمَّا سَمِعَ الإخوةُ جَوَابَ عزيز مِصْر، وتغليطهم في طلبهم، يئسوا وانسحبوا وتقهقروا من أمامه، وانفردوا جانباً عن النَّاس الشُّهود يتناجَوْن ويتشاورون فيما دَهَاهُم، ويقلِّبون الأَمْرَ ظهراً لبطن، وقد كَبُرَ عليهم موقفهم أمام أبيهم، وعَظُمَ عليهم الاعتِذَارُ لما سَبَقَ لهم مع يُوسُفَ.

فالأَمَرُّ من فقد الصُّواع وهذه التُّهمة فَقْدُ أخيهم الآخر، فلا شيء أمَرّ غُرْبةً على أبيهم يعقوب ـ عليه السلام ـ من فَقْدِ يُوسُفَ وأخيه.

ولذلك ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمۡ ﴾ مذكِّراً بالموثق المأخوذ عليهم، وبتفريطهم في يُوسُفَ من قبل: ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾ وقد عاهدتموه وواعدتموه، أنسيتُم ذلك؟!

﴿ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ ﴾ ألا تذكرون تفريطكم في أمر المحافظة على يُوسُفَ مِنْ قَبْل؟! فها هي الأيام تُعِيدُ نفسَها.

وبعد هذه المقارنة نصّ قراره الجازم: أمَّا أنا ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لن أُفارِقَ أرضَ مِصْر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ بالبراح والرُّجوع إليه راضياً عنِّي ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ ﴾ بخلاصِ أخي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٠) ﴾؛ لأنه سبحانه لا يحكم إلَّا بالعدل والحقِّ.

أمَّا أنتم، فالرأي عندي: ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ وأُخِذَ بسرقته ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ ﴾ عليه بالسَّرقة وجزائها ﴿ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ علماً أكيداً، فقد أُخْرِجَ الصِّواعُ من متاعه ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ (٨١) ﴾ أي ما كنَّا نعلم أن أمراً كهذا سيحدث، وإلَّا لما آتيناك عهداً مؤكَّداً باليمين، وقد قلت: ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ ﴾ ، وقد أُحيطَ بنا، إذ لا حول لنا مع حكومة مِصْرَ الَّتي لم ندع جهداً، ولم نترك حرصاً، ولم ندَّخِر وسعاً، ولم نوفِّر اجتهاداً معها.

ومن قوله: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ نفهم أنَّه لا يجوز للإنسان أن يشْهَدَ إلّا بما علمه علماً يقيناً، إمَّا بمشاهدة، أو خبر مَن يوثق به، وأنَّ الشَّهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعاً، فلا تقبل إلّا ممَّن عَلِمَ.

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ وادعوه أنْ يسألَ أهْل مِصْر إنْ كَانَ في ريْبٍ من كلامنا، وقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ مجاز عن أهلها لما بينهما من المجاورة، وهومجاز مرسل وعلاقته المحليَّة كما يعرف في علم البيان، من إطلاق اسم المحلِّ على الحالِّ، فقد عبَّر بالقرية عن ساكنها.

﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي وليتثبَّت أيضاً وليتحقَّق من أصحاب القافلة الَّذين كانوا يمتارون معنا عن صدقنا، ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٢) ﴾ في أقوالنا.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ...(٨٢) ﴾ ما يعرف

عند البلاغيين في علم المعاني بإيجاز الحذف، فقد حذف المضاف، فالمراد: اسأل أهل القرية وأصحاب العير.

كلام الله تعالى لا يقدر عليه مخلوق

كانَ العَرَبُ أصحابَ ألفاظٍ ناصعة، وأهلَ بلاغةٍ بارعة، وفصاحة بالغة، وأربابَ كلماتٍ جامعة... فما راعهم إلَّا صادقٌ أمينٌ بكتابٍ كريمٍ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصّلت] فلم يتركْ لأحد منهم مقالاً ولا سجالاً ولا خطاباً، سمع أعرابيٌّ رجلاً يقرأ: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ ﴾، فقال: أشهد أنَّ مخلوقاً لا يقدر على هذا الكلام.

وهذا يذكِّر بالوليد بن المغيرة لَّما سمع من النَّبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [النَّحل] قال: " والله إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أسفله لمغدقٌ، وإنَّ أعلاه لمثمرٌ، ما يقول هذا بشرٌ "(١).

الشُّورى

من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ ﴾ نفهم أن الأمر لَّما اعْتَاص على الإِخوة والتوى، اعتزلوا جانباً، وعقدوا مجلس شورى يتبادلون الرأي فيه ـ وإن كان السِّياق لم يذكر أقوالهم جميعاً ـ، وقد أصابوا؛ لأنَّه " ما شاور قومٌ قطُّ إلَّا هُدوا لأرشد أمورهم ".

وقد أَمَرَ اللهُ تعالى النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ بالشُّورى، فقال: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران]، ومَدَحَ الصَّحابة، فقال: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشّورى].

وعليه، يجب أن نتشاور في الأمور، ولا نعجل، ولا نُمْضي عَزْماً، ولا نُبْرِم أمراً

---

(١) القاضي عياض: " الشّفا " (ص١٥٨).

من أمور الدِّين والدُّنيا إلَّا بعد مشورة ذي عقل راجح، ورأي ناصح.

خطاب الجمع بلفظ الواحد

قد يذكر الواحد ويراد به الجمع في القرآن الكريم على عادة العرب، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ...(٨٠) ﴾ أي اعتزلوا متناجين، والنَّجِيّ مصدر يصلحُ للجماعة وللواحد، قال تعالى: ﴿ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾ [مريم] ويجمع على أَنْجِيَة.

ومن ذلك في التَّنزيل، قوله تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ [النِّساء] أي رفقاء، وقوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ...(٤) ﴾ [المنافقون] أي الأعداء.

يعقوب يتلقَّى النبأ بالصَّبر والآمال

رجع الإخوة أدراجهم إلى أبيهم، وقالوا له ما قاله كبيرُهم، فلمَّا سمع أبوهم هذا النَّبأ الفظيع ﴿ قَالَ ﴾ مكذِّباً: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ وكيداً ثانياً دبَّرتموه لولدي، وإلَّا فَمَنْ أعْلَمَ عزيز مِصْر أنَّ السَّارق يسترقّ غيركم، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ ﴾ بالثَّلاثة ﴿ جَمِيعًا ﴾ عاجِلاً أو آجِلاً، فأملي به كبير، ورجائي به قويٌّ، فالكَرْب إذا اشتدَّ هان، والهموم إذا طالت تكشَّفت ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بحالي ﴿ ٱلْحَكِيمُ (٨٣) ﴾ في تدبيره.

الظَّنُّ على الكاذِب

تقدَّم أنَّ يعقوب ـ عليه السلام ـ لم يصدِّقْ أولاده في حالتي كذبهم وصدقهم في حادثتي يُوسُفَ وأخيه، بل قال لهم في المرَّتين مستغشّاً عَيْن العبارة الشَّريفة: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾؛ لأنَّ مَن عُهِدَ عنه الكَذِب يُظَنُّ به الكذب، ولو تكلَّم بالصِّدق.

الثبات على المبادئ

وعلاوة على ما سبق نرى يعقوب ـ عليه السلام ـ في حادثتي يُوسُف وأخيه، قال لأولاده نفس الجملة الشَّريفة: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾لا شكوى فيه ولا تبرُّم، ولعمري لو كان غيره مكانه لملأ طِبَاقَ الأرض صُراخاً وعَويلاً، ولنظم شعراً يُمزِّقُ الأفئِدَةَ ويفتِّت الأكبادَ، ولكنْ هي أخلاق الأنبياء أصحاب المبادئ الثَّابتة والخِلال الحميدة، ولا عجب؛ فالأنبياء كانوا يتعايشون بالدِّين، وما أشدَّ حاجتنا إلى أن نتعايش بالدِّين والمروءة والأخلاق، لا بالجهل والسَّفاهة والانحطاط!

آية كأنها ثوبٌ سابغ على يعقوب ـ عليه السلام ـ

كانت حياةُ يعقوب ـ عليه السلام ـ مفْعَمةً بألوان الكروب والابتلاءات النَّادرة المثال في تاريخ البشر؛ فإنَّه ـ عليه السلام ـ كان يخاف على يُوسُفَ من كيد إخوته وقد كادوه، ثمَّ وقع هو وأسرته في شيءٍ من الجُوع ونقص من الأموال

والثَّمرات في أعوام الجدب والقحط، ونقص من أولاده، ومع هذا فقد صبر صبراً جميلاً، وصدق الله تعالى القائل في محكم كتابه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾[البقرة].

عبَرات على يُوسُفَ

كَرِه يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ ما أخبره به أولاده، فَأَعْرَضَ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ في مَعْزِلٍ، وقد قهره الأسَفُ والشَّوقُ والتَّلهُّفُ، وأعياه الحزنُ، وشفَّه الوجدُ، ولَذَعَ قلْبَه الفراق، ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي يا حسرتي وحزني وحرقتي على يُوسُفَ! ففرَّج ـ عليه السلام ـ عن نفسه بهذه الكلمة البديعة التي لم ينطق سواها، وبين لفظتي الأسف ويوسف تجانس بديع، يسمَّى جناس الاشتقاق، وهو يُضْفِي على النَّص حسناً صوتيّاً من حيث الإيقاع اللَّفظي، ويكسِبُ النَّص عنصر المفاجأة، وثراء

المعنى، فهو يثير السَّامع لمعرفة معنى اللَّفظين المتقاربين في النُّطق المختلفين في المعنى.

وإنَّما أَسِفَ يَعْقُوبُ على يُوسُفَ، مع أنَّ المقام يستدعي أن يتأسَّف على أخيه؛ لأنَّ الحزن الجديد يُذَكِّر بالحزن القديم، كما قيل: "وإنَّ الأسى يبعث الأسى"، والشجا يُحيي الشَّجا، زد على ذلك أنَّ ليُوسُفَ في قلب يعقوب هوىً لاعِجاً.

ولا زال يعقوب ـ عليه السلام ـ يكْظم حُزْنَهُ وألمه، ويتجلَّدُ حتَّى ابيضَّت عيناه من الحُزْن، قال تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ فقد بصره من شدَّة الحزن والحُرْقة واللَّوعة، وقيل: ضَعُفَ بَصَرُه حتَّى كاد لا يرى.

وما لَبِثَ ـ عليه السلام ـ مدَّة إلَّا وجاءَه أولاده، ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ وهي كلمة نصح وإشفاق عليـه، يمازجها اللَّوم والتَّعجُّب، أي: والله لا تزال تذكرُ يُوسُفَ وتتفجَّعُ عليـه، ولا تنفكُّ تضْرِبُ على هذا الوتر الحزين، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مشفياً على الهلاك مرضاً، وحتّى يذيبك الهمُّ ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ بالموت أسىً وحسرةً؛ فإنَّ ذلك عاقبة الأسف والحُزْن.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ ردّاً عليهم: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي[1]﴾ همِّي العظيم ﴿وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى وحدَه، أي: لا أشكو إليكُم أو لغيرِكم مِن الخَلق، إنَّما أشكو إلى الخالق داعياً له وملتجئاً إليه، وما عليَّ إنْ أنا بثثتُ همِّي لخالقي؟! إنَّ الشكوى إليه تعالى من جنى الإيمان:

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وسَلِ الَّذي أَبوابُهُ لا تُحْجَبُ
اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤالَهُ ... وبُنَيُّ آدَمَ حينَ يُسأَلُ يَغْضَبُ

ويختمُ يعقوبُ ـ عليه السلام ـ جوابَه لأولاده بقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا

---

(1) البثُّ: أصعب الهمِّ الَّذي لا يُصبَرُ عليه حتَّى يُبَثَّ ويُنشَر إلى الغير.

﴿تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾، من جميل تدبيره وخفيّ لطفه، فأنا أعلمُ سلامتهم، وأنَّ الله تعالى اجتبى يُوسُفَ وعلّمه من تأويل الأحاديث، وأتمَّ نعمته عليه وعلى آل يعقوب، وأنَّ رؤيا يُوسُفَ حقٌّ، وسيأتي تأويلها باجتماعنا به، وستريكم الأيام ذلك.

ومن شكاية يَعْقُوب ـ عليه السلام ـ وتضرُّعه بالدُّعاء إلى الله تعالى وحده نفهم أنَّ هذا هو المطلوب شَرْعاً من كلِّ مؤمنٍ شاكٍ حزين.

الشّكاية ملفوظة وملحوظة

اعلم أنَّ الشِّكاية نوعان: ملفوظة، وملحوظة. فأمَّا الملفوظة أو الملفوظ بها، فنحو قوله تعالى حكاية عن يعقوب: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ... ٨٦﴾ وأمَّا الملحوظة المقدَّرة غير الملفوظ بها، فنحو قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾ [غافر] وقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦﴾ [نوح]

ائتلاف اللّفظ مع اللّفظ وائتلافه مع المعنى

ائتلاف اللَّفظ مع اللَّفظ: أن تتَّصفَ الألفاظ بحُسْنِ الجوار، وذلك بأن يقترن اللَّفظ الغريب بمثله، واللَّفظ المشهور بمثله، لتلائم الألفاظ بعضها بعضاً؛ عناية بحسن الجوار والمناسبة.

أمَّا ائتلاف اللَّفظ مع المعنى: فَأَنْ تلائم الألفاظ المعنى المراد، فإذا كان المعنى فخماً كانت ألفاظه فخمة، وإذا كان رشيقاً لطيفاً كانت ألفاظه كذلك...

ومن شواهد ائتلاف اللَّفظ في اللَّفظ، قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا... ٨٥﴾ فإنَّه تعالى جاء بأغرب ألفاظ القسم ﴿تَٱللَّهِ﴾

وأعرض عن (والله) و(بالله) الأشهر استعمالاً، وجاء بأغرب الأفعال النّاسخة الّتي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار ﴿ تَفْتَؤُاْ ﴾ وفيه إيجاز بالحذف، فأصله (لا تفتأ)، وحُذِفَ حرف النَّفي في جواب القسم لأنّ موضعه معلوم، وحُذِفَ للتَّخفيف وعدم الإلباس، إذ لو كان الجواب إثباتاً للزم جواب القسم اللّام والنُّون، ولقيل: لتفتأنّ، نحو قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ...(٧) ﴾ [التّغابن]

ثمَّ جاء بأغرب ألفاظ الهلاك ﴿ حَرَضًا ﴾ وكلّ ذلك رعاية بحسن الجوار والمناسبة، وعناية بائتلاف اللَّفظ الغريب بمثله.

من بديع القرآن الانسجام

الانسجام: أن يأتي الكلام متحدِّراً كتحدُّر الماء المنسجم، بسهولة لفظٍ، ورقَّة معنى، وحسن تأليف، حتَّى يكون له في القلوب تأثير، وفي النُّفوس موقعٌ أثير. ويقوى الانسجام ويصفو إذا جاء موزوناً من غير أن يُقصَد إليه، ومن الانسجام في القرآن قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾.

فمن سمع هذه الآية بقلبه وجد سهولةَ لفظ، وعذوبةَ معنى، وحسنَ تعطُّف ظاهر في قوله: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فلم يقل: (وأعلم منه) مع أنَّه أوجز في اللَّفظ؛ ليأتي في الكلام زيادةُ تعطُّف وترقُّق واسترحام وخضوع يزيد الكلام حُسْناً يحلو في النُّفوس ويعذب.

وقد جاء مع الانسجام بديع غير مقصود، وهو طباق السَّلب في قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ ﴾ وقوله: ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ومن الانسجام قولُه في الآية الَّتي بعدها حكاية عن يعقوب: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ لوقوع التَّعطُّف كالآية السَّابقة، وقد جاء مع الانسجام ما يعرف في علم البيان بالاستعارة المكنيَّة، وذلك في قوله: ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ فقد استعير الرَّوح، وهو تنسيم الرِّيح للفرج الَّذي يعقب الشِّدَّة.

والبديع أو البيان الَّذي يأتي مع الانسجام، إنَّما هو كالواسطة في العقد، وكالشَّذْرة في القلادة يفصل بها نظم الذَّهَب.

عطف أحد اللَّفظين المتجاورين في المعنى على الآخر

قد يعطف أحد اللَّفظين المتقاربين في المعنى على الآخر بقصد التَّأكيد، ومنه قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ...﴿٨٦﴾ ﴾ فالبثُّ والحزن بينهما تجاور في المعنى، ولعلَّه كرَّره للتَّأكيد على شدَّة الخطب النَّازل به عليه السلام، ومنه في التَّنزيل قوله تعالى: ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ... ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه].

عَبْرَة وعِبْرَة

قَوْلُ أولاد يعقوب لأبيهم لَمَّا غلبه الحزنُ: ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ لم يكن قولاً ليِّناً مترفِّقاً فيه مع أبيهم كما يجب، مع ما فيه من دلالة على إشفاقهم على أبيهم، ولهم قول غليظ سابق سجَّله القرآن الكريم، فقد قالوا في معزلٍ: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾، ونحن نعلم أنَّ الله تعالى أمر أن نقول للنَّاس حسناً، فقال سبحانه: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ...﴿٨٣﴾ ﴾ [البقرة]، فما بالك بالقول للوالدين!

ونعلم أنَّ الله تعالى نهى الولد عن أمرين، وأمره بثلاثة: نهاه عن إظهار أدنى شواهد التَّضجُّر والتَّبرُّم أمام الوالدين أو في غيبتهما، فقال: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ ونهاه عن زجرهما، فقال: ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ وهذه الآية إنَّما سيقت لاحترام الوالدين وتوقيرهما ومعرفة قدرهما، والتَّحذير من عقوقهما.

وأمر لهما بالقول الكريم الجميل المتلطِّف فيه: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء] وبخفض الجناح لهما ذلّاً وتواضعاً ورحمةً: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء]، وبالدُّعاء لهما في حياتهما وبعد مماتهما: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء]

واعلم أنَّ الله تعالى أخبرنا عن سيِّدنا يحيى عليه السلام، فقال: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم] وعن سيِّدنا عيسى عليه السلام ، فقال حكاية عنه: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم].

وقد رأينا فِتْيَةً من أهل زماننا جبَّارين يرفعون أصواتهم لا أقول عند وإنَّما على آبائهم وأمَّهاتهم، وكأنَّهم يجهلون أنَّ الله تعالى قد أمر بالإحسان إلى مَنْ كان مِنْ أهلِ وِدِّهما، فكيف بالإحسان لهما! ألم يجعل الله تعالى حقَّ الوالدين في مرتبة تالية لحقِّه سبحانه، فقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء] وقرن شكره بشكرهما، فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان]

واعلم أنَّ والديك مهما بالَغْتَ في برِّهما فلن تَفِيَ بشكرهما؛ فلو أنَّ إنساناً أحسن إليك مرَّة، فهل كنت تنسى أنَّ له يداً عليك لا توفَّى؟ فكيف بمن أحسن إليك الحياة مرَّة بعد مرَّة، وله عليك أيادٍ بيضاء لا تُدْرَك ولا تُدَانَى، فكيف لك أنْ تجزي أَمَنَّ

النَّاسِ عليك في رعايته وعنايته الجزاءَ الأجمل والأوفى؟!

نشيجُ عمر ـ رضي الله عنه ـ وهو يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

كان عُمَرُ بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ جهير القراءة، وكان في صلاة الفجر، إذا قرأ سورة يُوسُفَ، ومرَّ بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، غُصَّ بالبُكاءِ في حَلقِه من غير انْتِحابٍ، ففي الأثر عن عبد الله بن شدَّاد (ابن الهاد) وهو تابعيّ كبير له رؤية ولأبيه صحبة، قال: "سَمِعْتُ نَشيجَ عُمَرَ، وأنا في آخر الصُّفُوفِ يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾"(١)

الحُزْنُ لا يتنافى مع الصَّبر الجميل

وابيضاض عيني يعقوب ـ عليه السلام ـ من شدَّة الحزن والأسف لا يتعارض مع صبره الجميل، ولذلك حُمِدَ صَبْرُهُ، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي مملوء من الأسَف والحزن الذي يكتمه في نفسه، ولا يبثُّه ولا يشكوه إلَّا إلى الله تعالى.

وقد عَلِمْنا أنَّ الصَّبر الجميل هو الَّذي ليس فيه جَزَعٌ ولا شكوى إلى الخَلْق، وقد أكَّد يعقوب ـ عليه السلام ـ صَبْرَه الجميل بقوله لأولاده: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى وحده.

وإظهارُ الأسَف والحُزْن والشِّكاية لله تعالى ليس بمحظور إذا اقْتَرَنَ بالصَّبر الجميل والرِّضا والتَّسليم لقضاء الله تعالى وقدره، وإنَّما المحظور السُّخْط على القضاء والقدر.

---

(١) البخاري: "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١٧٥) كتاب الأذان. وَهَـذَا الْأَثَرُ وَصَلَهُ سَعِيد بْن مَنْصُور عَنْ اِبْنِ عُيَيْنَة عَنْ إِسْمَاعِيل بن مُحَمَّد بن سَعْد سَمِعَ عَبْد الله بن شَدَّاد بِهَـذَا وَزَادَ: "فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ" ذكر ذلك الحافظ في "فتح الباري" (ج٢/ ص١٦٤).

والحزن الشَّديد والدَّمع الصَّبيب لا يسمَّى جزعاً ولا سَخَطاً، طالما لم يصحَبْهُ الصِّياحُ، والعويل، والولولة، ولطمُ الخدود، وشقُّ الجيوب، والكلام بما لا يرضي الله تعالى.

والحزن ليس محظوراً، وإنَّما المحظور الكلام الَّذي يسخط الله تعالى، قال النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ: " إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا "[1]

فَضْلُ مَنْ ذَهَبَ بَصَرُه

روى البخاري عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعتُ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: "إِنَّ الله تعالى، قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيهِ فَصَبرَ؛ عوَّضتُه الجنَّة. يريد: عينيهِ"[2].

ثوابُ المؤمن فيما يصيبه من همٍّ وحزن ونحو ذلك

قال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ " مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ[3]، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أذى، وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاه "[4]

فما من مؤمن يصيبه مَرَضٌ ظاهر أو باطن، لازمٌ أو عَارِض، فيصبر عليه إلّا كان كفَّارةً لسيِّئاته، حتَّى الهمّ الَّذي يصيبه بسبب التَّفكير فيما قد يصيبه من مكروه، والغمّ الَّذي يحدث لقلبه بسبب ما جرى، والحزن الَّذي قد يقع على نفسه لفقدها ما يشقُّ عليها فقده، كلّ ذلك من كفَّارات الذُّنوب، "حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا"، ولله الحمد والمنَّة.

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج٢/ ص٨٥) كتاب الجنائز.
(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص٤) كتاب المرضى والطِّب.
(٣) الوَصَب: المرض المقيم أو الوجع اللّازم، ومنه قوله تعالى: ﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الصّافات].
(٤) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص٢) كتاب المرضى والطِّب، وأخرج نحوه مسلم في "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٦/ ص١٣٠) كتاب البرّ والصّلة.

الابتلاءُ عامٌّ

من واقع يعقوب ـ عليه السلام ـ المرير نفهم أنَّه من الجائز أن يُبْتلى صَاحِبُ الحقِّ بالمصَائب، كذلك أن يُبْتَلى صاحب الباطل بالنِّعم؛ كما أن العكس جائز، فالمصائب والنِّعم ليست دليلاً على كون من تصيبه على حقٍّ أو على باطل.

وإذا كانت بيوت الأنبياء تعجُّ بالبلاء وتشكو منه؛ فذلك حتَّى لا نجزع ولا نهلع ولا نفزع، بل نقابل البلاءَ كما قابله الأنبياءُ ـ عليهم السَّلام ـ.

﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ ﴾ الكلمة الفريدة

سجَّل الله تعالى هذه الكلمة الفريدة ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ ﴾ في كتابه العزيز على لِسَان يعقوبَ ـ عليه السلام ـ، فلم تَرِدْ هذه الكلمةُ في القرآن الكريم إلَّا على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ، وهي الكلمة التي نفَّس بها يعقوبُ عن نَفْسِه، وسرَّى بها عن همومه وأحزانه، وارتاح بها من ألم ما سَمِعَ.

عودة الإخوة لمصر للمرَّة الثالثة

وبعد أن صرَّح يعقوب ـ عليه السلام ـ باعتقاده بحياة يُوسُفَ بقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ طلب من أولاده العَوْدةَ لِمِصْرَ والتماس يُوسُفَ والتَّعرُّف على خبره وخبر أخيه، فقال: ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾، وتخبَّروا عنهما، ولا تدَّخروا جهداً، ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾، ولا تقطعوا حَبْلَ الرَّجاء وخيط الأمل، ولا تقنطوا من رحمته تعالى وفرجه، فرحمة الله تعالى واسعة، وفرجه دائماً مَنْظُور ومأمُول، فلا يتولَّاكم اليأس، ولا يستحوذْ عليكم القنوطُ.

ثمَّ علَّل النَّهي فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ أي من فرجه وتنفيسه ﴿ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ وهذا دليل على أنَّ الكافر ييأس ويقنط في الشِّدَّة، وعلى أنَّ

القنوط من رحمة الله تعالى كُفْرٌ بهذه الرَّحمة، أمَّا المؤمن فيأمل الفَرَجَ من ربِّه دائماً.

والأمل فضيلةٌ ليست للإنسان عنها مَنْدُوحة، وهي نعمة من الله تعالى مَنَّ بها على عباده، وإنَّ المؤمنَ وهو في معترك الشِّدَّة وغمرة الضِّيق والبلاء؛ لفي طمأنينةٍ من صلته بخالقه، وفي سكينة من ثقته ببارئه، وفي أنسٍ من رجائه بربِّه، وفي عِزٍّ مِنْ أمله بالله تعالى.

فالمؤمن يحيا على الأمل، ويعيشُ على الرَّجاء، ليس لليأس والقنوطِ إليه سبيل.

... سمع الأبناءُ كَلامَ ونُصْحَ أبيهم، فآنسوا منه قوَّة عقيدة بحياة يُوسُفَ وبراءة شقيقه، فخرجوا راجعين لمصر للمرَّة الثَّالثة، وقد أصابهم الضُّرُّ من الجَدْب والمجاعة، ولم يبْقَ معهم ما يشترون به إلَّا بضاعة رديئة يدفعها من تُعْطَى له.

ولَّما وصلوا مِصْرَ دخلوا على يُوسُفَ، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ ﴾ بنغْمَةِ الاسترحام والاستعطاف: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ من القحط والجدب، ﴿وَجِئْنَا ﴾ إليك ﴿ بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ لا تصلُح ثمناً للطَّعام، لكنَّا طامعون بإحسانك، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ بها وأتمْه، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ بقَبولها على رداءتها؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ على إحسانهم أحسن الجزاء.

خضُوعُ الإخوة للغريبِ وتعاظُمُهم على أبيهم وأخيهم

أخبر الله تبارك وتعالى عن أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ أنَّهم ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾! كلامٌ يشفُّ عن التضرُّع والمسكنة والانكسار للغريب، ولعمري لو كانوا يعرِفُونَ أنَّه أخوهم ما خضعوا له هذا الخضوع، وما تواضعوا له هذا التَّواضع؛ وذلك لما في فِطْرة الإنسان مِنْ قِلَّة الاحترام بين الأقرباء، فأين هذا

الصَّغار مع الغريب من تلك العظمة مع أبيهم وأخيهم يوم قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، ويوم قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾، ويوم قالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾، حتَّى مَن حضر مجلس يعقوب ـ عليه السلام ـ من قرابته سيأتي لهم أن يقولوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

الفرق بين ﴿الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ و﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾

وردت في القرآن الكريم كلمات مبدلة مرَة، وغير مبدلة مرَّة أخرى، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ... ﴿١٨﴾﴾ [الحديد] بتشديد الصَّاد المبدلة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف] بتخفيف الصَّاد. وهناك فرق بين المبدل وغير المبدل في الاستعمال القرآني، فكلمة المصَّدِّقين فيها تضعيفان للمبالغة، بينما كلمة المتصدِّقين فيها تضعيف واحد.

والمصَّدِّق بتشديد الصَّاد أصله المتصدِّق: قُلِبت التَّاء صاداً فأُدغِمت في الصَّاد فَشُدِّدت، أي أنَّ الصَّاد الأولى السَّاكنة بسبب إدغامها في مثلها مبدلة عن التَّاء. والمصَّدِّق والمتصدِّق كلاهما بمعنى المعطي، غير أنَّ (المصَّدِّق) بتضعيف الصَّاد، هو الَّذي يُعطي الصَّدقة ويبالغ فيها، أمَّا (المتصَدِّق) بتخفيف الصَّاد فهو المعطي فحسب.

ولذلك قال الله تعالى في ـ سورة الحديد ـ : ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد] بالإبدال والإدغام لإفادة أنَّ الله تعالى يُضاعف للمبالغين في الصَّدقات. وقد ناسب ذكر المبالغة في الصَّدقة في سُورة الحديد؛ لأنَّه ذُكِرَ فيها الإنفاق والنَّهي عن البخل غير مرَّة ، فمن

ذلك قوله تعالى:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الحديد] وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحديد]

أمَّا في سورة يُوسُفَ، فالأمر مختلف، فهم لا يريدون من العزيز يُوسُفَ أنَّ يبالغ في الصَّدقة لهم؛ أدباً منهم، ولذلك، قالوا: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف] ولم يقولوا: المصَّدِّقين.

يُوسُفُ يذكِّرُ إخوته ويعاتبُهم

ولَمَّا سَمِعَ يوسُفُ قولَ إخوتِه: ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾، و ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾، أدركته الرَّأْفَةُ، ولم يتمالك أن عرَّفهم نفسه، ﴿ قَالَ ﴾ لهم بلهجة المذكِّر المعاتب: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم ﴾ وهو استفهام للإيقاظ والتَّنبيه والتَّذكير، أي هل تذكرونَ فَدَاحَةَ ﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ حال جهلكم بسوء عملكم، وفيه تعريضٌ بأنَّهم قد صَلُحَ حالهم الآن.

ولم يقل يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ هذا الكلام لهم تصفية للحِسَاب معهم، لكنَّها نَفْثَةُ مَصْدُورٍ، وزَفْرَةُ مفؤود، عالج بها بعض كُلوم الفُؤَاد، وكلمة موجزة أعلمهم بها قُبْحَ عملهم في الماضي؛ تحريضاً لهم على التَّوبة.

مصداق

وقول يُوسُف لإخوته: ﴿ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ هو مصداق قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

يُوسُفُ يُضَمِّنُ عِتابَه لإخوته الاعتذار عنهم

وقد ضمَّن ـ عليه السلام ـ عتابَه لإِخوته الاعتذار عنهم بالجهل: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ إنَّه استفهام العارف المتجاهل يريد به العِتَابَ لا اللَّوم، والاعتذار لهم قبل أن يعتذروا، إذ أضاف ما فعلوه إلى ما كان منهم مِنْ جَهْل، فهم معذورون لجهلهم آنذاك! تدبيراً لهم أَدَباً منه ونُبْلاً، قال الشَّاعِرُ:

إذا مَا بَدَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُـــنْ أَنْــتَ مُحْتالاً لِزَلَّتِـــهِ عُذْرا

وهذا ما جرى عليه القرآن، قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ ﴾ [النِّساء].

يُوسُفُ يُظْهِرُ نفْسَه لإخوته

كان سُؤَالُ يُوسُفَ لإِخوته فَاتِحَةً لأَنْ يَعْرِفُوه، فحين سمعوا كلامه وملامه أمعنوا فكرهم في مرماه ومغزاه، فعلموا مرامه، وأجابوا عن السُّؤَال بسؤال ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ متعجِّبين مقرِّرين: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾.

وآن موعدُ المفاجئة، ﴿ قَالَ ﴾: نعم ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾ولم يقل: وأنتم

إخوتي. كأنَّه يشير إلى طرف من العتاب، فما فعلوه به ليس من عمل الإخوة ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ بالاجتماع بعد الفرقة، والفرح بعد الحزن.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾، وما ترونه الآن هو ثمرة التَّقوى، وجنى الإحسان، ونتيجة الصَّبر، وقد قيل: " مَن يتَّق مولاه، ويصبر على بلواه، لا يضيع أجره في دنياه وعقباه ".

ولست وحدي، بل كلّ مَنْ يتقي الله ويصبر يدخل في عداد المحسنين الَّذين لا تضيع أجورهم، فالتَّقوى هي البقْوى، والصَّبر عواقبه الجبر، والصَّبر مفتاح الفرج ونِصْف الإيمان، و﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرّحمن].

ما الإحسان؟!

تكرَّر ذِكْرُ الإحسان في سُورةِ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ ، حتَّى صارت كأنَّها سُورة الإحسان، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وقال: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ وقال: ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

وكلُّها وردت في حقِّ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ، وقد ورد في حقِّه وحقِّ أبيه يعقوب ـ عليهما السَّلام ـ إشارة إلى علوِّ مقامهما في الإحسان في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنعام].

والإحسان مأخوذ من الحُسْنِ، وهو كلُّ ما مُدِحَ صاحِبُه، ويكون في كلِّ شيء بحسبه، قال النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ: " إِنَّ الله كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ"[1].

والإحسان من خصائص الإسلام، ومن الأخلاق الاجتماعيَّة العِظَام الَّتي دعا لها، والَّتي ينبغي أن نتعايش بها، ونربِّي النَّشء عليها، فقد أمرنا الله بالإحسان إلى الوالدين، وذي القربى، واليتامى، والمساكين، والجار، والبنات والبنين، وأن نقول للنَّاس حسنى... ومثل هذا يتَّسع البحث فيه، وهو أكثر من إيراد شواهده، وكلُّه يؤكِّدُ على أنَّ دين الإسلام فيه ما فيه من نظام اجتماعيّ وحضاريّ يضمن السَّعادة والنَّجاة والفوز للعالمين أجمعين.

ولا ريب أنَّ رأس الإحسان وعموده الإحسان في العبادة، فقد فسَّر النَّبيُّ ـ ﷺ ـ الإحسان لَّما سأله جبريل ـ عليه السلام ـ: " مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ "[2] ولذلك يقول النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ: " نِعْمَ مَا لِأَحَدِهِمْ يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِه "[3]

وهذا إحسان العبد، ويترتَّبُ عليه إحسان الرَّبِّ، قال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس]

ولَّما كانَ للإحسان هذا القدر العظيم تجد في القُرآنِ الكَريمِ الأمْرَ بـه، ومحبَّة الله لأهله: ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة]، ومعية الله لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النّحل] وأنّ عاقبة أمرهم حسنة:

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٧/ ج١٣/ ص١٠٦) كتاب الصَّيد.
(٢) البخاري: "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١٨) كتاب الإيمان.
(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٢٤) في العتق وفضله.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان] وأنَّ جزاء الإحسان بالطَّاعة في الدُّنيا الإحسان بالنَّعيم في الآخرة: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرّحمن].

الترغيب في لزوم التقوى والصَّبر

قوله: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ مِنْ وضع الظَّاهر موضع المضْمَر(١) تنبيهاً على أنَّ المحسنين جمعوا بين التَّقوى والصَّبر. وفيه إظهار لفضيلة التَّقوى وفضيلة الصَّبر، وأنَّ عاقبتهما أحسن العواقب، وفيه ترغيب للزوم التَّقوى والصَّبر ، وتشويق للنَّفس إلى ثواب الله تعالى، فمن اتَّقى وصبر فهو من المحسنين الَّذين لا تضيع أجورهم، ولذلك قال تعالى للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود] والخطاب وإن كان موجَّهاً للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ إلَّا أنَّ المراد تعليمنا ذلك.

تقديم التقوى على الصَّبر مع الإخوة والأحبَّاء وتأخيرها مع الأعداء

من أسرار النَّظم القرآني وإعجازه البياني حسن التَّقديم والتَّأخير، فمن ذلك ما يلحظه القارئ من تقديم التَّقوى على الصَّبر في قول يُوسُفَ لإخوته: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

بينما قُدِّم الصَّبر على التَّقوى في آيات تتحدَّث عن الأعداء، وتحذِر المؤمنين منهم، ومن ذلك قوله: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران]

---

(١) أي وضع المحسنين مكان الضَّمير، فالتَّقدير: لا يضيع أجرهم .

وقوله: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران]

فمهما بلغت شرور الإخوة فالحاجة إلى التَّقوى في التَّعامل معهم آكد، أمَّا الأعداء فشرورهم أعظم، ومكائدهم أدهى وأمرّ، فالحاجة إلى الصَّبر في التَّعامل معهم آكد وأهمّ.

فسبحان الّذي أنزل القرآنَ بأعجب أسلوب، وسَلكه ينابيعَ في القلوب ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان]، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النَّحل].

تواضعُ الأنبياء

ممَّا يدلُّ على تواضع يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ أنَّه ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ ولم يَقُل: أنا عزيز مِصْر، ولم يقل: أنا والٍ على خزائن الأرض، ولم يقل: أنا أتبوَّأ في أرض مِصْر حيث أشاء... وإنَّما ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ هكذا بعيداً عن الكِبْر.

وهذا يُذَكِّر بتواضع الأنبياء، قال النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ " أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ الله وَرَسُوله هَاجَرْتُ إِلَى الله وَإِلَيْكُمْ، فَالمحْيَا محْيَاكُمْ، وَالمَماتُ مَماتُكُمْ[1] " وكتب ـ ﷺ ـ إلى هِرقل: "بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى..." [2]

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص١٣٣) كتاب الجهاد والسّير.
(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص٦) كتاب بدء الوحي، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي "(م٦/ ج١٢/ ص١٠٧) كتاب الجهاد والسّير.

وقال تعالى مخبراً عن سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النَّمل] والشَّواهد يطول حصرها، وكلّها تؤكّد أنَّ كلام الأنبياء يَخْرُجُ من مشكاة واحدة، فما أحوجنا إلى أن نقتدي ونهتدي بالأنبياء! ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام].

مدح الذُّلّ في موضعين

أمر الله تعالى المؤمنين بالعزَّة، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون] ومدح الذُّلَّ في موضعين، الأوَّل: أنْ يذلَّ الإنسان لأخيه، قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة] وقال: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] والثَّاني: أن يذلَّ الإنسان لوالديه، قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء]

تغايُر القِراءات بين الخبر والاستفهام وتنوّع المعنى

من أمثلة تغاير القراءات بين الخبر والاستفهام، قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ... ﴿٩٠﴾ ﴾.

فقد تعدَّدت القراءات في قوله تعالى: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ﴾ فابن كثير المكّي، وأبو جعفر المدني قرأا بهمزة واحدة مكسورة على الخبر (إِنَّك) وقرأ الباقون على أصولهم، أي بهمزتين: الأولى مفتوحة، والثَّانية مكسورة على الاستفهام (أَإِنَّك)

بتفصيل[١] بينهم في التَّسهيل وعدمه، والإدخال وعدمه.

وحجَّة من قرأ على الخبر أنَّ إخوة يُوسُفَ - عليه السلام - أيقنوا أنَّ الَّذي أمامهم يوُسُف، فجاؤوا بحرف التَّوكيد (إنَّ) ليؤكِّدوا الإخبار، ويستغنوا عن الاستخبار (الاستفهام). وحجَّة من قرأه على الاستفهام أنَّ إخوة يوسف جاؤوا بلفظ الاستفهام المفيد للإلزام والإثبات، فقد أدركوا أنَّهم أمام أخيهم يُوسُفَ فأرادوا أن يلزموه ذلك.

وقد ذهب بعض الموجِّهين للقراءات الَّتي تنوَّعت بين الإخبار والاستفهام إلى حمل القراءتين على معنى واحد، وأنَّ قراءة الإخبار استفهام حذفت أداته، وهذا فيه نظر؛ فالقراءات لها أثر في علوم العربيَّة، وقد ذكر علماؤنا السَّلف والخلف فوائد عديدة لتعدُّد القراءات القرآنيَّة المتواترة، ومنها أنَّ تنوُّع القراءات وتعدُّدها يترتَّبُ عليها تنوُّع في وجوه البلاغة، وتعدُّد في المعنى، وهذا ضرب من الإعجاز تفرَّد به القرآن.

ولعلَّ ما يؤكِّد اختلاف المعنى في القراءتين، أنَّ إخوة يُوسُفَ يجوز أنَّهم عرفوه يقيناً، وهذا ما دلَّت عليه قراءة الإخبار، وقد عرفوه من سؤاله لهم: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ فما أدراه بخبر يُوسُفَ وأخيه، إلَّا إذا كان هو يُوسُف، فنظروا إليه نظرة الفاحص المدقِّق، فعرفوه، وقالوا على وجه القطع والجزم والتَّحقيق: (إنَّكَ لأنْتَ يُوسُفُ) وأكَّدوا معرفتهم له بمؤكِّدات ثلاثة: إنَّ، واللَّام، والجملة الاسميَّة.

---

(١) سهّل الهمزة الثَّانية مع إدخال ألف الفصل قالون والبصري، وسهَّلها من غير إدخال وَرْش ورويس، أمَّا هشام فله وجهان: التَّحقيق مع الإدخال وتركه، وللباقين التَّحقيق بلا إدخال.

أمَّا قراءة الاستفهام ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟ فإنَّ الهمزة أو الألف ألف تقرير بلفظ الاستفهام، فهو استفهام العالم العارف، ليقرَّ لهم بأنَّه يوسُفُ وتظهر الحقيقة، ولذلك أجابهم، وعرَّفهم بنفسه ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ... ﴿٩٠﴾﴾

ولعلَّ بعض الإخوة كان قوله خبراً، وبعضهم استفهاماً، فجاءت القراءتان كذلك، ثمَّ إنَّ القراءتين تنقلان لنا مشهدين مختلفين، فقراءة الإخبار فيها تصوير لمشهد الإخوة وقد ظهرت على صفحات وجوههم أمارات الفرح وعلامات السُّرور، بعد أنْ وقفوا على حياة أخيهم يُوسُفَ، وازدادوا فرحاً على فرحهم لَمَّا اعترف لهم بأنَّه يُوسُفُ؛ وكأنِّي بهم وقد حمدوا الله كثيراً على حياته، وعلى أنَّهم لم يكونوا سبباً في هلاكه، وعلى بلوغه هذه المنزلة، وعلى أنَّهم سيحملون لأبيهم هذه المرَّة خبراً يثلج قلبه من حرارة الحزن.

أمَّا قراءة الاستفهام فتنقل لنا مشهد الإخوة وقد بدت على محيَّاهم أمارات الدَّهشة والاستغراب، بعد أن أخذتهم المفاجأة، وكأنِّي بهم واجمون من هَوْل المفاجأة.

ففي القراءتين تصوير للحالة النَّفسيَّة الَّتي عاشها الإخوة.

توبةُ الإخوة وصَفْحُ يُوسُفَ

وما أن أتمَّ يُوسُفُ كلامه، حتَّى تمثَّلت لأعينهم صُورَةُ الماضي وذكريات الأمْس، فقالوا مقسمين مقرِّين نادمين: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ﴾ فضَّلك ﴿ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمكانة والعِلْمِ والحِلْمِ والتَّقوى...

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ اعتراف بالخطأ، وتعبيرٌ عن النَّدامة والتَّوبة، يتضمَّن سؤال العفو، وقد ظفروا به، أي والحال أنَّنا كنَّا مذنبين.

فكيف قابل يُوسُفُ إقرارهم وتوبتهم وإنابتهم؟ لو كان غيره مكانه لقَالَ: صَحَّ نَومُكم وطَابَ يَومُكم... أما هو ـ عليه السلام ـ فوالله ما فكَّر في عِتَابٍ، ولا ملامٍ، ولا

تعيير، ولا تأنيب، ولا لوم، ولا انتقام، ولا ثأْر، ولا حِساب؛ لأنَّ النُّفوس الكِبَار فَوْقَ الأحقادِ والأَضْغَان.

فما أنْ سَمِعَ مقالهم واعتذارَهم حتَّى أَقَالَ ذَنْبَهم وعثراتهم، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ : غَفَرَ، وَصَفَحَ، وعفا، أي لا عتب عليكم، ولا تعيير، ولا تذكير، قد سامحتكم، وعفوت عنكم.

ثمَّ توَّج العَفْوَ بالدُّعاء بالمغفرة لهم، فقال: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ مُتَعرِّضاً لرحمته تعالى له ولهم، ويلاحظ أنَّه دعا لهم بالمغفرة ولم يطلبوها منه، بينما سيأتي لهم أن يطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم، فيكون جوابه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ...﴿٩٨﴾ ﴾ وهذا على كلِّ حال مشعر بعفوه عنهم.

وكَرَمُ يُوسُفَ البَالغ بالعفو أصبح مضربَ الأمثال، فعبارته الكريمة: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ مثلٌ رائعٌ في السَّماحة والعَفْو وكرم الإخاء، فهو عَفْوٌ عند المقدرة لا لوم فيه ولا عتاب، وتنازل عن الحقِّ لا شَحْنَاءَ فيه ولا ضَغْنَاء.

فيا لله ما أجملَ هذا العفْوَ! وما أعزَّ صاحبه!

فإذا عزَّ أخوك فَهُنْ، واترك الخلاف، فإنَّ ذلك يُذْهِبُ الحَفِيْظَة، ويَرتُقُ الخَرْقَ، أنشد الأصمعي:

إذا ما امرؤ سَاءَتْكَ منه خَلِيقَـةٌ ... ففي الصَّفْـح طيٌّ للذُّنُـوب جميــلُ
وإنِّي لأعطي المالَ مَنْ ليس سَائِلاً ... حِفَاظـاً وإخـوانُ الحِفَـاظِ قَليــلُ

العَفْو والصَّفْح

من قول إخوة يُوسُفَ: ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾، ومن قول يُوسُفَ:

﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ نفهم أنَّ الاعترافَ بالخطأ سبيلُ الظَّفر بالعفو، وأنَّ الإِقرار بالخطأ والرُّجوع إلى الصَّواب فضيلةٌ، وأنَّ الصَّفْح والإِغماض عن عِتَاب القريب إذا أَسَاءَ خُلقٌ كريمٌ، وأنَّ طلب الزَّلَّات واقتفاء العثرات يُذْهِبُ المودَّات، وأنَّ على المسيء أن يعترف بإساءَته، ويطلب الصَّفْحَ ممَّن أَسَاءَ له، وحينها يُسْتَحبُّ للمُسَاء إليه أن يصفح عن المسيء وَيُصْفِي الودَّ له، فإنَّ المقدرة تُذْهِبُ الحفيظة.

وأنَّه ينبغي أن نكون أصحابَ عفوٍ وغفران، فنعفو عن إخواننا ونغفر زلَّاتهم؛ لِنَنَالَ مغفرة الله تعالى القائل في محكم تنزيله: ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢ ﴾ [النّور].

وعلينا الدُّعاء بالمغفرة لمن أخطأ علينا، وهذا نفهمه من دُعَاء يُوسُفَ لإخوته: ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ ﴾.

وهذا النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ الّذي كان خلقه القرآن الكريم، يعفو يوم الفتح عن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب ابن عمّه وأخيه من الرّضاعة، وكان من أشدِّ النَّاس إيذاء له في مكَّة، فقد أَشَارَ عليّ بن أبي طالب ـ ﷺ ـ على ابن عمِّه أبي سفيان بوسيلة يترضَّى بها رسُولَ الله ـ ﷺ ـ وقال له: ائْتِهِ من قِبَلِ وجْهِهِ، فَقُل له ما قال إِخوةُ يُوسُفَ ليُوسُفَ: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ ﴾ فإنه لا يَرْضَى أنْ يكونَ أحدٌ أَحْسَنَ منه جَواباً، فَفَعَلَ ذلك أبو سُفيان، فقال له رسُولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢ ﴾، فأنشَده أبو سُفيان معتذراً:

لَعَمْرُكَ إِنِّي حين أَحْمِلُ رَايةً ... لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ

لكَالْمُدْلِجِ الحَيْرانِ أظْلَـمَ لَيْلُــهُ فهـذا أوَاني حين أَهْـدِي وَأَهتَـدِي

هَدَاني هَادٍ غَيْرُ نَفْسِـي ودلَّنـي على الله مَـنْ طَـرَّدْتُ كُـلَّ مُطَـرَّدِ

فضرب رسول الله ـ ﷺ ـ صَدْرَهُ، وقال: " أنت طردتني كلَّ مطرد "(١)

وترجمته في "الإصابة"، قال الحافظ:" أسلم أبو سفيان في الفتح، شهد حنيناً، فكان ممَّن ثبت مع النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ... ويقال: إنَّه لم يرفع رأسه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حياءً منه "(٢).

ولَمَّا لحق النَّبيُّ ـ ﷺ ـ بالرَّفيق الأعلى، قال أبو سفيان ﷺ:

لقَـدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُـنا وجَـلَّتْ عَشِيَّـةَ قِيلَ قد قُبِضَ الرَّسُـولُ

وأَضْحَـت أَرضُـنا ممَّـا عَـراها تكـادُ بِنـا جَوانِبُـها تَميـلُ

قَمِيصُ الشِّفاء

عَلِمَ يُوسُفُ أنَّ أباه يَعْقُوب قد ابيضَّت عيناه من الحزن، فأراد تبشيره بحياته، وإدخال السُّرور والبهجة على قلبه، فقال لإخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟﴾ سِراعاً ﴿بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يرجع بصيراً كما كان، وتبرأ عيناه ممَّا اعتراهما من الابيضاض بسبب فرحه بوقوفه على حياتي، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم].

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾: يريدُ جميع الأهل.

---

(١) محمّد الغزالي " فقه السّيرة" (ص٣٧٦)، وقال المحقّق المحدّث الألباني: حديث حسن، أخرجه ابن جرير والحاكم من حديث ابن عبّاس، وقال: "صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذّهبي، وإنَّما هو حسن فقط.

(٢) ابن حجر "الإصابة في تمييز الصَّحابة" (م٤/ ج٧/ ص٨٦) كتاب الكُنى.

عَوْدَةُ الإِخوة إلى أبيهم بالبِشَارة

وركب الإِخوةُ دوابَّهم عائدين إلى أبيهم فرحين يحملون البِشَارة، ولله درّ القائل: " لقاءُ الإخوان جلاء الأحزان" ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ أي ولَمَّا خَرَجَتِ القافلةُ من مصر متوجِّهةً بهم لفلسطين، ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يعقوبُ ـ عليه السلام ـ لِمَنْ عنده مِنْ أهله: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ إنِّي لأشمُّ رائحة يوسُفَ ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ لولا أن تنسبوني إلى الفَنَد، وهو الخرف وذهاب العقل من الكبر والجهل، وجواب الشَّرط محذوف، تقديره: لصدَّقتموني أو لأخبرتكم بحياته، فمن صدقت سريرته انفتحت بصيرته.

وما كاد يعقوبُ ـ عليه السلام ـ يتمُّ حَدِيثَه حتَّى واجهه الحاضرون من أهله وقرابته بالانتقاد، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ أي نُقْسِمُ إنَّك لفي خطئك القديم الَّذي كُنْتَ عليه من حُبِّ يُوسُفَ ودوام ذِكْرِه.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾، وهو أحد أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ يبشِّرُ بِلُقْيا يُوسُفَ مع أخيه حَامِلاً قميص يُوسُفَ ورسالته ﴿ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ أي ألقى البشير القَمِيصَ على وجه يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾، فرجع مبصراً من شدَّة فرحه وسروره:

فما بَعُدَتْ عن اللَّقْيا جُسُومٌ　　　تدانت بالمحبَّةِ والوِدَادِ[1]

وهنا واجه يعقوب ـ عليه السلام ـ مَن بحضرته بالخطاب، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ألم أقل لكم: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي

---

(١) " نفح الطّيب " (ج٣/ ص٤٨٠) والبيت لأبي الصلت أميّة بن عبد العزيز الأندلسي، وقد ورد في " خريدة القصر وجريدة العصر " للعماد الأصبهاني.

بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ ألم أقل لكم: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وبهذا يكون اللهُ ـ جلَّ ثناؤه ـ قد صَدَّقَ قَوْلَ يعقوب: ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ بالفعل والحقيقة، فيعقوب نبيٌّ، وللأنبياء معجزات، وصدَّق قَوْلَ يُوسُفَ: ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ بالفعل والواقع.

التورية في لفظ ﴿ضَلَـٰلِكَ﴾

من أدقِّ أبواب البيان، وألطف فنون البديع المعنوي، التّورية: وهي لفظ يحتمل معنيين، فيستعمل المتكلِّم أحد احتماليها ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله، ومنها قوله تعالى حكاية عمَّن كان في مجلس يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ فالضَّلال يحتمل معنيين: ضدّ المعرفة، والحبّ، فاستعملوا ضدَّ المعرفة توريةً عن الحبِّ، أي أنَّهم أرادوا بكلامهم خلاف ظاهره، فورُّوا بلفظ ﴿ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ عن حبِّه ليُوسُفَ، ليعلم أنَّ المراد ما أهملوا لا ما استعملوا، فهم لا يريدون المعنى الظَّاهرَ القريب، وإنَّما يريدون المعنى الخفيَّ البعيد.

أقْمِصَة يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ

ليُوسُفَ في قصَّتِه ثلاثةُ أقمصة: قميص الجفاء، وقميص البراءة، وقميص الشفاء:

أمَّا قميص الـجَفَاء: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ ﴾ .

وأمَّا قميص البراءة: ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وأمَّا قميص الشِّفاء: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾، ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾.

ثلاثةُ أقْمِصَة وثلاثُ آيات

كان في كلِّ قميص من أقمصة يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ الثلاثة آية:

فحين جاؤوا على قميصه بِدَمٍ كَذِبٍ كانَ القَمِيصُ آيةً على كذبهم وبراءة الذِّئب، فلو أكله الذِّئبُ لخرق القميص.

وحين قدَّ قميصه من دُبرٍ ثبتت براءته، فكان القميص آيةً على نزاهته وعفَّته.

وحين ألقى البشيرُ قميصه على وجه أبيه ارتدَّ بصيراً، فكان القَمِيْصُ آيةً ليُوسُفَ مِنَ الله تعالى.

الإخوةُ يطلبونَ الاستغفارَ من أبيهم

وبعد أن بدا الصُّبحُ لذي عينين جاء إِخْوةُ يُوسُفَ إلى أبيهم يعقوب ـ عليه السلام ـ يسألونه الدُّعاء لهم، وبلسان الاعتذار والتَّوبة ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾، واطلب المغفرة لنا من ربِّنا؛ فقد تبنا ورجعنا وأَنَبْنَا إلى الله تعالى.

﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ كنَّا خاطئين يوم قلنا: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾، وخاطئين يوم قلنا: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾، وخاطئين يوم قال قائلٌ منَّا: ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾، وخاطئين يوم جئناك عشاءً نبكي بكاءً كذباً، وخاطئين يوم قلنا لك: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ كذباً، وخاطئين يوم جئناك ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾، وبالجملة: نحن خاطئون، فاعفُ عنَّا واستغفر لنا ذنوبنا.

فلمّا سمعَ يعقوبُ ـ عليه السلام ـ توبتهم وسؤالهم الاستغفار، وَعَدَهُم بذلك: ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ فالاعتراف بالخطأ والرُّجوع إلى الحقِّ والصَّواب سبيل الحَظْوَة بالعفو والغفران.

تخفيف التوكيد لأخيهم وتشديده لأبيهم

اعْتَرَفَ إخوةُ يُوسُفَ بخطئهم في حقِّ يُوسُفَ مرَّتين: الأولى أمام أخيهم يُوسُفَ، والثَّانية أمام أبيهم يعقوب، فأمام يُوسُفَ، ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ وقد جاء اعترافهم مؤكَّداً بحرف (إنْ) المخفَّفة، وأمام أبيهم يعقوب، ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ وجاء اعترافهم له مؤكَّداً بحرف (إنَّ) المشدَّدة.

ولسائل أن يقول: لماذا خفَّفوا التَّوكيد لأخيهم، بينما شدَّدوه لأبيهم؟! والجواب، يظهر أنّهم اختاروا ﴿ وَإِن ﴾ المخفَّفة من الثَّقيلة وأكَّدوا كلامهم بالإيجاز؛ اهتماماً بالإسراع في الاعتذار، أو أنَّهم خفَّفوا التَّوكيد لأخيهم لأنَّ خطأهم في حقِّ يُوسُفَ تقادم عهده، وعاد على يُوسُفَ بالخير، فقد أصبح على خزائن أرض مصر، وآنسوا منه سهولة الظَّفر بالعفو؛ ولذلك لمَّا اعترفوا بخطئهم أمامَه سَارَعَ بالعفو عنهم، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

ولعلَّهم شدَّدوا التَّوكيد لأبيهم لأنَّ أَثَرَ خطئهم في حقِّه ما زال ظاهراً ماثلاً أمام أعينهم، فهم يلاحظون الحزن العميق على أبيهم وذهابَ بصره وعدم رضاه عنهم، فشدَّدوا التَّوكيد له حرصاً على إظهار توبتهم، ومع هذا لم يسارعْ في الاستغفار لهم، ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ وقوله ﴿ سَوْفَ ﴾ أبعد في الوعد لهم، وفيه دلالةٌ على عُمْقِ الحزن والأسَف، ذلك العمق الَّذي دعاهم

إلى تشديد التَّوكيد له.

تطوّر شخوص القصّة

يلاحظ أنَّ شخوص القصَّة الرئيسة وذات الأدوار المؤثّرة كانت نهايتها أفضل، وخاتمتها أكمل، فالإخوة بعد أن قالوا: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ... ﴿٩﴾ ﴾ و﴿ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ... ﴿٧٧﴾ ﴾، قالوا ليُوسُفَ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ وبعد أن قالوا لأبيهم: ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

وامرأة العزيز بعد أن قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ وقالت: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ قالت: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

كذلك سيّدنا يعقوب تطوَّرت شخصيَّته من الفاضلة إلى الأفضل، وتطوَّرت نفسه من الكاملة إلى الأكمل، فلمّا طلب منه أولاده أن يرسل معهم أخاهم يُوسُفَ، وقالوا له: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ كان جوابه: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ولمَّا طلبوا منه أن يرسل أخاهم الآخر، وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ كان جوابه: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

كذلك يُوسُف، فبعد أن قال للسّاقي: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ... ﴿٤٢﴾ ﴾

قال للسّاقي في المرَة الثَّانية: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ ... ۝٥٠﴾.

ومن عجيب التَّناسب بين السُّور أنّ محور الشُّخوص في سورة يُوسُفَ يدور حول تغيّر أحوالهم بعد أن غيَّروا ما بأنفسهم، ثمّ جاءت سورة الرّعد، وفيها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ... ۝١١﴾ [الرعد].

فإنَّك ترى في سورة يُوسُفَ أنَّ كلَّ قضيَّة ختامُها خير، وكلَّ عُسْر فيها إلى يُسْر، فقد ألقي يُوسُفُ في غيابة الجبِّ فنجا، وبيع بثمن بخس فأكرم عزيز مصر مثواه وجعله بمنزلة الولد، وراودته امرأة العزيز فعصمه الله، واتَّهمته امرأةُ العزيز وافْتَرَتْ عليه الكَذِبَ، ثمَّ برَّأته وندمت وطمعت برحمة الله، ودخل السّجن فخرج منه على خزائن الأرض، وجاءت سنواتُ القحط فوفَّقه اللهُ في مواجهتها وانتهى الجَدْبُ بالخِصْبِ، وآذاه إخوتُه فأَظْهَرَهُ اللهُ عليهم، وفعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا، ثمَّ رجعوا وأنابوا، وطلبوا من أخيهم العفو فعَفا عنهم، وطلبوا من أبيهم الاستغفارَ لهم فاستغفر لهم، وجمع اللهُ بين يُوسُفَ ويَعْقُوبَ، وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش، ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس].



القِسْمُ السَّادس

الخاتمة

ساعة اللِّقاء

وتلبية لدعوة يُوسُفَ سَارَت الأسْرَةُ عن آخرها من فلسطينَ لمصْرَ، وكانت هذه السَّفرة الرَّابعة لمصْرَ، ولكن هذه السَّفرة كان في طليعتها نبيُّ الله تعالى يعقوب ـ السَّلام ـ.

ولمَّا وصلت القافلةُ بهم كان يُوسُفُ في استقبالهم، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ أي ضمَّهما إليه واعتنقهما، ﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ ﴾ أطلق الكلّ وهو لفظة ﴿ مِصۡرَ ﴾ وأراد الجزء، فهو مجاز مرسل، وعلاقته الكليَّة ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ من القحط، والمكاره كلِّها.

أمَّا هل هي أمُّه التي آواها إليه أم خالته؟ فالله تعالى أعلم، فبكلٍّ قال بعضُ المفسِّرين.

أمَّا ساعة اللِّقاء، فما أجملَها وأسعدَها وأهنأَها وأعذبَها من سَاعة! ساعة لا يقف أمامَها متحدِّثٌ، ولا ينالها قَلَمُ أديب.

الاشْتراك في الدُّخول والانفراد في الإيواء

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ يظهر أنَّهم اشتركوا في الدُّخول لكنَّهم تباينوا في الإيواء؛ فالآية أظهرت لنا مشهدين: مشهد دخول يَعْقُوب ـ السَّلام ـ وبنيه أرض مصر، ومشهد إيواء يُوسُفَ وضمِّه لأبويه فقط.

ونفهم من ذلك ما ينبغي للأبوين من إكرام وتقدير، وتقريب وتقديم، كما قال تعالى: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [النِّساء].

مصر في القرآن

لم يَذْكُر الله تعالى بلداً من البلدان باسمه في القرآن كما ذكر مصر، فمثلاً ذكر الله تعالى البلد الأمين مكّة باسمها مرّة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ ... ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح] وذكرها باسم بكّة مرّة، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران] أمّا مصر فورد اسمها صريحا في غير موضع، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ... ﴿٢١﴾﴾ [يوسف] وقال: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف] وقال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا ... ﴿٨٧﴾﴾ [يونس] وقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِى قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِى مُلۡكُ مِصۡرَ ... ﴿٥١﴾﴾ [الزّخرف] وقال: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ...﴿٦١﴾﴾[البقرة].

وذكرها الله تعالى في مواضع بالكناية، فقال: ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِى ٱلۡمَدِينَةِ ... ﴿٣٠﴾﴾[يوسف] أي في مصر، وقال: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ ... ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف] أي جاؤوا مصر، وقال: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ ... ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف] يعني أرض مصر، وقال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ... ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف] أي اذهبوا إلى مصر.

ووصيَّة النَّبيّ ـ ﷺ ـ بأهل مصر خالدة في الصَّحيح، أخرج مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ: " إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا

---

(١) جاءت مصر في هذه الآية مصروفة، وفي سواها من الآيات جاءت ممنوعة من الصَّرف، وفي معناها قولان: أحدهما أنّه البلد المسمّى بمصر. والثّاني: أنّه اسم غير معيَّن لأيّ مصرـ من الأمصار.

الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا، أَوْ قَالَ ذِمَّةً وَصِهْرًا (١)"(٢)

تأويلُ رُؤيا يُوسُفَ وَحَدِيثُ الوِئام

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أي أجلسهما على سرير الملك ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ سجدوا له سُجُودَ تحيَّةٍ وتكْرُمَةٍ لا سجود عبادة؛ لأَنَّ بني يعقوب ـ عليه السلام ـ لم يكونوا يسجدون لغير الله تعالى.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾، وذلك تفسيرها: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾، ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ وصِدْقاً.

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ أي وقد أنعم عليَّ الله تعالى بإخراجي من السِّجن بريئاً.

وكان يُوسُفُ حسَّاساً في انتقاء الألفاظ، فلم يَقُل: وقد أَحْسَنَ بي إذ أخرجني من الجُبِّ؛ تكرُّماً منه لئلَّا يذكِّر إخوته بما يجرحهم ويؤلمهم ويُخجلهم، فهو لا يريد تقريعهم بعد أن عفا عنهم، بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾، كذلك آثر ذكر السّجن لأَنَّ النِّعمة الَّتي أعقبت خروجه منه كانت أوضح، فقد خرج من الجبِّ إلى الرِّقِّ، لكنَّه خرج من السّجن إلى الملك، وكذلك فإنَّ محنة الجبِّ لم تدم طويلاً، خلافاً لمحنة السّجن...

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾، وهذا إحسان آخر، أي وقد أَحْسَنَ الله تعالى بي أنَّه أتى بكم من البادية إلى مِصْرَ، فالتقينا وتصافينا ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ وأفسد

---

(١) أمّا الرّحم فلأنّ هاجر أمّ إسماعيل منهم، وأمَّا الصِّهر فلكون مارية أمّ ولده إبراهيم منهم.
(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٦/ ص٧٩) كتاب فضائل الصّحابة.

﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، ونَسَبَ ما وقع من إخوته إلى الشَّيطان، تأدُّباً معهم، ولم يكتف، بل قَسَمَ النَّزغ بينه وبينهم، مع أنَّه لم يشاركهم في شيء إظهاراً لعذرهم، وهذا فيه إشارة إلى تحقُّق تأويل يعقوب ﷺ من إتمام النِّعمة والعلم على يُوسُفَ ﷺ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بخَلْقِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ في تدبيره وصنعه.

سَبْقُ ما يقتضي التقديم

ورد قول الله تعالى: ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ في سورة الأنعام ثلاث مرّات في ختام ثلاث آيات، وورد قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ في سورة يُوسُفَ ثلاث مرّات في ختام ثلاث آيات أيضاً، ويلاحظ تقدُّم لفظ حكيم على عليم في سورة الأنعام، وتأخُّره في سورة يُوسُفَ، فما الحكمة؟

التَّقديم والتَّأخير يكونان بحسب الأهميَّة، والأهميَّة لا يراد بها الأفضليَّة، فقد يـتأخَّر الفاضل ويتقدَّم المفضول، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣﴾ [التّين] فقد تأخَّر القَسَمُ بالبلد الأمين (مكّة) وهو الأفضل، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ ...٤٠﴾ [الحجّ] ويلاحظ تأخُّر المساجد، وهي الأفضل.

وإنَّما المراد بالأهميَّة مراعاة الوجوه البلاغيَّة والمقاصد البيانيَّة، فلا يتقدَّم لفظٌ على لفظٍ في آية ولا يتأخّر في آية أخرى عبثاً، وإنَّما يكون مقصوداً ومراداً، فالمعاني القرآنية مؤاخية للألفاظ بحيث لا يمكن أن يتقدَّم لفظٌ على لفظ ويؤدي معناه.

ففي سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام] ومن نَظَرَ نَظَرَ اللَّبيب

الحَصِيف اتَّضح له أنَّ الآية تتحدَّث أوَّلاً عن حكمة الله تعالى في إيتاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ حجَّته على قومه ورفعه درجات، وتتحدَّث ثانياً عن علم الله تعالى أنَّ إبراهيم أهل لذلك.

وقال في سورة الأنعام: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام] والمتأمّل في الآية يعلم أنَّها تتحدَّث أوّلاً عن حكمة الله تعالى في خلق الإنس والجنّ، وسنَّته في الهداية والإضلال، وعلمه ثانياً بمن يستحقُّ الخلود في النَّار.

وقال في سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام] والمتدبّر في الآية يعلم أنَّها تتحدَّث أوّلاً عن حكمته سبحانه في إلغاء أحكام ابتدعها أهل الجاهليَّة على ما أرادوا، وإبطال ما شرعوه من حلال وحرام على ما اعتادوا، وعلمه ثانياً بكذبهم وما يستحقّونه من جزاء.

أمّا في سورة يُوسُفَ، فقال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ والنّاظر في الآية يعلم أنَّها تتحدَّث أوّلاً عن عِلْم الله بأنَّ يُوسُفَ يستحقّ الاجتباء، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام]، وأنَّ الله تعالى يعلّمه بعلمه من تأويل الأحاديث، وتتحدَّث ثانياً عن حكمته سبحانه حيث يضع الأمور في مواضعها.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى

بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ وهذه الآية تتحدَّث أوّلاً عن عِلْم الله تعالى بحال يعقوب، وبمكان يُوسُفَ وأخويه، وثانياً عن حكمة الله تعالى في صنعه وتدبيره.

وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَـٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ وهذه الآية تتحدَّثُ أوّلاً عن علم الله المسبق بما كان وما يكون، وعن تعليم الله له ولأبيه تأويل الأحاديث، وتتحدَّث ثانياً عن اجتماع الشَّمل والائتلاف بعد الاختلاف، وتحقّق الرُّؤيا ووقوعها في وقتها المعلوم، وهذا من مقتضى حكمته سبحانه!

وبالجملة فإنَّ تقديم الحكيم على العليم في (الأنعام) لأنَّ المقام مقام تشريع الأحكام، وبيان حكمة الله وسنَّته في خلقه، وأمَّا تقديم العليم على الحكيم في (يوسف) فلأنَّه قال في أوّلها: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ وقال في آخرها: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ...﴿١٠١﴾﴾ فالسُّورة تتحدَّث عن العلم من أوَّلها إلى آخرها.

الاعترافُ لله بالنِّعم

ضرب لنا يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ مثلاً في الصَّبر على البلاء، والرِّضا بالقضاء، والشُّكر في الرَّخاء، فتراه يَعْتَرِف بنعم الله تعالى عليه، ولا يزال يذكر هذه النِّعم ليحدث شُكراً كُلَّما ذكرها، ولذلك تجده يقول ما يخبر الله عنه: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ويقول: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَـٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ... ﴿١٠٠﴾﴾ وهكذا ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدَّة وكرب أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن يشكرها ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ... ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم] وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى].

لا سُجُودَ إلا لله تعالى وَحْدَه

إنَّ السُّجود لا يجوز لأحد إلَّا لله تعالى وحده، وقد منع الشَّرعُ السُّجود لغير الله تعالى منعاً جازماً؛ سدّاً للذرائع، ومنعاً للشِّرك.

ولا يجوز السُّجود، ولو كان المقصود به التحيَّة والتَّكرُمة إلَّا بأمرٍ من الله تعالى، ولم يقع سجود التَّحيَّة مشروعاً إلَّا لآدم ويُوسُفَ ـ عليهما السَّلام ـ.

أمَّا آدم ـ عليه السلام ـ فقد وقع له السُّجود من الملائكة بأمْرٍ من الله تعالى، قال جلَّ جلالُه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ... (٣٤) ﴾ [البقرة].

وأمَّا يوسف ـ عليه السلام ـ فوقع السُّجود له من البشر بإرادة الله تعالى، قال جلَّ ذكرُه: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ... (١٠٠) ﴾.

ولا سجود لأحدٍ بعد ذلك، لا سجود لآدم، ولا سجود ليُوسُفَ، ولا سجود لمخْلُوق مهما عَظُمَ شأْنُه وعلت مكانته، ومَنْ سَجَدَ بعد ذلك لغير الله تعالى؛ فقد أشرك: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا (١١٠) ﴾ [الكهف].

بَيْنَ رؤيا يُوسفَ وعبارتها أربعون عاماً

قوله تعالى على لِسَان يُوسُفَ: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ ورد أنَّه كان بين رُؤْيا يُوسُفَ إلى أَنْ رأى تأويلها أربعون عاماً، أخرج الحاكم بسند صحيح عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ، قال: " كان بين رؤيا يُوسُفَ وتأويلها أربعون سنة "(١)

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج٤/ ص٣٩٦) كتاب تعبير الرّؤيا. وأخرجه البيهقي بسند صحيح في " الجامع لشعب الإيمان " (ج٦/ ص٤٣٤/ رقم٤٤٤٦). وأخرجه الطّبري بسند صحيح في " جامع البيان " (ج١٦/ ص٢٧١/ رقم١٩٩٠٧) وقال ابن حجر في " فتح الباري" (ج١٢/ ص٣١٧): أخرجه الطبري، والحاكم، والبيهقي في الشّعب بسند صحيح عن سلمان الفارسي.

ومن ذلك نفهم أنَّ الرؤيا الصَّادقة قد يتأخَّر تأويلها، فقد ترى الرؤيا ويقع تأويلها وتتحقَّق بعد عشرات السّنين.

مِسْكُ الختام

كانت أوَّل شخصيَّة ظهوراً في القِصَّة شخصيَّة يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾، وآخر شخصيَّة ظهرت في القصَّة شخصيَّة يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ أيضاً، إذ قال ـ عليه السلام ـ مناجياً ربَّه: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي أعطيتني حظّاً مِنَ الملك ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي وعلَّمتني شيئاً من تعبير الرؤى، و﴿مِن﴾ فيهما للتبْعِيض والتَّجزئة؛ إذ لم يُؤْتَ ـ عليه السلام ـ إلَّا بعض التَّأويل وبعض الملك؛ لأن الملك كلَّه لا يملكه إلَّا الله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار].

﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ خالق السَّموات والأرض ومبدعهما ﴿ أَنتَ ﴾ يا ربِّ ﴿وَلِيِّۦ فِي﴾ داريّ ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾.

وبعد هذا الثَّناء جَاءَ الدُّعاء: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾، سأل ـ عليه السلام ـ الله تعالى أن يتوفَّاه على الإيمان والإسلام حين يتوفَّاه، وأن يحفظ عليه إسلامه، وأن يثبِّت عليه دينه وإيمانَه إلى أن يلقاه. كأنَّه ينظرُ إلى وصيَّة آبائه المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ من النَّبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، سائلين الله تعالى أن يتوفَّنا مسلمين، وأن يلحقنا بالصَّالحين، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

العِبرةُ بالخواتيم

إنَّ العبرة بالخواتيم والأواخر، فرغم ما وقع من إخوة يُوسُفَ؛ إلَّا أنَّ يُوسُفَ رآهم (كواكب)؛ لأنَّهم أنابوا وندموا آخر أيامهم وتابوا، فمن قولهم لأخيهم يُوسُفَ: ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾، ومن دعاء يُوسُفَ لهم: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾، ومن قولهم لأبيهم: ﴿ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾، وقول أبيهم لهم: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ نعلم أنَّ خاتمة أعمالهم كانت حَسَنَةً.

آية تلخِّص قصَّة يُوسُفَ

التَّعبير البيانيّ عن القصص القرآنيّ تجده قليل المبنى جمّ المعنى، صافياً من الحشو، قاصراً اللَّفظ على معناه، وهو ما يعرف في علم المعاني بالإيجاز، وهو على ضربين: وجيز بلفظه، ووجيز بحذف، وقد عرض له غير عالم بما يغني عن إعادته هنا.

وقصَّة يُوسُفَ مع ما فيها من إيجاز واختصار، إلَّا أنَّ فيها آيةً تكاد تلخِّص القصَّة من ألفها إلى يائها، وهي قوله تعالى حكاية عن يُوسُفَ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

فإنَّ هذه الآية أوجزت الأسباب الَّتي أدَّت إلى تطوُّر أحداث القصَّة، فقوله : ﴿ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ ﴾ اقتصر على تحقّق الرّؤيا الّتي كانت سبباً في تعاظم حسد إخوته، وإلقائه في البئر، ثمّ بيعه بمصر، وقوله: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ اختصر قصَّة دخوله السّجن وخروجه منه، الَّذي جعله

الله سبباً في تمكينه في الأرض، وقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ ﴾أوجز قصَّته وهو عزيز مصر، وكيف جعل الله الملك سبباً في اجتماع الشَّمل، وقوله:﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ عين التَّوحيد الَّذي تدور حوله القصَّة، فبلطف الله عصم إخوته من قتله، وبلطفه عصم يوسف من امرأة العزيز، وبلطفه صار عزيز مصر، وبلطفه جمع بينه وبين يعقوب، وبلطفه سَبقَت الأخوَّةُ الجَفْوَة، وبلطفه كلُّ عُسْرٍ إلى يُسْرٍ، وبلطفه كلُّ شِدَّة إلى فرج.

الأوصاف الَّتي اشتهر بها يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ

اشتهر بعض الأنبياء بأوصاف، فقد اشتهر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالخليل، واشتهر موسى ـ عليه السلام ـ بالكليم، واشتهر النَّبيُّ ـ ﷺ ـ بالصَّادق الأمين، واشتهر يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ بأوصاف كثيرة، وقد جاءت في غير مكان، وعلى غير لسان، فعلى لسان النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وُصِفَ بالكريم، قال ـ ﷺ ـ: " الكَريمُ ابنُ الكَريمِ ابنِ الكَريمِ ابنِ الكَريمِ، يُوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ ـ عليهم السَّلامُ ـ "[١] وقَالَ ـ ﷺ ـ : "فأكْرَمُ النَّاس يُوسُفُ نَبِيُّ الله ابنِ نبِيِّ الله ابن خَليلِ الله... "[٢]. والمراد أنَّه أكرم النَّاس من جهة النَّسب، ولا يلزم من ذلك أن يكونَ أكرمَ من غيره مطلقاً.

وَوصِفَ بالصِّدِّيق وغلبت عليه هذه الصِّفة، فعلى لسان الشَّاهد: ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾، وعلى لسان السَّاقي: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ... ﴿٤٦﴾ ﴾، وعلى لسان امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

ووصف بالإحسان في غير مكان، فقد وصفه الله بهذا الوصف، فقال: ﴿ وَلَمَّا

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٢١) كتاب بدء الخلق.
(٢) المرجع السَّابق.

بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ وعلى لسان السجينين: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ وعلى لسان إخوته وهم لا يشعرون أنَّهم أمام يُوسُفَ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ وعلى لسانه وهو يُؤكِّد أنَّ الإحسانَ يُراد به التَّقوى والصَّبر، وأنَّ أُجور المحسنين محفوظة: ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

دعوى النسخ في قوله: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

ذكر بعض المُتأخِّرين أنَّ قوله تعالى إخباراً عن يُوسُفَ: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ منسوخ بقول النَّبيِّ ـ ﷺ ـ: "لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الموْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي"(١) وهذه دعوى واهية واهنة؛ فإنَّ يُوسُفَ لم يتمنَّ الموت، وإنَّما سأل الله أن يتوفَّاه مسلماً بعد استيفاء أجله، فمعنى قوله: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ أي عند حضور أجلي، وهو أشبه بالمجاز على اعتبار ما سيكون.

ثمَّ إنَّ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ لمَّا دعا ربَّه بهذا الدُّعاء لم يدْعُه من ضرٍّ أصابه، فلم يدع الله بهذا الدُّعاء لمَّا أُلقي في الجُبِّ، أو لمَّا باعته السيَّارة واشتراه العزيز، أو لمَّا أُلقي في السِّجن، أو لمَّا واجهته سنوات القحط والجدب... وإنَّما دعاه بعد أن تـمَّت عليه نعمة الله.

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٠) كتاب المرضى والطِّبّ، وأخرجه في كتاب الدّعوات. وأخرجه مسلم في "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٧/ ص٧) كتاب الذّكر والدّعاء.

وهذه الدَّعوى مردودة من وجوه، حسبنا منها ما ذكرنا، ولعلَّ من أَثَارَها يخاف من هذا الدُّعاء الَّذي دعا يُوسُفُ به ربَّه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ فلم يدع الله أن ينْسَأ له في أثره، أو أن يمُدَّ له في عمره، أو أن يؤخّر له في أجله... وإنَّما ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ... ﴿١٠١﴾﴾.

قال كعبُ بن زهير:

وَالْمَرْء مَا عَاشَ مَمْدُود لَهُ أَمَــلٌ   لَا تنتهي العَينُ حَتَّى يَنْتَهِي الْأَثَرُ

هَل إخوةُ يُوسُفَ أنبياء؟

أُخْتُلِفَ فِيهِمْ، فَقِيلَ: كَانُوا أَنْبِيَاءَ، بدليل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ... ﴿١٦٣﴾﴾ [النّساء] وقيل لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ نَبِيٌّ، وَإِنَّمَا المراد بالأسباط قَبَائِلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وما كان فيهم مِن الأنبياء، وهو الَّذي قوَّاه ابن كثير في "تاريخه"[(١)] ورجح عندي؛ فأفعالهم وأقوالهم تشهد بعدم نبوَّتهم، ولا يلزم أن يكونَ أولادُ الأنبياءِ أنبياء، والله أعلم، فالمسألة لا تخلو من خِلافٍ، ورحِم الله العلماءَ الأُوَل، فقد تهيَّب كثيرٌ منهم تفسير القرآن حذراً أن يزلُّوا، فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء فقهاء أجلَّاء.

أمَّا يُوسُفُ فقد نصَّ القرآنُ على نبوَّته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ... ﴿٣٤﴾﴾ [غافر].

---

(١) ابن كثير "البداية والنّهاية" (ج١/ ص٢٢٨).

تمثيل الشُّهور كإخوة يُوسُفَ

قيل: " الشُّهور الاثني عَشَر كمثل أولاد يعقوب ـ عليه وعليهم السَّلام ـ، وشهر رمضان بين الشُّهور كيُوسُفَ بين إخوته، فكما أنَّ يُوسُفَ أحبُّ الأولاد إلى يعقوب، كذلك رمضان أحبُّ الشُّهور إلى علَّام الغيوب"(١).

وصيَّةُ يَعقُوب ـ عليه السلام ـ لبنيه عند الموت

ولَمَّا حَضَرَتْ يَعْقُوبَ الوفاةُ، جَمَعَ بنيه وأوصَاهُم، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ الغرض من السُّؤال حثُّهم على التَّوحيد والإسلام الَّذي كانوا عليه في حياته ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة] وعُدَّ إسماعيل من الآباء من باب التَّغليب؛ لأنَّ العمَّ بمنزلة الأب، فقد كانت العرب تسمِّي العمَّ أباً، والخالةَ أُمّاً، قال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: "عمّ الرَّجل صنو أبيه" (٢) أي مثل أبيه، وذلك تعظيماً لحقِّه.

عبارات تكرَّرت على نفس اللِّسان في غير مكان وزمان

من العبارات الَّتي تردَّدت على نفس اللِّسان، قول يَعْقُوب ـ عليه السلام ـ: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فقد قالها لأبنائه لَمَّا جاؤوا على قميص يُوسُفَ بدم كذب، وأخبروه بأنَّ الذِّئب أكل يُوسُفَ، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ وقال هذه العبارة مرَّة ثانية

---

(١) ابن الجوزي " بستان الواعظين " (ص٣١٧).

(٢) مسلم: " صحيح مسلم بشرح النَّووي" (م٤/ ج٧/ ص٥٧) كتاب الزَّكاة.

لأولاده لَمَّا أخبروه أنَّ ابنه سرق صواع الملك وأُخِذَ بذنبه، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ومن العِباراتِ ﴿ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ وقد جاءت على لِسَانِ امرأة العزيز في سِياق اعترافها، فأمام نسوة المدينة ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ وأمام الملك نطقت بالعبارة نفسها، ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

ومن العِباراتِ ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ وهي من قول النِّسوة لَمَّا خرج عليهنَّ يُوسُفُ بأمر امرأة العزيز: ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ... ﴿٣١﴾ ﴾ وقد نطقْنَ بها مرَّة أخرى في إثبات براءة يُوسُفَ ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ... ﴿٥١﴾ ﴾.

ومن العِباراتِ قولُ يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ ﴾، فلمَّا راودته امرأة العزيز ودعته إلى نفسها: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ولَمَّا طلب الإخوةُ منه أن يأْخُذَ أحدَهم بذَنْبِ أخيهم الَّذي اتُّهم بالسَّرقة: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ومن العبارات قَسَمُ الإخوة: ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ فلمَّا اتَّهمهم المؤذِّن بسرقة صواع الملك، ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ولَمَّا نقلوا لأبيهم يَعقُوب نبأ سرقة ابنه، وأنَّهم شهدوا عليه بما علموا، وابيضّت عيناه من الحزن لأجل ذلك ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ولمّا عرَّفهم يُوسُفُ بنفسه ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

لسائل أن يسأل: ما الحكمة من ذِكْرِ القَصَصِ في القرآن الكريم؟!

الجواب: الحكمة من ذكر قَصَصِ الأنبياء في القرآن الكريم تبْدُو واضحة في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

وتبدو جَليَّة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

وكذلك أراد الله تعالى بذكر القصص القرآني أن يثبت للبشريَّة أجمع أنَّ هذا النَّبِيَّ الأميَّ الَّذي لم يكن يقرأ ولا يكتب ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ ... ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]، والَّذي لم يدخل مدرسة ولا جامعة، ولم يجالس فيلسوفاً ولا مؤرِّخاً ولا قاصّاً ولا راوياً نبيٌّ حقّاً وصدقاً.

فبعد قصَّة استوعبت السُّورة كُلَّها إلَّا قليلاً، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ﴾ أي ذلك القصص وأمثاله من أخبار الغيوب السَّابقة نوحيه إليك يا محمَّد ليكون دليلاً على نبوَّتك وصدق بعثتك ورسالتك، إذ ما كُنْتَ عِنْدَ يَعْقُوب حاضِراً يوم ﴿قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي وما كنت لدى إخوة يُوسُفَ حاضراً ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ على إلقاء يوسف في غيابةِ الجبِّ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ به الدوائر، فإذا لم تكن لديهم إذاً فَمَن الَّذي عَلَّمَكَ قصَّة يُوسُفَ كلَّها إلَّا الله تعالى، القائل في محكم تنزيله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ

فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النِّساء].

فالنَّبيُّ ـ ﷺ ـ ما كان إلَّا من جملة الغافلين عن قصَّة يُوسُفَ وغيرها، قال تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

فإخبارُ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ عن قصَّة يُوسُفَ وباقي القصص الماضية مع أنَّه ـ ﷺ ـ لم يكن حاضِراً تلك القرون الخاليات والرُّسوم الدَّارسات، ولم يكن حاضراً تلك الأمم الغَابِرة الَّتي سَادت ثمَّ بَادَتْ دَلِيلٌ قَاطِعٌ على صدق نبوَّته ـ ﷺ ـ، وعلى ربَّانية القرآن الكريم.

والآيات الَّتي فيها استدلالٌ على نبوَّة سيِّدنا محمَّد ـ ﷺ ـ وإثباتٌ لرسالته بدليل إخباره عن القصص الَّتي مضت من مددٍ مديدة، وعهود بعيدة، والجاري الإخبار عنها مجرى الإخبار عن الغُيُوبِ، والَّتي لا يمكن معرفتها إلَّا من جهة الوحي كثيرة، نحو قوله تعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ ...﴿٤٦﴾ ﴾ [القصص]وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [ص] .

فالآيات صريحة في أنَّ هذه القصص على لِسَان النَّبيِّ ـ ﷺ ـ إنَّما هي آية من آيات الوحي، وأَمَارة من أمارات النُّبوَّة ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ

أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود].

ومع هذا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ... ﴿٤﴾ ﴾[الفرقان]، ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان] وقالوا: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النَّحل]

وصدق ربِّي ـ تبارك وتعالى ـ القائل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنعام]

تعيُّن الدَّعوة إلى الله على بَصِيرَة على كلِّ مُؤْمِن

ثمَّ قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ تسلية للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ والمراد أهل مكَّة ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على هدايتهم وإيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على القرآن وتبليغه ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عِظَة وتذكرة ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ كافَّة، لا يختصُّ بهم ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الآيات الظَّاهرة والبراهين الباهرة تشهد على أنَّ الله واحد ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ باللَّيل والنَّهار والعشيّ والإبكار﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ لا يعتبرون بها، فلا عجب من إعراضهم عنك يا رسُولَ الله!

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ به ـ سبحانه ـ شِرْكاً جليّاً أو خفيّاً ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ عُقوبة مُجلِّلة تَعُمُّهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ بقيامها.

﴿ قُلْ ﴾ يا محمَّد للمشركين ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي ﴾ طريقي وسنَّتي ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ

عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ على هدىً ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾يدعو إلى الله كما أدعو ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

فهذا واجب كلِّ مسلم أن يدعو إلى الله على بصيرة، فالآية فيها دليل على أنَّ كلَّ متَّبع للنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ بحقٍّ وصدق حقٌّ عليه أن يقتدي بالنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فيدعو إلى ما دعا إليه ـ ﷺ ـ على بصيرة، وفيها دليل على أنَّ على المسلمين دعوة النَّاس إلى توحيد الله تعالى كما كان على النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ ذلك.

واعلم أنَّ الدَّعوة عامَّة وخاصَّة: فالعامَّة يقوم بها كلٌّ حسب استطاعته، قال النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ : " بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً "(١) والخاصَّة تتعيَّنُ على العُلماء.

الإيمان المقيَّد بحال الشِّرك

أشكل على بعضهم قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ قالوا: كيف وُصِفَ المشركُ بالإيمان، وكيف يجتمع الإيمانُ مع الشِّرك ؟ فهناك منافاة بين الإيمان والشّرك!

والجواب: أنَّ المراد بإيمان أكثرهم اعترافهم بألسنتهم بأنَّ الله هو ربُّهم الخالق الرَّازق المدبِّر...، والمراد بشركهم عبادتهم غيره معه، فليس المراد بإيمانهم حقيقة الإيمان، وإنَّما المراد أنَّ أكثرهم مع إظهارهم الإيمان بأفواههم مُشْرِكون، فالإيمان المقيَّد بحال الشِّرك إيمان لغويّ لفظيّ لا شرعيّ، ومن الآيات الدَّالة على هذا المعنى، قوله تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزّخرف]، وقوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس]،

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٤٥) كتاب أحاديث الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ
قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ (٨٦)
سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ (٨٩)
بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٩٠) مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا
لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَٰلِمِ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٩٢) ﴾ [المؤمنون].

وتوحيد الرُّبوبيَّة: هو توحيد الله بأفعاله سبحانه، مثل الخَلْق والرِّزق وتدبير الأمر... وهذا أقرَّ به الكفَّار على زمن النَّبيِّ - ﷺ - ولم يدخلهم الإسلام، فهم يعلمون أنَّ الله هو الَّذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت... لكنَّهم يشركون غيره في العبادة.

ولذلك فإنَّ توحيد الرُّبوبيَّة لا ينفع إلَّا بتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الألوهيَّة: هو توحيد الله تعالى بأفعال العباد، ويسمَّى توحيد العبادة، فلا نعبد ولا نستعين إلَّا بالله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة] ولا نستعيذ إلَّا بالله: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (١) ﴾ [النَّاس] ولا ندعو إلَّا الله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ...(٦٠) ﴾ [غافر] ولا نخاف إلَّا الله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ ...(١٧٥) ﴾ [آل عمران] ولا نتوكَّل إلَّا على الله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٣) ﴾ [المائدة].

وهذا النوع من التَّوحيد جاءت به الرُّسل جميعاً: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ... (٣٦) ﴾ [النَّحل] وهو ما أنكره الكفَّار قديماً وحديثاً.

ابتداء السُّورة وانتهاؤها بالعلم

سورةُ يُوسُفَ موضوعها العلم؛ ولذلك ابتدأت به، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ...﴿٦﴾ ﴾ وتضمَّنته، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ وقول يُوسُف لصاحبي السّجن: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ﴿٣٧﴾ ﴾، وقول يوسف لملك مصر: ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ وقول يعقوب لبنيه ولمن كان حاضِراً عنده: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ وقوله تعالى في معرض الثَّناء على يعقوب: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ وفي ختام السُّورة، دعا يُوسُفُ عليه السلام ربَّه: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ...﴿١٠١﴾ ﴾.

التَّوافق بين المطلع والنِّهاية

من التَّوافق العجيب بين مطلع القصَّة ونهايتها، أنَّ القصَّة ابتدأت بالرُّؤيا، واختتمت بتأويلها، فقد ابتدأت القصّة بمشهد يُوسُفَ أمام أبيه وهو يقصُّ عليه رؤياه، ويقول له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ واختتمت بمشهد يُوسُفَ أمام أبيه بعد أن تحقَّق تأويلها، وهو يقول له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ ... ﴿١٠٠﴾ ﴾

ومن التَّناسق العجيب بين مطلع السُّورة وخاتمتها، أنَّ السُّورة افتتحت بالقرآن، وأكَّدت أنَّه قرآن عربيّ، وأنَّ فيه أحسن القصص، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ... ﴿٣﴾ ﴾ وفي

ختام السُّورة بيَّن الله تعالى الحكمة من ذكر القصص في القرآن، ونفى أن يكون هذا القرآن حديثاً يُختلق، وأنَّه من عند الله، فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

وهكذا تظهر الوحدة بين مطلع القصَّة ونهايتها، والوحدة بين مطلع السُّورة ونهايتها.

سبحان من لا يزول ملكه!

من المشاهد المؤثِّرة مناجاة يُوسُفَ لربِّه في ختام السُّورة وندائه: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾، و ﴿ مِنَ ﴾ تفيد التَّجزئة كما هو معلوم، أي آتيتني جزءاً من الملك؛ لأنَّ الملك المطلق لله وحده، وقوله فيه اعتراف بالفضل والإحسان لله تعالى ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وهذا اعتراف آخر، كذلك صفة الصَّالحين ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وهذا ثناء ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ وهذا دعاء، وقد قدَّم الثَّناء على الدُّعاء، كذلك دأب الأولياء.

فبعد أنْ رأى ـ عليه السلام ـ أنَّ نعمة الله قد تمَّت، وعرف أنَّ هذا علامة أجله، وأنَّه الوداع؛ دعا ربَّه دعاءً عبَّر فيه عن محبَّته إلى لقائه وإلى اللَّحاق بالصَّالحين، وكما قال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ"(١)

وهكذا مات يُوسُفُ ـ عليه السلام ـ ، وزال ملكه، فسبحان صاحب العزَّة الدَّائمة والمملكة القائمة! وهذا يذكِّر بالواثِق ـ رحمه الله ـ لـمَّا احْتَضَرَ أَمَرَ بالبُسُط فَطُويت

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص١٩١) كتاب الرِّقاق. ومسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي" (م٩/ ج١٧/ ص٩) كتاب الذِّكر والدُّعاء.

من تحته، وأَلصَقَ خدَّه بالأرض، وجعل يقول: " يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه! ".

براعة المطلب وحُسْنُ التوسُّل

وفي قوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ ما يعرف ببراعة المطلب وحسن التَّوسُّل، فقد جاءت الألفاظ في أعلى طبقات الأدب مع الله، مقترنة بتعظيم الله، معبِّرة عن فضله.

آيات فيها ذِكْرُ نجاة من شدَّة أو خوف ونحو ذلك

في سُورة يُوسُفَ جملةٌ من الآيات وَرَدَ فيها ذِكْرُ نجاة من شدَّة أو خوف ونحو ذلك، فسورة يُوسُفَ اختُصَّتْ بحصول الفرج بعد الشِّدَّة، وهذه الآيات، هي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ... ﴿٦﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ ... ﴿٢١﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وقولـــه تعـــالى: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

وقولــه تعــالى: ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وقولــه تعــالى: ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وقولــه تعــالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

وقوله تعـالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

فمن كان ذو عسرٍ أو عسرةٍ فليصبر ولينتظر الفرج ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطَّلاق] وكم من آية تدعو إلى الصَّبر وتبشِّر بحسن مآله، وكم من رزيَّةٍ أجهد الحزن صاحبها، أو بليَّة كدَّ الهمُّ رفيقها، فأعقب الصَّبر عليها انكشافُها والرَّاحة منها، فما من مؤمن صبر على صروف الدَّهر وتماسك في نكباته إلَّا كان الفرج منه وشيكاً، ولله القائل:

يُرَاعُ الْفَتَى لِلْخَطْبِ تَبْدُو صُدُورُهُ ... فَيَأْسَى وَفِي عُقْبَاهُ يَأْتِي سُرُورُهُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّيْلَ لَمَّا تَرَاكَمَتْ ... دُجَاهُ بَدَا وَجْهُ الصَّبَاحِ وَنُورُهُ

فَلَا تَصْحَبَنَّ الْيَأْسَ إِنْ كُنْتَ عَالِمًا ... لَبِيبًا فَإِنَّ الدَّهْرَ شَتَّى أُمُورُهُ

حسن المقطع في سُورة يُوسُفَ

المراد بحسن المقطع أن يُختم الكلام بكلام حسن السَّبك، حسن الحَبْك، غزير المعنى، بعيد المغزى، بديع المرمى؛ لأنَّه آخر ما يقرع السَّمع، وآخر ما يقع عليه البصر، وآخر ما يبقى في الذِّهن، ولذلك تجد خواتم السُّور فيها من الحلاوة

والطَّلاوة ما فيها.

وقد ختمت سورة يوسف بوصف القرآن ومدحه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وختاماً؛ لنا في يُوسُفَ والأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ عامَّة، وفي رسُولِ الله محمَّد ـ ﷺ ـ خاصَّة ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ...﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، سائلين الله تعالى الَّذي مَنَّ علينا بهذا العمل قبل أن يوافينا الأجل أن يجعلنا من المؤمنين، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾، [المعارج] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعارج]

كما نسأله ـ جلَّ جلاله ـ أنْ يجعلَ هذا الكتابَ لمن أعاننا عليه نوراً يَسْعَى بين يديه ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد].

وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.



المصادر والمراجع

١ـ آيات الله في الآفاق (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسّنّة): محمّد راتب النّابلسي. دار المكتبي، دمشق، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢ـ أحكام القرآن: ابن العربي، محمّد بن عبد الله. دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

٣ـ إحياء علوم الدّين: أبو حامد، محمّد الغزالي. دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٤ـ أخوّة الإسلام فوق مستوى الخلافات وتباين الأفهام: محمّد الحكمي. مكتبة الإرشاد ـ اليمن، ومكتبة جدة ـ السعودية، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٥ـ أدب الكتاب: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم. دار صادر، بيروت، ١٩٧٦م.

٦ـ أسباب النّزول: علي بن أحمد النّيسابوري. دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٧ـ أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د. محمّد الاسكندراني. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٨ـ أسرار ترتيب القرآن: جلال الدين السّيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد. دار الاعتصام، جدة، ١٩٧٦م.

٩ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

١٠ـ إعجاز القرآن: محمّد بن الطَّيِّب الباقلّاني، تحقيق محمّد شريف. دار إحياء العلوم، بيروت.

١١ـإعجاز القرآن البياني: د. صلاح الخالدي. دار عمّار ـ عمّان، ط٣، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

١٢ـ إعجاز القرآن الكريم: د. فضل حسن عبّاس. دار الفرقان، عمّان، ط٤، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٣ـ إعجاز القرآن والبلاغة النَّبويَّة: مصطفى صادق الرّافعي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٤ـ إعراب القرآن: النّحاس، أحمد بن محمّد، تحقيق د. زهير غازي. عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١٥ـ إعراب القرآن المنسوب إلى الزَّجَّاج، تحقيق إبراهيم الابياري. الشَّركة العالميَّة للكتاب، مصر.

١٦ـ إعراب القراءات السَّبع وعللها: محمَّد بن أحمد (ابن خالويه). دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٧ـ أعظم سجين في التاريخ: د.عائض القرني. مكتبة العبيكان ـ الرياض ، ط٢ ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٨ـ الإتقان في علوم القرآن: السّيوطي. دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٩ـ الإعجاز البياني للقرآن: د. عائشة عبد الرّحمن بنت الشّاطئ. دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

٢٠ـ الإعجاز اللُّغويّ في القصَّة القرآنيَّة: محمود السيد حسن. مكتبة مركز الدّراسات الإسلاميّة، ط١، ١٩٨١م.

٢١ـ الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: بهجت عبد الواحد. دار الكتب العلميّة ـ

بيروت، ودار الفكر ـ عمّان، ط ٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٢ـ الإقناع في القراءات السَّبع: أحمد بن علي (ابن الباذش)، تحقيق د. عبد المجيد قطامش. مركز البحث العلميّ، جامعة أمّ القرى، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٣ـ الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني. مؤسّسة الكتب الثّقافيَّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٤ـ البدور الزَّاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح القاضي، تحقيق أحمد عناية. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٥ـ البرهان في توجيه متشابه القرآن: محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلميّة، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٦ـ البرهان في علوم القرآن: محمّد بن عبد الله الزَّركشي، تحقيق محمّد إبراهيم. المكتبة العصريّة، بيروت.

٢٧ـ البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع): د. فضل حسن عبّاس. دار الفرقان، عمّان، ط١١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٢٨ـ البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني): د. فضل حسن عبّاس. دار الفرقان، عمّان، ط٥، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٩ـ التّصوير الفني في القرآن: سيد قطب. دار الشروق، ط٦، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٣٠ـ التَّعبير القرآني: د. فاضل السامرائي. دار عمّار، عمّان.

٣١ـ التَّفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب. دار الفكر العربي.

٣٢ـ التَّفسير المنير في العقيدة والشريعة: د. وهبة الزحيلي. دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٣٣ـ التَّفسير الواضح: د. محمد محمود حجازي. مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ط٤، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٣٤ـ التَّوجيه البلاغي للقراءات القرآنيَّة: د. أحمد سعد. مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٣٥ـ التَّيسير في أحاديث التَّفْسير: محمد المكي الناصري. دار الغرب الإِسلامي.

٣٦ـ الجامع الصَّحيح وهو سنن التِّرمذي: التِّرمذي. دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٣٧ـ الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٣٨ـ الجامع لشعب الإيمان: البيهقي، تحقيق مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الرياض ـ السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٩ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي الجوهري. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٣٥٠هـ.

٤٠ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار المعرفة، بيروت.

٤١ـ الرّوح: ابن القيّم الجوزيّة، تحقيق د. السيّد الجميلي. دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط٧، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٢ـ الشّفا: القاضي عياض، تحقيق نوّاف الجرّاح. دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٤٣ـ الصَّداقة والصَّديق: أبو حيّان التَّوحيدي، تحقيق إبراهيم كيلاني، دار الفكر

المعاصر، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.

٤٤ـ الصّفوة من القواعد الإعرابيّة: د. عبد الكريم بكّار. دار القلم، دمشق، ودار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٤٥ـ الطِّبُّ النَّبويّ: ابن قيّم الجوزية. دار الفكر، بيروت.

٤٦ـ العقيدة الإسلاميّة: عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميداني. دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٤٧ـ العمدة في غريب القرآن: مكِّي بن أبي طالب القيسي، تحقيق يوسف المرعشلي. مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ط١، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

٤٨ـ الفتوحات الإِلهية على الجلالين: سليمان بن عمر العجيلي الجمل. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٩ـ الفرج بعد الشِّدَّة: الحسن بن علي التَّنوخي. دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م.

٥٠ـ الفروق اللّغويّة وأثرها في تفسير القرآن: د. محمّد الشّايع. مكتبة العبيكان، الرّياض، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٥١ـ الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٥٢ـ الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان: محمّد بن قيّم الجوزيّة. دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان.

٥٣ـ القراءات وأثرها في علوم العربيَّة: د.محمَّدسالم. دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٤ـ القراءات وعلل النَّحويِّين فيها: محمّد الأزهري، تحقيق نوال الحلوة، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٥٥ـ القصص القرآني: د. أحمد الكبيسي. دار الكتاب الجامعي، العين ـ الإمارات، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٥٦ـ القصص القرآني: د. صلاح الخالدي. دار القلم دمشق، والدار الشّاميّة بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٧ـ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته: د. فضل حسن عبّاس. دار الفرقان، عمّان، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٥٨ ـ الكشَّاف: جار الله محمود بن عمر الزمخشري. دار المعرفة، بيروت.

٥٩ـ المبتدأ في قصص الأنبياء: محمد بن إسحاق، جمع وتوثيق محمد كريم. مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦ م.

٦٠ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " تفسير ابن عطيّة": عبد الحقّ بن عطيّة. الدّوحة، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

٦١ـ المدخل إلى القراءات: عبد الرحمن جبريل. دار الخليج، عمَّان، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٦٢ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث: الحاكم. مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرِّياض.

٦٣ـ المسند: أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد شاكر وحمزة الزّين. دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٦٤ـ المصحف المفسر: محمد فريد وجدي. دار المعارف، القاهرة.

٦٥ـ المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ، دار عمران، ط٣.

٦٦ـ المنتخب في تفسير القرآن الكريم: لجنة القرآن والسُّنة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة. دار الثقافة، الدَّوحة.

٦٧ـ المنجد في اللّغة والأعلام: دار المشرق، بيروت، ط٢٨، ١٩٨٦م.

٦٨ـ الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطبطبائي. بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م.

٦٩ـ النّاسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: ابن العربي المالكي. دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

٧٠ـ النّبأ العظيم: د. محمّد عبد الله دراز. دار القلم، الكويت، ط٢، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٧١ـ النّحو وكتب التّفسير: د. إبراهيم عبد الله رفيدة. المنشأة العامّة، ليبيا ـ طرابلس، ط٢، ١٩٨٤م.

٧٢ـ الوجوه البلاغيَّة في توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة: د.محمَّد الجمل. دار الفرقان، عمَّان، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٧٣ـ الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام: د. حسن محمد باجودة، دار الكتب الحديثة، مصر.

٧٤ـ إمداد القاري: عبيد بن عبد الله بن سليمان الجابري، مكتبة الفرقان، عجمان، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٧٥ـ أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: تفسير البيضاوي: ناصر الدّين بن أبي سعيد الشيرازي البيضاوي، دار الجيل.

٧٦ـ أيسر التَّفاسير لكلام العلي الكبير: أبو بكر جابر الجزائري. ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٧٧ـ بحر العلوم: نصر بن محمّد السّمرقندي، تحقيق د. عبد الرحيم أحمد. مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٧٨ـ بدائع الفوائد: ابن قيّم الجوزيّة. مكتبة نزار مصطفى، مكّة المكرّمة ـ الرّياض، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٧٩ـ بديع القرآن: ابن أبي الإصبع، تحقيق حفني محمّد، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢.

٨٠ـ بستان الواعظين ورياض السّامعين: ابن الجوزي، تقديم د. السّيّد الجميلي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٨١ـ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي. دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م.

٨٢ـ تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، تحقيق السّيد أحمد صقر. المكتبة العلميّة، بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٨٣ـ تاج التفاسير: محمد عثمان الميرغني. دار المعرفة، بيروت.

٨٤ـ تاريخ الأنبياء: أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، تحقيق آسيا كليبان. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م.

٨٥ـ تفسير ابن عربي: محمّد بن علي المعروف بابن عربي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٨٦ـ تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف أبو حيان. دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.

٨٧ـ تفسير التّحرير والتّنوير: ابن عاشور. الدار التونسية، تونس، ط١، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٦٧ م.

٨٨ـ تفسير الحداد: أبو بكر الحداد اليمني، تحقيق د. محمّد إبراهيم. دار المدار الإسلاميّ، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

٨٩ـ تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل : علاء الدين علي بن إبراهيم الخازن. دار الفكر.

٩٠ـ تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمّد بن جرير الطّبري، تحقيق محمود شاكر. دار المعرفة، مصر

٩١ـ تفسير الفخر الرّازي: الرّازي ، دار الطباعة العامرة.

٩٢ـ تفسير القرآن: عزّ الدّين عبد العزيز بن عبد السّلام الدّمشقي. دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٩٣ـ تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير. مكتبة الرياض الحديثة، الرّياض.

٩٤ـ تفسير القشيري المسمَّى لطائف الإشارات : عبد الكريم بن هوازن. دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٠م.

٩٥ـ تفسير النسفي: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. دار الفكر.

٩٦ـ تفسير النَّهر الماد من البحر المحيط: محمد بن يوسف أبو حيان، تقديم وضبط بوران وهديان الصّنّاويّ. دار الجنان، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م.

٩٧ـ تفسير روح البيان: إسماعيل حقي البروسوي. دار إحياء التّراث العربي، بيروت.

٩٨ ـ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير: محمد الرفاعي. مكتبة المعارف، الرّياض.

٩٩ـ جامع البيان في تفسير القرآن: محمد بن جرير الطبري. دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

١٠٠- جامع البيان في تفسير القرآن: محمد بن عبد الرحمن الحسني الحسيني الايجي. علَّق عليه محمد الغزنوي، وحققه منير أحمد. دار نشر الكتب الإِسلامية، باكستان.

١٠١- جامع العلوم والحكم: عبد الرحمن بن شهاب الدّين بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق د. محمّد الأحمدي. دار السّلام القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٠٢- جلاء الإفهام: ابن قيّم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٠٣- جواهر الأدب: أحمد الهاشمي، مؤسّسة التّاريخ العربيّ، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٠٤- حاشية الشهاب: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: البيضاوي. دار صادر، بيروت.

١٠٥- حاشية القُونَوي على تفسير الإمام البيضاوي: عصام الدّين إسماعيل بن محمّد الحنفي. دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٠٦- خريدة القصر وجريدة العصر: العماد الأصبهاني. الدَّار التُّونسيَّة، تونس، ١٩٧٣م.

١٠٧- دراسات في النَّحو القرآنيّ: د. عبد الجبار فتحي. مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

١٠٨- دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني. دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١٠٩- ديوان الإمام الشّافعيّ: شرح د. عمر الطّباع. دار الأرقم، بيروت.

١١٠ـ روائع البيان: محمّد علي الصّابوني. مكتبة الغزالي ـ دمشق، ومؤسسة مناهل العرفان ـ بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١١١ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الألوسي. دار إحياء التراث، بيروت.

١١٢ـ زاد المسير في علم التفسير: عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي. المكتب الإسلامي، دمشق، ط١، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥ م.

١١٣ـ سرّ الإعجاز في تنوّع الصّيغ المشتقّة: د. عودة الله منيع. دار البشير، عمّان، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١١٤ـ سلسلة الأحاديث الصّحيحة: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١١٥ـ سورة يوسف دراسة تحليلية: د. أحمد نوفل. دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١١٦ـ شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك: عبد الله بن عقيل. دار الفكر، بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١١٧ـ شرح المعلّقات العشر: أحمد بن الأمين الشّنقيطي. دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

١١٨ـ شرح رياض الصّالحين: محمّد بن صالح العثيمين. دار الوطن، ط١، ١٤١٦هـ.

١١٩ـ صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري. دار الفكر.

١٢٠ـ صحيح مسلم بشرح النّوويّ: يحيى بن شرف. دار الكتاب العربي، بيروت ـ

لبنان، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٢١ـ صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم، بيروت، ط٤، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م.

١٢٢ـ صيد الخاطر: ابن الجوزي. المكتبة التّجاريّة، مكّة المكرّمة، ط٤، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٣ـ غرائب القرآن وغرائب الفرقان: الحسن بن محمد النيسابوري، تحقيق إبراهيم عوض. القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م.

١٢٤ـ فتاوى علماء البلد الحرام: د. خالد الجريسي. مؤسّسة الجريسي، الرّياض، ط٣، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٢٥ـ فتح الباري: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني. دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٢٦ فتح البيان في إعجاز القرآن: صديق حسن خان. دار الأنصار، القاهرة.

١٢٧ـ فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق بن حسن القنوجي. دار الكتب العلميَّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٢٨ـ فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التفسير: محمد بن علي ابن محمد الشوكاني. دار الفكر.

١٢٩ـ فقه السِّيرة: محمَّد الغزالي، تحقيق محمّد ناصر الدّين الألباني. دار القلم، دمشق،ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣٠ـ فقه السّيرة النّبويّة: د. محمّد سعيد البوطي. دار الفكر المعاصر ـ بيروت، ودار الفكر ـ دمشق، ط٢٦، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٣١ـ فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن: ابن الجوزيّ، تحقيق رشيد العبيدي. مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٣٢- في رحاب التّفسير: عبد الحميد كشك. المكتب المصري الحديث، القاهرة.

١٣٣ـ في ظلال القرآن: سيد قطب. دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط٧، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

١٣٤ـ قصّة يوسف ـ عليه السّلام ـ في القرآن الكريم: أحمد محمود. تقديم ومراجعة: أ.د أحمد نوفل، أ.د. محمود السّرطاوي، أ.د. أحمد شكري. دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣٥ـ قصص الأنبياء: ابن كثير ، ضبط محمّد الفاضلي. المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٣٦ـ قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى. دار القلم العربي، حلب، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣٧ـ قصص وموالد الأنبياء: أبو عبد الرحمن الكسائي ، تحقيق خال شبل. دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٣٨ـ كتاب التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: محمّد بن أحمد بن جزي الكلبي. دار الفكر.

١٣٩ـ لطائف المنَّان وروائع البيان: د. فضل حسن عبّاس.دار النّور، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

١٤٠ـ لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل: د. فاضل السّامرّائي. دار عمّار، عمّان.

١٤١ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف: عبدا لله الغزي الدمشقي العلمي. دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

١٤٢ـ مجمع الأمثال: أحمد بن محمَّد الميداني، تحقيق محمَّد علي. مكتبة المعارف،

بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٤٣ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي. دار المعرفة، بيروت، ط١.

١٤٤ مجمّع الزّوائد ومنبع الفوائد: نور الدّين علي بن أبي بكر الهيثميّ. مكتبة القدسي، القاهرة.

١٤٥ـ محاسن التأويل : محمد جمال الدين القاسمي. علّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

١٤٦ـ مختصر تفسير الطّبري: محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم، بيروت.

١٤٧ـ مسند أبي داود الطيالسي: الطيالسي. دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

١٤٨ـ معالم التّنزيل: الحسين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق خالد العك ومروان سوار. دار المعرفة، بيروت.

١٤٩ـ معاني الأبنية في العربيّة: د. فاضل السّامرّائي. ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٥٠ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطي، تحقيق علي البجاوي. دار الفكر العربي.

١٥١ـ معجم الأساليب البلاغيّة في القرآن الكريم: د. محمّد صالح مخيمر. دار الكتاب الثّقافي، الأردن، اربد ، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٥٢ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاريّ، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. المكتبة العصريّة، صيدا ـ بيروت، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٥٣ـ من أسرار البيان القرآني: د. فاضل السامرائي. دار الفكر، عمّان، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٥٤ـ من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم: محمّد متولي منصور. ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٥٥ـ من بلاغة القرآن: د. محمّد علوان، د. نعمان علوان. الدّار العربيّة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

١٥٦ـ من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف ـ عليه السلام ـ: د. فتحي عبد القادر فريد. مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، ط١، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.

١٥٧ـ من كنوز السّنّة: محمّد علي الصّابوني، دار الصّابوني، ط٥، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٥٨ـ منهاج المسلم: أبو بكر جابر الجزائري. دار الكتب السَّلفيَّة، القاهرة، ط٢.

١٥٩ـ نظم الدّرر في تناسب الآيات والسُّور: إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرّزاق غالب. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٦٠ـ نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب: أحمد بن المقري التّلمساني، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.



الفهرس



صدر للمؤلّف

١ـ اكتساح السّحر: تقديم ومراجعة أ. د. راجح الكردي، دار الفرقان، ط١، عمّان، ١٩٩٠م.

٢ـ قصّة يوسف ـ عليه السّلام ـ في القرآن الكريم: تقديم ومراجعة: أ.د. أحمد نوفل، أ.د. محمود السّرطاوي، أ.د. أحمد شكري. دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٣ـ شهيد الدّار عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ: تقديم ومراجعة أ. د محمود السَّرطاوي. دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٤ـ وأد الفتنة: دراسة نقديّة لشبهات المرجفين وفتنة الجمل وصفّين على منهج المحدّثين: تقديم ومراجعة: أ.د محمود السَّرطاوي، أ.د أحمد نوفل، أ.د محمّد العمري. دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

